

محمد أحمد بابي

بين معارك الإسلام الفاصلة

٥

صَلَحُ الْحَيَاتِيَّةِ

دار الفكر



صَلِّحْ الْحَيْنِئِيَّةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الرابعة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

محمد أحمد بابشمل

الكتاب الخامس

من معارك الإسلام الفاصلة

- ٥ -

صَلِّحَ الْحَيَّةِ

طال الفکر

تقديم الكتاب سليم الكولونييل عبدالله التل

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد النبي الكريم الأمين
وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فهذا هو الكتاب الخامس الذي يكتبه الاستاذ محمد أحمد
باشميل ، في سلسلة ممارك الإسلام الفاصلة . وقد سبقه من الكتب
غزوة بدر الكبرى ، غزوة أحد ، غزوة الأحزاب ، وغزوة
بني قريظة . وموضوع هذا الكتاب الخامس هو :

(صلح الحديبية) وما سبق ذلك الحدث التاريخي الحاسم
من أحداث سياسية وعسكرية ، شرح المؤلف منها تسع عشرة
غزوة وحملة وسرية . وقد أحسن صنعاً في ذلك ، لأن أحداث
السيرة النبوية العسكرية والسياسية جميعها مهمة وجديرة بالتدوين
لتقدم لجيل شبابنا المهزوم ، زاداً طاهراً نقياً ، ينهلون منه
ويقتبسون العبر والدروس من عظمة الرسول وصحابته الأبرار ،
الذين صنعوا الأجداد بإيمانهم وصبرهم وحكمتهم وشجاعتهم ،
ووطدوا لنا أركان الإسلام ، ففدونا نصحو اليوم لنرى امتداد
الإسلام ، من إندونيسيا شرقاً الى تطوان غرباً ، بفضل ما بذله

الجيل المثالي ، جيل محمد ﷺ من تضحيات وبطولات .

وتجعل عظمة الرسول ﷺ في قصة صلح الحديبية ، فيما صاحب ذلك الحدث التاريخي من عزمه عليه الصلاة والسلام ، على أداء العمرة ، بينما كانت قبائل (نجد) المجاورة للمدينة ، معادية ومتعاونة مع كفار قريش ، وفيما كان يهود خيبر يتعفزون للانتقام من الدين الجديد الذي هزم أهلهم من بني قينقاع ، وبني قريظة ، وبني النضير ، وأذلهم لتأمرهم على الإسلام وغدرهم بالمسلمين . ومع كل تلك الأخطار استنفر أصحابه وخرج بهم من المدينة قاصداً العمرة ، وزيارة الكعبة التي حرم المسلمون منها طيلة ست سنوات تقريباً .

حقاً لقد كانت تلك الرحلة التاريخية للعمرة محفوفة بالأخطار كان كل شيء على السطح يشير الى أن قريشاً القوية ، ذات العدد والعدة ، ستشن على المسلمين حرباً (عندما يقتربون من مكة) حرباً بلغ بضعاف النفوس من المنافقين الجبن الى أن يعتقدوا أن نهاية المسلمين ستكون فيها على أيدي قريش .

الأمر الذي حمل كثيراً من منافقي المدينة والأعراب ، على الاعتذار عن مصاحبة الرسول العظيم في هذه الرحلة التي لم رافقه فيها سوى ألف وأربعمائة ، هم الصفوة المختارة التي خلد الله ذكراهم ، وأعلن رضاه عنهم في قرآن يتلى الى يوم الدين :
﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعليم

ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً^(١) .

* * *

إن تصرفات الرسول القائد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، في حوادث الحديبية ، هي في حد ذاتها دستور شامل يمكن الرجوع اليه للاقتباس منه في باب (الحكمة والأناة وُبعد النظر وضبط النفس والسيطرة على الأعصاب أمام استفزازات السفهاء وتحدي الحمقى ، وفي مجال العدل والوفاء بالعهد واحترام المعارضة النزيهة) . . إن الرسول ﷺ لم يتوصل إلى عقد الصلح إلا بعد أن اجتاز مراحل شاقة وتقلب على مشاكل عويصة معقدة ، سواء في محيط أصحابه الكرام المعارضين لإبرام هذا الصلح ، أم في محيط قومه من قريش الذين حشدوا كل ما لديهم ولدى حلفائهم من قوات حربية ليغوضوا مع المسلمين معركة لم يخرجوا لها ولا يرغبون فيها .. فأحبط بشجاعته وحلمه وصبره معاً ، خطط المتنورين القرشيين الشريرة وجعلهم يمنعون إلى السلام ، بدلاً من الحرب فيسمعون (هم أنفسهم) لعقد هذا الصلح التاريخي .

كان الرسول العظيم قمة في الحكمة السياسية حين أقدم على الصلح مع قريش ، مخالفاً آراء عدد كبير من صحابته الذين قاسوا الأمور بمظهرها السطحي ، ولم يكن لهم بعد نظر الرسول

(١) سورة الفتح ١٨

الحكيم الحليم . وسرعان ما أثبتت الأحداث صدق الرسول ﷺ
وبعد نظره ، فحقق صلح الحديبية ما كان الرسول ﷺ يؤمل
من ورائه . وأخذ المسلمون يعملون على نشر الدعوة الإسلامية
بحرية وقوة ، فتضاعف عدد المسلمين ، وتسربت فضائل الإسلام
وأخلاق المسلمين الكريمة الى نفوس عدد كبير من شيوخ القبائل
ورؤوس الكفر في قريش ، مما جعلهم يغيثون نظرهم الى الدين
الجديد ، ويقتلون من عداوتهم لأتباعه . ومن أهم فوائد صلح
الحديبية أنه أسهم في إنجاح خطة غزوة خيبر والقضاء نهائياً على
خطر اليهود في جزيرة العرب .

* * *

إن هذا الكتاب (صلح الحديبية) وما أصدره وسيصدره
الأستاذ باشميل بإذن الله من سلسلته التاريخية (معارك الإسلام
الفاصلة) هو جهد مشكور يبذله المؤلف لتوعية الشباب الإسلامي
وتعريفه بتاريخنا الإسلامي المجيد ، الذي هو المرآة الصافية التي
تنعكس على صفحتها حقيقة ماضينا الإسلامي المشرف الذي
تفص عند ذكره - حلو المارقين المبطلين من عبيد المذاهب
المادية الهدامة الدخيلة - من المفكرين العملاء الذين يعملون
(عن قصد مسبق خبيث) على تشويه هذا التاريخ المشرق
الوضاء وطمسه .. بغية قطع صلتنا بماضينا الإسلامي الذي منه
نستمد قوتنا الحقيقية التي تخيف أسيادهم الذين استأجروهم
ليعملوا بكل الوسائل على بتر هذه الصلة ، لكي يتمكنوا من

ربطنا بمعجلة مذاهب وعقائد ومبادئ غريبة عنا، دخيلة علينا، فاسدة في ذاتها .. أثبتت فشلها وإفلاسها في موطنها الأصلي قبل أن تتدفق جداول عفنها علينا من وراء الحدود .

* * *

إن العناية بالتاريخ الإسلامي ودراسته دراسة موضوعية واعية ، هي من أهم الروافد التي تغد الإنسان المسلم بعناصر الشجاعة والرجولة والتضحية والفداء ، وتحرك في نفسه عوامل الاستقامة ودواعي الخير لما في طيات هذا التاريخ الخالد من عبر ومواعظ ودروس بنّاء نافعة ، حفرها على جبين الزمان وسطرّها بأحرف من نور ، خيار هذه الأمة بأعمالهم الجليلة التي بها بلغوا أعلى قمم المجد ، والتي كانوا يستوحونها من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف الذي اجتذبهم من زوايا النسيان وقفز بهم من مؤخرة الشعوب ، ليقعدهم أمام دفة قيادة العالم ليكبروا أساتذة للأمم وقادة للشعوب .

* * *

وكم هو نافع ومفيد لأمة العرب (وهي تخوض المعركة الحاسمة لهُو العار عن جبينها الذي لطّخه به انحرافها عن تعاليم الإسلام) لو أن العملاء المستأجرين المندسين في صفوفها والمتربعين على مقاعد قيادات فكرية وإعلامية في أجهزتها الحساسة ، يوجهون الشباب العربي خاصة الى دراسة تاريخ خالد بن الوليد ، وسعد بن أبي

وقصاص ، وعمرو بن العاص ، وأبي عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن القاسم ، وموسى بن نصير ، وصلاح الدين الأيوبي ، ومحمد الفاتح وغيرهم من بناء الأجداد الإسلامية ، بدلاً من إشغال عقول هؤلاء الشباب وتلوئشها بدراسة تاريخ علوج الإلحاد أمثال : كارل ماركس ، وأنجلز ، وماوتسي تنج ، وغيفارا ، وكاسترو وهوشي منه ، وأمثالهم من ألد أعداء الإسلام .

* * *

إن أمة الإسلام والعرب بالذات لن يجدوا سبيلاً الى استعادة أمجادهم الضائعة وتحقيق وحدتهم المنشودة. إلا إذا استلهموا ماضيهم الإسلامي المشرق المجيد ووثقوا صلتهم بالله تعالى عن طريق اتباع دينه والإهتمام بهدي رسوله العظيم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وإنني إذ أدعو الله مخلصاً أن يثيب الأخ الأستاذ باشميل على هذا الجهد الذي بذله ويبذله لعرض هذه الصفحات المشرقة المتلألئة من تاريخنا الإسلامي العظيم ، عبّرَ هذه السلسلة التاريخية التي يقوم بتأليفها .. أدعو كل مسلم عربياً كان أو غير عربي (وخاصة الشباب المثقف ومن له صلة بالشؤون العسكرية والسياسية من أية رتبة كان) أن يعكف على دراسة هذه السلسلة من معارك الإسلام الفاصلة التي خاضها محمد ﷺ وأصحابه الكرام ، الذين (عبّرَ هذه المعارك) بنوا لنا هذا المجد الباذخ

الأثيل ، وشيّدوا لنا سمعة عطرة كانت ملء سمع الدنيا وبصرها
حقى مرّغ الانحراف عن جادة الإسلام هذه السمعة ، ومسح بها
الأرض ، وكان آخر نتائج هذا الانحراف (ولعله أفضمها) تزيغ
سمعة مائة مليون عربي ، بل سبعمائة مليون مسلم ، على يد مليوني
يهودي ، من شذّاذ الآفاق ونفائيات الأمم يوم الخامس من
حزيران الأسود .

اللهم بك نستجير وإليك نضرع ، أن تعيد أمة محمد الى
صراطك المستقيم وتلهمها العمل بكتابك وُسنة نبيّك ، لتستعيد
عجدها الضائع وقوّتها المفقودة ، وتستأنف سيرها بالإنسانية من
جديد في دروب الخير والمحبة والتسامح والسلام ، إنك على كل
شيء قدير .

عبد الله التل

قائد معركة القدس سنة ١٩٤٨ م

عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد المؤلف

- ١ -

اللهم صل على منقذ البشرية ، ومحرر الإنسانية ، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وارزقنا اللهم السداد في القول والتوفيق في العمل إنك على كل شيء قدير .

وبعد ، فهذا هو كتابنا الخامس (صالح الحديبية) نقدته الى قراء التاريخ الإسلامي ضمن سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) التي عقدنا العزم (بعون الله تعالى) على إصدارها ، في محاولة متواضعة لتبصير أجيالنا بالتاريخ الإسلامي المشرق الحافل بالبطولات والأجناد ، والذي تحالفت لطمسه أو تشويهه جهات كلها عدو للإسلام والمسلمين . وظاهرها - ولا يزال يظاهرها مع الأسف - نفر من المفكرين ، هم من أبناء جلدتنا ويتكلمون لغتنا ويتكلمون لغتنا ، بل ويحملون هويات تجعلهم محسوبين على ديننا .

هؤلاء ساهموا إلى حدّ مؤسف جدّاً في تحريف التاريخ الإسلامي ، وحاولوا طبع ما في هذا التاريخ من محاسن وفضائل بطابع مبادئ ومذاهب سياسية دخيلة على الوطن الإسلامي ، بل هي والإسلام على طرفي نقيض .. وهو أمر خطير يجب على المربين والمسؤولين عن التربية والتعليم في أي بلد يدين بالإسلام أن يقاوموه بكل الوسائل ، ويعملوا على إزالة الأثرية والسوافي التي ألقى بها الأعداء على جوهر هذا التاريخ لطمس معالمه الوضاعة المشرفة التي يمكن أن يستضيء بها الشباب المسلم على دروب الفضيلة والاستقامة التي (إن سار عليها) ستنتهي به إلى سلم العزة والكرامة والمجد ليرقاه رافع الرأس ووضاح الجبين .

- ٢ -

إن ما حدث قبل وحق عقد هذا الصلح التاريخي الخالد لم يكن معركة حربية بالمعنى التقليدي المتعارف عليه في القاموس العسكري .

فلم تلتب هناك معارك دامية في بطاح الحديبية بين المسلمين وقريش ، كما نشبت في بطاح بدر وشعاب أحد ومشارف الخندق ووديان خيبر ومرتفعاتها ، والتي نتجت عنها تلك الانتصارات لصالح الإسلام والمسلمين .

ولكن نتائج (صلح الحديبية) الإيجابية لم تكن أقل من نتائج أية معركة من تلك المعارك الظافرة الدامية الفاصلة .

بل إن نجاح الرسول الأعظم ﷺ في عقد صلح الحديبية مع قريش حقق للدعوة الإسلامية من المكاسب (على كل المستويات السياسية والروحية والمعنوية والعسكرية) ما لم تحققه له أية معركة خاضها النبي محمد ﷺ وأصحابه الكرام بالسيف والرمح والذبل .

شهد بذلك كبار الصحابة الذين كانوا قد عارضوا النبي ﷺ أشد المعارضة في عقد هذا الصلح كما سيراه القارىء مفصلاً في 'صلب' هذا الكتاب عند التعرض بالتحليل لدروس ومكاسب هذا الصلح التاريخي .

بل لقد شهد القرآن الكريم بعظيم هذه المكاسب وخلد ذكرها في آيات تتلى الى يوم القيامة ، حيث وصف صلح الحديبية بأنه (الفتح المبين) (١) .

وهو أمر لم يعطه القرآن الكريم وصفاً لنتائج أية معركة أو حادثة في العهد النبوي سوى (لصلح الحديبية) .

إذن ، من هنا يمكن القول : أن صلح الحديبية هو حصة كسب لأعظم معركة دارت بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي من حيث النتائج الإيجابية التي بها توطدت دعائم الإسلام وبفعلها تصدعت قواعد الوثنية ، ثم انهارت واضمحلت من الوجود . كما هو مفصل في فصول هذا الكتاب .

(١) انظر حديث القرآن عن صلح الحديبية في هذا الكتاب .

لذلك أدرجنا (صلح الحديبية التاريخي هذا) ضمن سلسلة
(معارك الإسلام الفاصلة) ، لأنه من حيث النتائج ينطبق عليه
كل الانطباق ، اسم المعركة الفاصلة .

- ٣ -

إن النبي الأعظم ﷺ لم يتوصل الى عقد صلح الحديبية إلا
بعد أن خاض سلسلة من الصراعات الشاقة والمعارك المضنية على
الصعيدين الداخلي - محيط أصحابه المعارضين للصلح أشد
المعارضة - والصعيد الخارجي - محيط قومه وأهله وعشيرته من
مشركي قريش الذين لم يتركوا وسيلة من وسائل الاستفزاز
والتحدي إلا واتبعوها لإثارة النبي ﷺ وأصحابه .

فهي إذن معارك شاقة خاضها النبي - منذ خروجه من
المدينة حتى إبرام هذا الصلح - على جبهتين .

في محيط أصحابه خاض معارك طرفاها :

١ - العقل الراجح ، والأفق الواسع ، والنظرة البعيدة ،
والآناة والحلم والصبر الذي لا يعرف الحدود .

٢ - العاطفة الفوارة العابرة التي لا يفكّر المستعجب لها
في العواقب .

محمد ﷺ في جانب العقل والصبر والحلم والآناة ، يصرّ على
الالتزام بجانب التروي والصبر وعدم الإجابة على استفزاز أهله

وعشيرته باستفزاز مثله ، ويعمل جاهداً على نبذ فكرة الحرب والسعي لتحقيق السلام بين المسلمين وقريش .

وعامة الأصحاب في جانب العاطفة الجياشة يعارضون الصلح أشد المعارضة ، ويستعجلون الصدام الدامي مع قريش ، مفضلين الاحتكام الى السيف على طول الانتظار في الحديبية ، وعلى القبول بصلح يرون قبول بعض شروطه مذلةً للمسلمين ومساساً بكرامتهم .

وفي محيط أهله وعشيرته المشركين خاض محمد ﷺ معارك خصاها :

١ - داعي الرغبة في صلة الرحم والحفاظ عليها وإعطائها حقها من الرعاية ، والحرص على هداية الأهل والعشيرة ليخرجوا من ظلام الشرك الى نور التوحيد .. والعمل على حقن الدماء وصون الأرواح (أياً كانت) من أن تزهق .

٢ - داعي المنهجية الجاهلية و صلف الكبرياء الوثني المقيت والاستجابة الجانحة لدواعي الشر ونوازع البطر والطغيان .

● محمد ﷺ في جانب الداعي الأول .. يبلغ قومه وعشيرته رسماً أنه لم يأت للعرب ولا رغبة له فيها ، وأنه إنما جاء معتمراً يزور الكعبة ثم يعود بأصحابه من حيث أتوا .

● وقريش تقسم أغلظ الأيمان أنها ستصد محمداً وأصحابه عن البيت حق وإن لم يأتوا إلا لزيارته ، وتستنفر كافة قواتها وقوات

حلفائها (ثمانية آلاف مقاتل) وتمسك بهم خارج مكة لتبر
-بقسمها الإثم هذا .

● محمد ﷺ يبعث بالوسيط تلو الآخر الى قريش يدعوهم إلى
السلام ويؤكد لهم عدم رغبته في الحرب ، ويعرض عليهم إقامة
سلم يأمن فيه المسلمون والقريشون بعضهم بعضاً .

● وقريش إزاء هذه المساعي النبوية السلمية تشتت في طغيانها
وبطرها فتبعث بعدة وحدات من فرسانها لتعترض طريق النبي ﷺ
وأصحابه وتسدها عليهم بنصال السيوف لتجرهم إلى حرب لم
يخرجوا لها ولا رغبة لهم فيها .

● محمد ﷺ - تجنباً للصدام الدامي مع أهله وعشيرته - يعدل
عن سلوك الطريق الرئيسي الذي يسده خالد بن الوليد بفرسانه
المشركين ، ويسلك طريقاً غير مطروق ليفضي به إلى سهل
الحديبية ، فيعسكر بأصحابه هناك خارج الحرم في انتظار فرصة
يتحقق فيه سلام بينه وبين أهله وعشيرته .. ولئلا يحدث بين
أصحابه وبين مشركي مكة احتكاك يؤدي إلى حرب هي أكره
ما تكون إلى نفسه .

● وقريش إزاء كل هذا السمو الانساني والنبيل الأخلاقي ، تبعث
بسفهاء ليتسللوا في جنح الظلام الى معسكرات المسلمين في
الحديبية فيغيروا عليهم لاستفزازهم وتحذني مشاعرهم ليفقدوا
صوابهم .

● محمد ﷺ يطلق سراح سبعين من المشركين المتسللين المعتدين بعد أن ألقى عليهم الحرس النبوي القبض وهم يتسللون.. فيعفو عنهم تكريماً وصلة للرحم وتخفيفاً لحدة التوتر .

● وقريش تزيد تصعيد الأزمة وتحاول تفجيرها فتحتجز مبعوث النبي الخاص في مكة (عثمان بن عفان وعشرة من الصحابة) دخلوا مكة بإذن من سادات قريش وفي جوارهم .

فيزداد التوتر في الحديبية بين أصحاب النبي ﷺ وترتفع نسبة الغليان في النفوس وتتزايد الأصوات الداعية الى تأديب قريش الباغية وجدع أنف كبريائها الوثني بحدّ السيف.. والنبي الأعظم ﷺ حيال هذا وذاك يأمل في أن يحل السلام ويسود الوئام بين المعسكرين ، ويعمل على تلطيف الجو وتخفيف حدة التوتر .

— ٤ —

متاعب مضنية ومشاكل عويصة معقدة واجهها النبي الأعظم ﷺ ، كان بعضها كاف لتحطيم الأعصاب وحمل من يواجهها على الخروج عن دائرة الحلم والصبر .. لولا أن الذي واجهها محمد بن عبد الله النبي صاحب أرجح عقل وأهدأ نفس بين بني البشر جميعاً .

فقد عالج النبي محمد ﷺ كل هذه المشاكل المعقدة ، وتغلب على كل هذه المصاعب المضنية المرهقة بعميق حكمته وسداد رأيه ورجاحة عقله وبعد نظره وسعة حلمه ، حتى كانت الثمرة البانعة لذلك المجهود العظيم الذي بذله سيد البشر ومنقذ البشرية ، هي

صلح الحديبية التاريخي الخالد الذي (كثره من ثمراته العظيمة المباركة) دخل على الدعوة الإسلامية من المكاسب وتحقق لها من الانتصارات خلال سنتين اثنتين ما لم يدخل عليها وما لم يتحقق لها خلال تسعة عشر عاماً ، كما سجل ذلك المحدثون الثقات في كتب السنة النبوية .

إن صلح الحديبية هو حدث من أهم أحداث التاريخ، بعقده تحول مجرى الصراع بين الإسلام والوثنية في جزيرة العرب لصالح الإسلام والمسلمين حتى قضى قضاء تاماً على الشرك والوثنية وكانت السيادة التامة للتوحيد والتوحيد فقط .

وفي صلح الحديبية عبر ومواعظ .. وحكم ودروس ، في الحلم والصبر وضبط النفس والوفاء بالعهد، وتقبل الانتقاد الهادف، وتحمل المعارضة النزيهة ، وتحمل الأذى ، لبلوغ الأهداف النبيلة السامية .. عبر ، ومواعظ ، وحكم ، ودروس ، جديرة بالاهتمام والبحث والتمعن للاستفادة منها والاستضاءة بنورها ، وخاصة لمن هم في مقعد الريادة وكرسي القيادة .. والله نسأل أن يوفقنا جميعاً للاهتمام بهدي نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، والله أكبر والله الحمد .

محمد أحمد باشميل

جدة - المملكة العربية السعودية

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

الفصل الأول

مجل الأحداث السياسية والفكرية بين غزوة بني قريظة وصلاح الحديبية

لم تعد هناك قبيلة من قبائل الوثنيين العرب (عندما ظهر الإسلام) إلا وناصبته العداوة .

وعندما وجد هذا الدين أنصاراً ، أقوياء في المدينة مؤمنين يذوبون عنه وعن نبيه أكثر مما يذبثون عن نسايتهم وأطفالهم تضاعفت عداوة من بقي من الأعراب على الوثنية للإسلام . وكان هؤلاء الأعراب الوثنيون يتربصون (دائماً بالإسلام) الدوائر . ويحاول الكثير منهم الإغارة على المسلمين في المدينة (حاضرة الإسلام الجديدة) .

الأعراب والأحزاب :

وعندما كانت معركة الأحزاب (في أواخر السنة الرابعة من الهجرة) ناشبة بين المسلمين (وهم لا يزيدون على ألف مقاتل) من جهة ، وبين أعراب نجد وقبائل الحجاز واليهود وعددهم لا يقل عن أحد عشر ألف مقاتل) من جهة أخرى .. كان

الاعراب الوثنيون - بعواطفهم ومشاعرهم وقلوبهم دونما استثناء مع إخوانهم الوثنيين من قبائل الحجاز وعشائر نجد وأحلافهم من اليهود يطمنون أن يكون لهم النصر الساحق على جيش الإسلام الصغير .. بل وما كانوا يشكون لحظة في تحقيق هذا النصر .. لأن كل شيء ماديّ يشير على نحو ساحق بأن الأحزاب الوثنية ومخزبيها من اليهود سيكونون هم المنتصرين في المعركة .

ولكن الأمر جاء على خلاف ما يتوقع ويتمنى هؤلاء الأعراب الوثنيون حيث كتب الله الفشل الذريع لشروع الغزو اليهودي الكبير فاندحرت جيوش الأحزاب الجرارة ، وعادت إلى نجد ومكة تجر أذيال الهزيمة والعار ، بعد أن فشلت (أمام القلة المسلمة الجبارة) في اقتحام المدينة .. فانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً لم يحققوا مثله في عهد النبوة (بالنسبة لقتلهم وكثرة عدوهم) ، ووقع اليهود في عملهم السيئ ، فتم إعدام ثمانمائة من خونة بني قريظة وعلى رأسهم محزّب الأحزاب ورأس الفتنة والشر (حيي بن أخطب النضري) وفر إلى خيبر مرعوباً زميله في الخيانة والتآمر (سلام بن أبي الحقيق) الذي تمكن خمسة من الفدائيين الأنصار من قتله وهو على فراش نومه في رأس حصنه كما سيأتي تفصيله .

وهذا انقلب ميزان القوى في جزيرة العرب إنقلاباً خطيراً لصالح معسكر الإسلام وبصورة جعلت القائد الأعلى لهذا المعسكر (النبي محمد ﷺ) يشدد من قبضته على دفة القيادة

للجزيرة العربية بأكملها .. الأمر الذي ما كانت تتخيل (سوى حدوث عكسه) أحزاب الوثنية والكفر ، عندما كانت لها قوات ضاربة مؤلفة من أحد عشر ألفاً) تحاصر المدينة التي لم يبلغ الجيش المدافع عنها أكثر من ألف مقاتل .

العمليات العسكرية :

كانت الدروس المستفادة من الماضي والتي وعها المسلمون من تجاربهم (عبر أربع سنوات) مع الاعراب الوثنيين وكل أحزاب الكفر من اليهود .. أثبتت أن " العمل العسكري (وخاصة ضد الاعراب واليهود) هو السبيل الوحيد لتأمين وسلامة أمن المنطقة وتهيئة الجو لدعوة التوحيد لتأخذ طريقها إلى العقول والقلوب بالقدر المطلوب من الحرية المطلوبة .

ولهذا (كما أثبتت الاحداث فيما بعد) قرر النبي القائد ﷺ مضاعفة النشاط العسكري ضد اليهود وسكان البوادي من الأعراب في نجد والحجاز على السواء .

فقرر اجتثاث سلطان اليهود الزنيم (بقوة السلاح) نهائياً — في خيبر وبقية المناطق الشمالية ، كما قرر القيام بحملات عسكرية تأديبية قوية ضد الاعراب في نجد والحجاز .

خيبر آخر المطاف :

وكان آخر المطاف في هذا العمل العسكري هو غزوة خيبر التي بهائم للمسلمين تصفية العنصر اليهودي الدخيل في جزيرة العرب تصفية كاملة .

وقبل القيام بالحملة الكبرى لتصفية اليهود في (خيبر) قام النبي ﷺ بعشرين عملية عسكرية كانت على شكل سرايا يبشها لت. ب العرب وخضد شوكتهم .. ومنها حملتان.. وطىء فيهما رجاله من الانصار مدينة خيبر ، وتمكنوا من الفتك فيها بملكين من ملوكها الواحد تلو الآخر ، وهما : سلام بن أبي الحقيق الملقب (بأبي رافع) وأسير بن زارم .

— ١ —

حملة القرطاء — ١٠ محرم سنة خمس للهجرة

كانت العشائر النجدية من أجراء العناصر البدوية الوثنية على المسلمين ، لأن النجديين أهل قوة وبأس وعدد غامر ، وقد رأينا كيف أن العمود الفقري لقوات الأحزاب الضاربة ، كان من هذه القبائل النجدية حيث كان رجال هذه القبائل الشرسة يشكلون الأغلبية الساحقة من تلك القوة الضاربة .. ستة آلاف مقاتل من غطفان وأشجع وأسلم وفزارة وأسد ، كانت ضمن الجيوش التي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين ، فحاصروهم أهل المدينة .

ولهذا فإن أول حملة عسكرية وجهها النبي لتأديب خصومه (بعد انتصاره الساحق في غزوة الخندق وبني قريظة) هي تلك

— ٢٣ —

الحملة التي جردّها على القبائل النجدية من بني بكر بن كلاب^(١) الذين كانوا يقطنون التروطاء بناحية ضريبة^(٢) على مسافة سبع ليال من المدينة .

ففي أوائل شهر المحرم عام خمس للهجرة - وبعد الإنتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة - وجّه النبي ﷺ إلى هؤلاء الأعراب حملة تأديبية بقيادة رئيس حرسه الخاص (محمد ابن مسلمة الأنصاري) ، وكان عـدد قوات هذه الحملة ثلاثين راكباً فقط .

. ويظهر أن النبي ﷺ أمر قائد هذه الحملة أن لا يتعرض للنساء بني كلاب بالسبي إذا ما ظفر بهم في حملته .

وقد تحرك (ابن مسلمة بهذه الحملة العسكرية ، وكان يمكن النهار ويسير بالليل حتى أغار على بني بكر بن كلاب في ديارهم بعد أن باغتهم ، فأبدوا بعض المقاومة ، إلا أنهم هربوا في النهاية بعد أن تركوا عدداً من القتلى (قال في السيرة الحلبية : إنهم عشرة) . قال ابن سعد في (طبقاته الكبرى) : كان بنو بكر

(١) بكر بن كلاب من قبائل نجد العظيمة، قال في معجم قبائل العرب: وهي من قبس عيلان من العدنانية ، بلادها واسعة ، فيها كثير من الجبال والمياه .

(٢) قال ابن بليهد في (صحيح الأخبار) ضريبة - بالفتح ثم الكسر وياء مشددة - قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد .

ينزلون البكرات بناحية ضريّة ، وقد أمر النبي ﷺ ابن مسلمة أن يشن عليهم الغلّة ، فसार الليل وكمن النهار ، وأغار عليهم فقتل نفراً منهم وهرب سائرهم ، واستاق خمسين بعيراً وثلاثة آلاف شاة .

قال ابن سعد : وفي هذه الغزوة لم يعرض المسلمون للظعن (أي النساء) وقد قسم النبي ﷺ بين الغازين الغنيمة بعد تخميسها فعدّوا الجزور (واحدة من الإبل بعشرة من الغنم) ، وقد استغرقت هذه الحملة من الوقت تسع عشرة ليلة ^(١) .

سيد حنيفة في الاسر :

ويقول المؤرخون : إن هذه السرية التي يقودها محمد بن مسلمة ، قد أسرت (وهي في طريقها) سيداً من سادات بني حنيفة وهو (ثمامة بن أثال الحنفي) .

وكان قد جاء متنكراً لاغتيال النبي ﷺ بإيعاز من (مسيلة الكذاب) ^(٢) ، وكانت سرية ابن مسلمة قد أخذت (ثمامة وهي لا تعرفه) ، فلما رآه النبي ﷺ قال : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي فأحسنوا أساره .. وأمر ﷺ بتخصيص ناقة يأتي لبنها الى ثمامة كل مساء وصباح .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ (ص ٧٨) .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ (ص ٢٩٧) .

وقد أحسن النبي ﷺ معاملة سيد بني حنيفة الأسير، وكان يزوره في معتقله ويلاطفه .. حتى أثرت هذه المعاملة النبوية الحسنة في نفسه إلى درجة تحوّل معها من أشد الناس بغضاً للنبي ﷺ إلى أعظمهم حباً وتفانياً في تدعيم دعوته .

فقد زاره النبي مرة وهو في معتقله ، فقال له (ملاطفاً) :
ما عندك يا ثاممة؟ .. فقال : يا محمد عندي خير.. إن تقتل تقتل ذا دم .. وإن تعف .. تعف عن شاكرك .. وإن تريد المال فسل ، تعط منه ما شئت !!

غير أن النبي ﷺ لم يقتله ولم يطلب فدية ، بل عفا عنه ، ليذهب حراً كيف شاء .. إلا أن ثاممة (وقد ملكت عليه مشاعره وأخذت بزمام قلبه تلك المعاملة النبوية الكريمة النبيلة) لم يعد إلى قومه كما جاء مشركاً بل عاد إليهم داعية إلى دين التوحيد (وكأشد ما يكون الداعية المخلص) .

فبعد أن عفا عنه النبي ﷺ وأمر بإطلاق سراحه جاء إلى النبي ﷺ وقال له : يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك .. فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ .

والله ما كان على الأرض من دين أبغض إليّ من دينك .. فقد أصبح دينك أحب الدين كله إليّ .

والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إليّ .

ثم شهد شهادة الحق فأعلن إسلامه، فكان من خيرة الصحابة
ومن أثبت بني حنيفة إسلاماً .. وعند ما أشعل مسيلة الكذاب
ذيران فتنة الردة في نجد ، ثبت ثامة على إسلامه ، وكانت إلى
جانب جيوش الخلافة يقارع الكذاب .

ثامة ينتصر للإسلام من قريش :

وفي صحيح البخاري أن ثامة قال للنبي ﷺ (بعد أن
أسلم) : إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟
فأمره النبي ﷺ أن يعتمر ففعل .

قريش تعتقل ثامة :

ولما كان ثامة يستند إلى عصبية قبلية قوية (إذ هو سيد بني
حنيفة) أبى أن يدخل إلا مجاهراً في عمرته بالتلبية ، فلما قدم
بطن مكة لبس رافعاً بها صوته .

فاعتبرت قريش ذلك تحدياً لها فاعتقلته وقالت له : لقد
اجترأت علينا، ثم اتهموه بأنه قد صبا حيث قالوا له : لقد صبوت
يا ثامة .

فقال : ما صبوت، وإنما أسلمت وتبعت خير دين .. دين
محمد ، فزاد ذلك من غيظهم ، فشدوا من حبسه .. وكان قد
أنذرهم حالفاً بالله بأنهم لن يروا حبة حنطة تصل إليهم من
اليامة ، حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ .. وكانت اليامة ريفاً

لأهل مكة يعتمدون على محاصيلها لتموينهم بالمواد الغذائية الضرورية .

ولقد حاول كفار مكة قتل ثامة . . . وفعلوا قدماً موه لضرب عنقه ، إلا أن أحد عقلائهم نصحهم بأن لا يفعلوا (خوفاً من أن يكون رد فعل قتله لدى قومه بني حنيفة قطع المواد الغذائية عن مكة فيهلك الناس جوعاً) حيث قال: دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليامة ، فخلّوا سبيله خوفاً من انتقام قومه .

منع بيع محاصيل اليامة في مكة :

وفعلوا لقد برّ هذا الزعيم الحنفي العظيم بقسمه ، فأمر قومه في اليامة بأن ينعوا عن قريش ما كان يأتي إليها من اليامة من حبوب ومنافع ، فأضر ذلك بقريش ضرراً كبيراً إلى درجة تفشت معها المجاعة في مكة . حتى أكلت قريش العليل^(١) .

ولم تجد قريش وسيلة لرفع ضائقة الجوع إلا التوجه إلى النبي ﷺ ليطلب من سيد بني حنيفة رفع الحصار الاقتصادي الذي فرضه عليهم .

قال ابن عبد البر في الاستيعاب : وكتبت قريش إلى رسول الله ﷺ : إن عهدنا بك تأمر بصلة الرّحيم ونحث عليها ، وأن

(١) العليل (يكسر العين وسكون اللام وكسر الهاء) .. الدم يخلط بأبواب الأبل فيشوى على النار .

'ثَمَامَة' قد قطع عنا ميرتنا وأضر بنا ، فإن رأيت أن تكتب إليه . أن يخلّي بيننا وبين ميرتنا فافعل .

فاستجاب النبي ﷺ لرجاء قومه (بالرغم من أنه في حالة حرب معهم) ، وكتب إلى سيد بني حنيفة (ثامة) : ان خلّي بين قومي وبين ميرتهم . . فامتثل 'ثَمَامَة' أمر نبيّه وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكة فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة^(١) .

- ٢ -

حملة الغمر^(٢) - ربيع الأول سنة خمس للهجرة

كانت قبائل بني أسد وهي من أقوى القبائل النجدية قد اشتركت (بقيادة طليحة بن خويلد) في معركة الخندق الى جانب الأحزاب ضد المسلمين . . فأصبحت بذلك عدواً محارباً للمسلمين .

فكان من البدهي أن يقوم النبي ﷺ بتأديبها وإرهابها بالإغارة عليها لإعطائها درساً بأن المسلمين في حالة من القوة العسكرية تكفّنهم من أن يصلوا بهجماتهم إلى قلب بني أسد .

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٩٨ والاستيعاب لابن عبد البر (ترجمة ثامة بن اثالة الحنفي) .

(٢) ويقال لها الغمار قال ابن بليهد (في صحيح الأخبار) : اسم يطلق على موضعين : احدهما محاذ بلد سميراء من الجهة الجنوبية من حدود بلاد بني أسد ، ويقال له اليوم : (الفيار) وهو جبل شامق أحمر الى السماء وتصطاد منه الصقور وبه مياه كثيرة .

لذلك جهّز حملة تأديبية (الى ديار بني أسد) ، صغيرة في عدد رجالها كبيرة في معناها عظيمة في تأثيرها .

وقد أسند النبي ﷺ قيادة هذه الحملة إلى الصحابي الشهير (عكاشة بن محصن) وهو من بني أسد أنفسهم .. وكان عدد رجال هذه الحملة أربعين فارساً .

وقد أمره بأن يغير على بني أسد في ديارهم .

فتحرك (عكاشة) برجاله ، وما يزال يغنّ السير بهم ليفاجئ الوثنيين من قومه ، غير أن القوم كَنَذَرُوا^(١) به قبل وصوله ، فهربوا واعتصموا بالمناطق الجبلية من بلادهم ، ولما وصل عكاشة^(٢) إلى ديارهم لم يجد بها أحداً منهم .

غير أن القائد عكاشة لم يئس ، فبعث بشجاع بن وهب^(٣) طليعة (عيناً عليهم) فعاد وأخبر القائد أنه رأى أثر نعم قريباً .. فتحرك بقواته في اتجاه الأثر فوجد رجلاً نائماً فسأله عن بني أسد ،

(١) نذر (بفتح اوله وكسر ثانيه) به أي علم به .

(٢) انتظر ترجمة عكاشة بن محصن في كتابنا (غزوة الأحزاب) .

(٣) هو شجاع بن وهب الاسدي ، من السابقين الأولين ، شهد بدرًا ومن هاجر الى الحبشة ، قاله ابن اسحاق وموسى بن عقبة ، كان شجاع بن وهب ، سيداً من سادات بني أسد ، وكان مبعوث النبي (ص) الى الملك المنذر بن الحارث بن شمر الغساني ، كما بعثه النبي (ص) الى جيلة بن الأيهم ملك الفساسة المنتصر .. اشتهد شجاع بن وهب في حروب اليمامة ، قاله ابن سعد والكلبي .

فقال : وأين بني أسد ؟؟ قد لحقوا بعمليات بلادهم عندما نذروا بكم .

ولما سأله عن النعم قال : أخذوها معهم . غير أن أحدهم رجال استخبارات الحملة ضربه بالسوط للحصول منه على معلومات .. ولما أحس بالضرب قال : اتؤمنوني على دمي وأطلعكم على نعم لبعض القوم لم يعملوا بمسيركم إليهم؟ قالوا : نعم .

فانطلقوا معه (بعد أن أمنوه) فأمن بهم في الطلب ، حتى خافوا أن يكون ذلك منه استدراجاً وغدراً ، فاستوقفه القائد (عكاشة) وقال له : والله لتصدقنا أو لنضربن عنقك .

وهنا خاف فقال : ارتقوا هذا المكان المرتفع ثم انظروا .. فلما أشرافوا من ذلك المكان الذي أشار إليه وجدوا انعماً^(١) رواتع فأغاروا عليها فاستاقوها فإذا هي مائتا بعير ، فاحتفوا بذلك حيث فاتهم القوم هرباً ، ثم عادوا إلى المدينة ولم يلقوا كيداً .

ولقد أثبتت عمليات هذه الحملة العسكرية أن الرعب من المسلمين قد شعن نفوس الأعراب وحتى أعظمهم شراسة وأشدهم بأساً مثل قبيلة بني أسد التي ما كان يتوقع أحد أنها (وهي القبيلة العظيمة) ستفرّ (وفيها آلاف الفرسان) بمجرد علمها

(١) النعم : الابل .

أن المسلمين ينوون القيام بغزو أراضيها .. ولا شك أن هذا مصداقاً لقول النبي ﷺ : (نصرت بالرعب) الحديث .

— ٣ —

غزوة بني لحيان^(١) — سنة خمس من الهجرة

كانت قبائل بني لحيان هذه (وهى من قبائل الحجاز) قد غدرت بإثني عشر من خيرة أصحاب النبي ﷺ فقتلوه جميعاً بعد أن أعطوهم الأمان ، وأخذوهم من المدينة في جوارهم وذلك في السنة الرابعة من الهجرة .

وقد ذكرنا في حينه أن وفداً من هذه القبائل جاء إلى النبي ﷺ في المدينة متظاهراً بالإسلام وطلب من النبي ﷺ أن يرسل بعثة من أصحابه تعلّم بني لحيان شرائع الإسلام ، فاستجاب النبي ﷺ لهذا الطلب ، فأوفد معهم بعثة تعليمية من خيرة أصحابه تتكون من عشرة أنفار على رأسهم البطل المشهور (عاصم بن ثابت) . « أنظر ترجمته في كتابنا غزوة أحد » .

غير أن هذه البعثة لم تكد تصل ديار بني لحيان حتى غدر بها

(١) لحيان (بكسر اوله وسكون ثانيه) بطن من هذيل من العدنانية وقال القلقشندي في نهاية الارب : بطن من جرهم من القحطانية (والاول صحت) .. تقع منازلهم بين عسفان ومكة .

هؤلاء الخونة ، فاستشهد جميع أفراد هذه البعثة حيث قتلوا جميعهم غدرًا ^(١) .

وقد تألم النبي ﷺ أشد الألم لفقد أولئك العشرة البررة الأعزاء عليه .. وخاصة انهم قُتلوا بطريقة تمثل أحد أنواع الخيانة والغدر .

وكان النبي ﷺ راغباً كل الرغبة في تأديب تلك القبائل الخائنة الغادرة ، والاقتصاص منها لأولئك الشهداء من القراء الأبرار المغدور بهم .

إلا أن الظروف في تلك السنة (وهي السنة الرابعة من الهجرة) كانت غير مواتية لتحقيق هذه الرغبة .. حيث كان النبي مشغولاً بدفع الأخطار الجسام التي تهدد الاسلام والمسلمين في عُقر دارهم من الداخل والخارج ، لا سيما مؤامرات اليهود الخطيرة التي يدبرونها للإطاحة بالمسلمين والتي كانت ثمرتها تلك الغزوة الرهيبة ، غزوة الأحزاب ، التي قاموا بها لسحق المسلمين في السنة الرابعة الهجرية نفسها .

النبي يقود الحملة بنفسه :

غير أن النبي ﷺ لم يكد يتخلص من تلك الأخطار الجسام ، على أثر فشل غزو الأحزاب واندحارهم ذلك الاندحار المشهور

(١) انظر تفاصيل هذه الحادثة المؤلة في كتابنا (غزوة الاحزاب)

ص ٤٢ الفصل الأول .

حتى تحرك بنفسه لتأديب أعراب بني لحيان من هذيل
الغادرين الحونة .

إذ تحرك من المدينة نحو منازل بني لحيان على رأس قوة
قوامها مائتا مقاتل بينهم عشرون فارساً . وذلك بعد مضي
حوالي شهرين فقط على العملية الحاسمة الكبرى التي قام بها النبي
ﷺ لتصفية يهود بني قريظة في المدينة .

وكانت غزوة (بني لحيان) أول حملة عسكرية يقودها
النبي ﷺ بنفسه بعد غزوة بني قريظة التي انتهت في أواخر
شهر ذي الحجة من السنة الرابعة للهجرة .

تضليل العدو :

لقد كانت أرض (بني لحيان) من هذيل تبعد عن المدينة
أكثر من مئتين من الأميال . وهي مسافة بعيدة ، يلاقي مشاق
كبيرة كل من يريد قطعها وخاصة إذا كان غازياً ، ولكن النبي
ﷺ لم يبال بذلك ، فقد كان حريصاً كل الحرص على الاقتصاد
لأحبابه من الصحابة الذين استشهدوا (غدرأ) على يد هذه
القبائل المتوحشة التي لا تقيم للعهود والمواثيق اعتباراً .

وكما هي عادة النبي ﷺ في تضليل العدو الذي يريد مهاجمته
اتجه بمحيشه نحو الشمال بينما تقع منازل بني (لحيان) (الذين قرر
غزوهم) في أقصى الجنوب .

وقد أعلن النبي ﷺ قبل تحرّكه نحو الشمال : انه يريد الإغارة على الشام .

وسبب هذه التعمية : هو أنه أدخل في حسابه وجود جواسيس في المدينة أو حوالها يعملون لحساب قبائل بني لحيان الذين كانت لهم صولة ودولة قبل الإسلام^(١) .

واتّجهه نحو الشمال وإعلانه بأنه يريد غزو الشام يفوّت على هؤلاء الجواسيس الغرض الذي من أجل تحقيقه قاموا بالتجسس .. وحتى أصحابه كانوا لا يشكّون في أنه يريد أن يغزو بهم الشام ، ولم يعلموا أنه يريد بني لحيان إلا عندما انحرّف بهم نحو الجنوب ، بعد أن اتّجه بهم متوغلاً نحو الشمال حوالي عشرين ميلاً .. في حركة تمويهية على العدو بارعة .

وكان تغيير خط سيره من الشمال الى الجنوب عند مكان يقال له (البتراء) ففي ذلك المكان عطف يحمّسه نحو الغرب حتى استقام على الجادة منصّباً نحو الجنوب .

فرار اللحيانيون قبل وصول النبي :

ولقد بذلت قيادة الجيش النبوي قصارى جهدها في اتّباع طريق السرية والكتّان (ومن ذلك سلوك السبل غير المطروقة) ليأخذوا الفادرين على حين غرة ويقتصوا منهم للشهداء المفدور بهم .

(١) انظر ذلك في Emcyclo die de l'Islam tome 3 p 26 - 28

ولكن (هذيل) الفادرة ، لتوقعها قيام النبي ﷺ بمثل هذه الحملة التأديبية .. كانت على غاية التيقظ والانتباه ، فقد بثت الأرض والجواسيس في الطرق ليتحسسوا لها ويتجسسوا .

لذلك فما كاد النبي ﷺ يقترب بجيشه من منارل هؤلاء الفادرين حتى انسحبوا منها فارين .. فاعتصموا برؤوس الجبال . وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم .

المطاردة :

ولما وصل النبي ﷺ إلى ديار (بني لحيان) وتأكد له فرارهم منه ، عسكر في ديارهم بجيشه ، ثم بث السرايا من رجاله ليتعقبوا هؤلاء الفادرين ، ويأتوا إليه بمن يقدرون عليه .

وقد استمرت السرايا النبوية في البحث والمطاردة يومين كاملين إلا أنها لم تجد أي أثر لهذه القبائل التي تمتعت في رؤوس تلك الجبال الشاهقة .

الاقامة في أرض العدو :

وبعد أن يئس النبي ﷺ من العثور على (بني لحيان) أقام في ديارهم يومين لإرهابهم وتوحيدهم (كما هي عادته) وليظهر للأعداء مدى قوة المسلمين وثقتهم بأنفسهم ، وقدرتهم على الحركة حتى إلى قلب ديار العدو متى شاؤوا .

إرهاب المشركين بمكة :

ولما كانت الحالة القائمة بين المسلمين ومشركي مكة في ذلك الظرف هي حالة حرب .. فقد رأى النبي ﷺ أن يفتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكة فقرر أن يقوم بِنِصْرَة عسكرية يرهب بها المشركين في مكة .

فتحرك بجيشه حتى نزل به وادي عُسْفان ^(١) ، وهناك استدعى أبا بكر الصديق وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه وأمره بأن يتحرك بهم نحو مكة لِيُبْثِ الذعر والفرع في نفوسهم ، فاتجه الصديق بالفرسان العشرة نحو مكة حتى وصل بهم 'كُراع الغميم' ^(٢) وهو مكان قريب جداً من مكة .

فسمعت قريش بذلك فظننت أن النبي ﷺ ينوي غزوها فانتابها الخوف والفرع والرعب ، وساد صفوفها الذعر .. هذا هو الذي هدف إليه النبي ﷺ بهذه الحركة التي كلف الصديق أن يقوم بها .

أما الصديق وفرسانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم وعلموا أنهم قد أحدثوا الذعر والفرع في نفوس أهل مكة عادوا سالمين إلى النبي القائد ﷺ فتحرك بجيشه عائداً إلى المدينة .
قال ابن سعد في طبقاته الكبرى : فأقام النبي ﷺ في منازل

(١) عُسْفان (يضم أوله وسكون ثانيه) واد شمال وادي فاطمة .

(٢) كُراع الغميم : موضع قرب مكة .

بني لحيان يوماً أو يومين ، فبعث السرايا في كل ناحية فلم يقدروا على أحد ، ثم خرج حتى أتى عسفان فبعث أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع به قریش فيذعرهم ، فأقوا الغميم ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو يقول : آتبون تائبون عابدون لربنا حامدون ، وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة ^(١) .

وزاد ابن اسحاق عن جابر أنه ﷺ قال ايضاً : أعوذ بالله من وعشاء السفر وكتابة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال .
الترحم على الشهداء :

وعندما وصل النبي ﷺ إلى بطن (غران) ^(٢) حيث لقي الشهداء من أصحابه مصرعهم على أيدي الخونة من هذيل ، ترحم على هؤلاء الشهداء ودعا لهم ^(٣) .

نهي النبي عن الاستغفار لأمه :

وذكر بعض المؤرخين أن النبي ﷺ أثناء عودته من غزوة (بني لحيان) وقف على قبر أمه فاستأذن ربه في أن يستغفر لها فلم يأذن له .. وأنزل الله بهذا الصدده ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴿

-
- (١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٧٩ .
(٢) غران بضم أوله : واد بين ساية ومكة .
(٣) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٧٩ .

وفي صحيح مسلم عن أبي أيوب الأنصاري قال : زار رسول الله ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، فقال : فاستأذنت ربي في أن استغفر لها فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزورها فآذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت .

- ٤ -

غزوة الغابة (١) .. ربيع الأول سنة خمس للهجرة

كان عيينة بن حصن الفزاري من أعظم الزعماء نفوذاً بين القبائل النجدية حتى أنه لذلك (ومع تهوره) كان مشهوراً بلقب (الأحق المطاع) لأنه كانت تتبعه وتطيع أمره عشرة آلاف قناة من فزارة وحدها ، يوجب هذه الآلاف أينما شاء فيطيعونه دون أن يسألوه : كيف ، ولم ؟ .

وكان عيينة هذا من ألد أعداء رسول الله ﷺ حتى أنه (في غزوة الأحزاب) كان قائد أحد الأجنحة الأربعة من القبائل النجدية التي اشتركت مع اليهود في حصار المدينة .

ولما كانت الحالة التي أعقبت اندحار الأحزاب ومحزبيهم اليهود في غزوة الخندق ، هي حالة حرب بين المسلمين وقبائل غطفان وفزارة ، فليس من المستغرب أن يقوم عيينة بن حصن

(١) الغابة .. قال في مراصد الاطلاع: هي الشجر الملتف ، وهي موضع شمالي المدينة تقع على بريد من المدينة ، وقال في معجم البلدان: تبعد الغابة عن المدينة ثمانية أميال .

الفزازي بالإغارة على المسلمين وانتهاب أي شيء تابع لهم ، ولا سيما وأن منازل (فزارة) ^(١) أقرب المنازل النجدية إلى يثرب .

فزارة تغير على المسلمين :

كانت (الغابة) منطقة خصبة كثيرة النبت والشجر ، وكانت بها أملاك زراعية للمسلمين ، وكانت تعتبر إحدى مراعي المدينة الرئيسية .. وكانت (الغابة) أقرب ما تكون إلى منازل عينة ابن حصن ^(٢) وقومه فزارة .

كان النبي ﷺ قد بعث بمجموعة كبيرة من الإبل لترعى في (الغابة) بعث بها مع غلام له .. وكان أبو ذر الصحابي المشهور موجوداً في هذه الإبل مع ولده .. كما كان معهم الفارس العداء المشهور (سلمة بن الأكوع) ^(٣) .

ولما وصلوا إلى المرعى في الغابة وابتوا ، أغار عليهم عند طلوع الفجر عبد الرحمن بن عينة بن حصن سيد فزارة تسانده قوة كبيرة من فرسان غطفان .

وقد استولى المغيرون على جميع إبل المسلمين واستاقوها

- (١) انظر ترجمة قبيلة فزارة في كتابنا (غزوة الأحزاب) .
 - (٢) انظر ترجمة عينة بن حصن في كتابنا (غزوة الأحزاب) .
 - (٣) هو سلمة بن عمرو بن الأكوع واسمه (سنان) الاصلمي .
- قال ابن حجر في الإصابة : كان أول مشاهدته الحديبية وكان من الشجعان والعدائين الأفاضل (يسبق الفرس عدواً) بايع النبي (ص) عند الشجرة . مات سنة أربع وسبعين .

بعد أن قتلوا (ابن أبي ذر الغفاري)^(١) الذي دافع عن الإبل واحتملوا إمرأته معهم سبيّة .

ولم يكن من الصحابة المحاربين حاضراً (ساعة الغارة) سوى سلمة بن الأكوع الذي كان يركب فرساً لطلحة بن عبيدالله ، استعارها منه عند خروجه مع الرعاة استعداداً للطوارئ .

الصريح في المدينة :

ولما كانت المسافة بين الغابة والمدينة غير قريبة ، وأنه لا بد من إبلاغ النبي القائد وأصحابه (بسرعة) لكي يسرعوا بالنجدة لاستنقاذ الإبل من مشركي فزارة .. ورأى سلمة بن الأكوع أنه من الصعب عليه وحده الالتحام بالمشركين المغيرين لاستخلاص

(١) أبو ذر الغفاري الصحابي المشهور، واسمه جندب بن جنادة بن سكين كان من السابقين الأولين في الاسلام ، ومن الزاهدين ذوي اللهجة الصادقة ، وقصة إسلامه قصة شيقة مفصلة في صحيح البخاري، وفيه قال النبي (ص)؛ ما أقلت الغبراء وأظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر .. كانت لأبي ذر (رضى) آراء في شئون المال خالفة فيها جمهور الصحابة بمن فيهم الخلفاء الراشدون ، وقد ماتت هذه الآراء مع أبي ذر إذ لم يطبقها أحد من الخلفاء بمن فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، أشد المعجبين بأبي ذر رضي الله عنهم أجمعين وفي أبي ذر قال النبي (ص) : يرحم الله أبا ذر يعيش وحده ويموت وحده ويحشر وحده .. وقد استغل الذين حاولوا هزيمة الاسلام آراء أبي ذر الشاذة استغلالاً فظيعاً حتى يظن من يقرأ هؤلاء المضللين أن أبا ذر رضي الله عنه هو واضع اسس الاشتراكية العلمية (التي هي الماركسية بعينها) ألا ساء ما يحكمون . (انظر كتابنا أكذوبة الاشتراكية) .

الإبل منهم .. قرر التخلي عن الفرس التي كان يركبها ، واستدعى الراعي الوحيد الذي نجح من القتل ، فطلب امتطاء ظهر الجواد والانطلاق بأقصى سرعة نحو المدينة لإبلاغ النبي ﷺ خبر اعتداء ابن حصن على إبله ، وطلب النجدة لاستنقاذها .

وفعلًا امتطى الراعي (واسمه رباح) - امتطى صهوة جواد ابن الأكوع وانطلق نحو المدينة يسابق الريح ، ولم تكن إلا سويحات قليلة حتى كان في المدينة يصرخ (الفرع الفرع) . وكانت هذه الكلمة كافية لتعبئة كل من في المدينة من المحاربين لأنه لا يصرخ بها إلا عندما تتعرض بلاد المسلمين لخطر جسيم من قبل أعدائهم .

ولما تبلغ المسلمون جلية الخبر ، اهتم النبي ﷺ اهتماماً شديداً لاستيلاء النجديين على الإبل لأن ذلك يعد تحدياً صارخاً من غطفان للمسلمين واستهانة بقوتهم حيث جريأت غطفان وأغارت على سرّح المسلمين في منطقة تعتبر من ضواحي المدينة . واجتياح إبل المسلمين منها اعتبره المسلمون عملاً بالغ الخطورة وفسّر بأنه قد يكون بمثابة جرس النبض لقوات المسلمين ، ومقدمة لهجوم شامل تقوم به قبائل غطفان على المدينة نفسها ، لأن فزارة وحدها التي يتزعمها عيينة بن حصن ، تستطيع أن تحشد عشرة آلاف مقاتل .

لذلك اهتم النبي ﷺ لهذه الحادثة اهتماماً عظيماً وجهز جيشاً كبيراً لمطاردة المغيرين وردعهم قوامه سبعمائة مقاتل .

تحركوا من المدينة بقيادة الرسول ﷺ نفسه إلى منطقة الغابة .

اندحار المغيرين واستعادة الابل :

وكان النبي ﷺ قد بعث أمامه بقوة خفيفة من الفرسان لمقاتلة المغيرين وإشغالهم بقيادة الفارس الأنصاري الشهير سعد بن زيد بن مالك^(١) . ثم لحقهم النبي ﷺ في عامة الجيش .

وقد اشتبكت فصيلة الفرسان النبوية مع المغيرين (وعلى قلة رجالها وكثرة العدو) تمكنت من دحرهم واستعادة كل ما انتهبوه من إبل المسلمين ، ثم طاردتهم حتى قذفت بهم إلى ما وراء حدود المسلمين .. ولم يصل النبي القائد ﷺ إلى منطقة الغابة إلا بعد أن دحرت فصيلة فرسانه قوات القطفانيين المعتدين على النحو الذي ذكرنا .

وقد أبدى سلمة بن الأكوع في هذه المعركة بطولة نادرة (وخاصة قبل وصول كتيبة الفرسان النبوية) حيث ظل بمفرده يشاغل المغيرين ويراميهم بالنبل ، وكان من أعظم الرماة في عصره ، وقد استخلص مجموعة كبيرة من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان النبوية .

قتلى الفريقين في المعركة :

وقد استشهد في هذه العملية ثلاثة من المسلمين ، إثنان من

(١) انظر ترجمة سعد بن زيد في كتابنا الرابع (غزوة بني قريظة) .

أفراد. فصيلة الفرسان النبوية هما : (محرز بن فضلة)^(١) قتله عبد الرحمن بن عيينة بن حصن : (ووقاص بن محرز)^(٢) ، و (ابن أبي ذر) لم يذكر اسمه أحد فيما رأيت من المؤرخين . أما قتلى المشركين فقد كانوا ثلاثة من فرسانهم وهم : حبيب وعبد الرحمن ، أبناء عيينة بن حصن الفزاري ، وفارس يقال له مسعدة ، من فزارة^(٣) .

عودة المرأة الأسيرة :

أما المرأة التي أسرها المغبرون من غطفان وهي زوجة إبن أبي ذر الذي قتله المشركون أثناء الغارة في القابة ، فقد عادت إلى المدينة سالمة بعد أن تمكنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقه تابعة لرسول الله ﷺ .

قال ابن برهان الدين : وانفلتت المرأة من الوثاق ليلاً فأتت الإبل فجعلت إذا دنت من البعير ، رغا فتركته حتى انتهت إلى العضباء فلم ترغ فقعدت على عجزها ثم زجرتها ، وعلموا بها فطلبوها ، فأعجزتهم ونذرت إن نجاها الله عز وجل لتحنرنها

(١) لقبه : الأخرم الأسدي ، واسمه محرز بن فضلة بن عبد الله ، من بني أسد بن خزيمه ، القبيلة العدنانية النجدية العظيمة ، يلقب الأخرم هذا بفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم . شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرأ .
(٢) قال في الاصابة : هو وقاص بن محرز المدلبي .. ونفى ابن اسحاق أن وقاص قد قتل في هذه العملية .

(٣) انظر تفاصيل هذه الغزوة الهامة في سيرة ابن هشام ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد الكبرى ، والسيرة الحلبية وصحيح مسلم .

فلما أخبرت النبي ﷺ خبر هذا النذر تبسم وقال : بشما جزيتها (أي أنها حملتك ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النحر) ، ثم قال لها ﷺ : لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين .

وهذه الغزوة تعتبر من أكبر الغزوات التأديبية التي يقودها النبي ﷺ بنفسه ضد أعراب نجد بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة وقبل غزوة خيبر .

- ٥ -

حملة ذي القصة ... شهر ربيع الآخر سنة خمس من الهجرة
ذو القصة (بفتح القاف وتشديد الصاد) منزل من منازل بني ثعلبة من غطفان أعداء الرسول ﷺ الألداء . وتبعد عن المدينة أربعة وعشرون ميلاً .

بعث النبي ﷺ إلى ذي القصة بدورية استكشاف قوامها عشرة نفر بقيادة الفارس المشهور محمد بن مسلمة الأنصاري .

وكانت عيون بني ثعلبة قد أبلغتهم بتحريك هذه الدورية نحوهم وأنها تقصد ديارهم فاستعدوا لها وكنوا وأعدوا (للاحاطة بهم) مائة رجل .

فلما وصل ابن مسلمة بدوريته إلى (ذي القصة) لم يجد أحداً فاستراح بأصحابه فأخذهم النوم ، ولم يشعر إلا بمائة من فرسان بني ثعلبة يحيطون بهم من كل جانب ، فنار الصحابة إلى سلاحهم

وأخذوا يرامونهم بالنبل ولكن دون جدوى ، فالكثرة تغلب
الشجاعة كما يقولون .

فقد هجم المشركون على الصحابة فأبادوهم عن بكرة أبيهم
أما قائد الدورية (محمد بن مسلمة) فقد وقع جريحاً فضربوا
كعبه فلم يتحرك ، فظنوه قد مات فتركوه بعد أن أخذوا كل
خيلهم وأسلحتهم وحتى الثياب جردوهم منها ثم انصرفوا .

غير أن رجلاً من المسلمين مر بإبن مسلمة وأصحابه ، فلما
رآهم صرعى استرجع فلما تأكد ابن مسلمة بأنه مسلم تحرك ، وهنا
حمله الرجل حتى ورد به المدينة ، حيث عولج من جراحه
حتى شفي ..

- ٦ -

حملة ذي القصة ايضاً ..

سنة خمس من الهجرة .: شهر ربيع الآخر

وسبب القيام بهذه الحملة ، هو أن النبي ﷺ بلغه أن بني
محارب وبني ثعلبة وأنصار^(١) قد تحركوا إلى منطقة تغلبين
والمراض^(٢) التي تبعد عن المدينة ستة وثلاثين ميلاً ، تحركوا

(١) بني محارب وأنصار ، بطنان من قبائل نجد العدنانية ، ويتصل نسبها
بأسد بن ربيعة بن نزار ، أما ثعلبة فيظهر أنهم من غطفان ؛ بنو ثعلبة بن
قيس ، (انظر معجم قبائل العرب لمركحالة) .
(٢) تغلبين والمراض ؛ موضعين يقعان على حدود بلاد نجد ناحية غطفان .

للإغارة على سرح المدينة (١) الذي كان يرعى بها على بُعد سبعة أميال من المدينة بغية نهب هذا السرح والاستيلاء عليه .

لذلك سارع النبي ﷺ فبعث (على جناح السرعة) بكوكبة صغيرة من الفرسان قوامها أربعون فارساً بقيادة أبي عبيدة (عامر بن الجراح) ليحموا السرح ويصدوا المشركين عنه .

فتحرك أبو عبيدة بكوكبته مسرعاً (بعد صلاة المغرب) ، فوصل بفروسانه إلى ذي القصة (مع عمارة الصباح) فوجد المشركين هؤلاء يتحفزون (فعلاً) للإغارة على السرح فهاجمهم (بطريقة مباغتة لم يتوقعوها) ففروا هاربين في الجبال ، وأعجزوا (بهربهم) أبا عبيدة ورجاله إلا أنه تمكن من أسر رجل واحد منهم ، كما استولى رجاله على بعض الإبل التابعة لهم وغنموا بعض أمتعتهم التي تركوها عندما هربوا .

وقد عاد أبو عبيدة برفاله إلى المدينة ومعه الأسير والغنائم أما الأسير فأسلم ، فأطلق النبي ﷺ سراحه ، وقسم النبي ﷺ الغنيمة بين الأربعين فارس بعد أن خسرنا كالتبعية أي أخذنا خمسها للمصالح العامة .

(١) السرح (بفتح السين مع التشديد) وسكون الراء ، كناية عن الإبل التي تنفش في الراعي لترعى .

- ٧ -

حملة الجحوم^(١) . . ربيع الآخر سنة خمس من الهجرة .

كانت بنو سليم من أهل الجحوم (وادي فاطمة) قد أعانوا أبا سفيان في حربه ضد المسلمين في معركة (الأحزاب) فاشتراك منهم معه حوالي سبعمائة مقاتل ، وافوه في مر الظهران (وادي فاطمة) وهو في طريقه إلى المدينة .

وكان الأعراب الذين اشتركوا في غزوة الأحزاب (ومنهم بنو سليم) قد أصبحوا بمعلمهم ذاك أعداء محاربين للنبي ﷺ .

لذلك من البدهي ، (وخاصة بعد اندحارهم في معركتهم الخاسرة) أن يلقي عليهم النبي ﷺ دروساً تأديبية بنقل المعركة إلى ديارهم حتى وإن بعدت ، مثل ديار بني سليم القريبة من مكة ليرسخ في أذهان هؤلاء الأعراب المشركين أن المسلمين أصبحوا سادة الموقف في الجزيرة ، وأنهم قادرون على نقل المعركة إلى أي مكان يريدون من أرض أعدائهم .

ومن ذلك أن النبي ﷺ بعث إلى ديار بني سليم بسرية بقيادة (زيد بن حارثة) للاغارة عليهم وإرهابهم في الجحوم^(٢) .

(١) الجحوم (بفتح أوله وضم ثانيه) منزل من منازل بني سليم ، قال ابن بليهد في (صحيح الأخبار) : الجحوم : عين جارية عليها زروع وغروس وهي في الظهران الذي يقال له اليوم (وادي فاطمة) .

(٢) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ٩٩ ، وقد اسمى الموضع بالجحوم ، ويظهر أنه تصحيف .

وقد أغار عليهم زيد بن حارثة ، وفي طريقه وجد امرأة من مزينة يقال لها : (حليلة) فدلّتهم على محلة من محال بني سليم ، فأغازوا عليهم وأوقعوا بهم ، ففر من ('سليم) من قدر على الفرار ، ووقع الباقيون أسرى في يد رجال السرية .

كما استولى رجال زيد بن حارثة على مجموعة من الإبل والغنم فقفّلوا راجعين إلى المدينة ومعهم المرأة (حليلة المزينة) وزوجها أسيرين .

غير أنهم لما وصلوا المدينة وأخبروا النبي ﷺ الخبر ، وهب للمرأة المزينة نفسها وهب لها زوجها مكافأة لها على إرشادها لرجال السرية ، فأطلق سراحها . (١)

- ٨ -

حلة العيص (٢) .. جمادى الأولى سنة خمس من الهجرة :

كان سبب هذه الحملة أنه بلغ النبي ﷺ أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام عائدة بالبضائع إلى مكة .

ولم يكن بين النبي ﷺ وبين قريش في تلك الفترة أي صلح أو معاهدة ، وإنما كانوا في حالة حرب ، والجو بين الفريقين

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٨٦ . (٢) العيص (بكسر أوله) موضع على ساحل البحر الأحمر ، يقع شمال غربي المدينة . تمر به القوافل الآتية من الشام لمكة ، ويبعد عن المدينة مسافة أربع ليال بدير القوافل .

على غاية من التوتر .. لاسيما المسلمون الذين لم ينسوا بعد ذلك الغزو الظالم الفاشم الخفيف الذي تعرضت له المدينة حيث فرض عليها أبو سفيان الحصار الخائف وكان يقود عشرة آلاف مقاتل ، قرر أن يقتحم بهم المدينة ويبيد كل من فيها من المسلمين .. لم ينس المسلمون هذا الغزو الخفيف الذي لم يمر عليه أكثر من ستة أشهر .. والذي لو قدر له النجاح لكان المسلمون في خبر كان .

لذلك كان من البدهي أن يتحسّن المسلمون الفرص للإيقاع بمشركي مكة الذين سعوا ذلك السعي الخطير لتدميرهم وإبادتهم .

ولهذا فإنه عندما تبلغ النبي القائد ﷺ من جهاز استخباراته العسكرية أن قافلة للعدو عائدة من الشام إلى مكة وأنها قد وطئت التراب الحجازي ، جهز كتيبة من الفرسان قوامها مائة وسبعون فارساً ، وأعطى قيادتهم لمولاه (زيد بن حارثة) . وكلفهم بالتعرض لهذه القافلة والإستيلاء عليها كجزء من أموال عدو محارب .

وقد تحرك زيد بن حارثة بكتيبته من المدينة حتى وصل منطقة العيص .. وهناك التقى بقافلة قريش ، فاستولى رجاله على هذه القافلة وأخذوا جميع الذين يقودونها أسرى .. ولم يذكر أحد من المؤرخين أن قادة القافلة قد أبدوا أي شيء من المقاومة إذ لم يشر أحد إلى أنه جرى أي قتال عند استيلاء المسلمين على

هذه القافلة التي كانت فيها (يومئذ) كمية كبيرة من الفضة عائدة للتاجر القرشي الكبير المعروف (صفوان بن أمية)^(١) .
وقد عاد زيد بن حارثة بالقافلة وبالأسرى القرشيين إلى المدينة .

ابنة النبي وزوجها الأسير :

وكان أبو العاص بن الربيع بن أمية بن عبد شمس^(٢) (زوج زينب ابنة النبي ﷺ) من بين الأسرى الذين وقعوا ضمن رجال القافلة في أيدي فرسان كتيبة (زيد بن حارثة) .

ويقول المؤرخون : إن أبا العاص بن الربيع عندما وصل (ضمن الأسرى) إلى المدينة استجار بزوجته زينب .. إذ نادت في الناس في المسجد حين صلى الرسول ﷺ الفجر : (إني قد أجرت أبا العاص) فقال النبي ﷺ : هل سمعتم ما سمعت ؟ (يعني إعلان زينب أنها قد أجارت أبا العاص) ؟ قالوا : نعم . قال ﷺ : أما والذي نفسي بيده ما علمت شيئاً من هذا ، ثم أجاز ما فعلت زينب قائلاً : (وقد أجرنا من أجرت) .

رد الأموال وإطلاق الأسرى :

ويدل سياق المؤرخين وأهل الحديث ، على أن أبا العاص بن

(١) أنظر ترجمته في كتابنا غزوة بدر الكبرى .

(٢) أنظر ترجمته في كتابنا غزوة بدر الكبرى .

الربيع كان قائد هذه العير التي استولت عليها سرية (زيد بن حارثة) بدليل أن زينب لما أجارت زوجها (وكان على شركه) دخلت على النبي ﷺ وسألته أن يرد على أبي العاص ما أخذت سرية زيد منه من العير ، أجابها إلى ذلك ولكنه استدعى زيد ابن حارثة ورجال سريته لأخذ موافقتهم (قبل كل شيء) حيث قال ﷺ لهم :

« إن هذا الرجل (يعني أبا العاص) منّا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحب ذلك .. وإن أبيتم فهو (أي ما أخذتم منه) فبيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به » .

فأجابوا جميعاً بالموافقة قائلين : يا رسول الله بل نرد عليه فردوا عليه كل ما أخذوا منه بما في ذلك الأموال التي ائتمنه عليها كفار مكة لشراء البضائع لهم من الشام والتي جاءت تحملها العير التي وقعت بأكملها في قبضة سرية زيد بن حارثة .. كما وافقوا على إطلاق سراح جميع أسرى العير .

وجاء في السيرة الحلبية : ان بعض المسلمين قالوا لأبي العاص (بعد أن رد رجال السرية إليه العير وما تحمل من أموال كفار مكة) : يا أبا العاص إنك في شرف من قرش وأنت ابن عم رسول الله ﷺ — أي لأنه يلتقي مع النبي ﷺ في جده عبد مناف — فهل لك أن تسلم فتغنم ما معك من أموال أهل مكة (لأنهم كفار مشركون) ؟

فقال : بئسما أمرتموني .. أففتح ديني بفدّره كلاً والله .
ثم إنه (بعد أن أضمّر الإسلام) ذهب بالعرير إلى أهل مكة
فأعطى كل ذي حق حقه .. ثم قام فقال : يا أهل مكة ، هل
بقي لأحد منكم مال لم يأخذه ؟ .. هل وفيت ذمتي ؟ .
فقالوا : اللهم نعم فجزاك الله خيراً .. فقد وجدناك
وفياً كريماً .

وهنا (وعلى ملأ منهم) أعلن إسلامه قائلاً : إني أشهد أن
لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعني عن
الإسلام عنده (أي في المدينة) إلا خشية أن تظنوا أني إنما
أردت أن أكل أموالكم ، ثم غادر مكة وقدم إلى المدينة ،
فرد عليه النبي ﷺ زينب بالكساح الأول (١) .

- ٩ -

حملة الطرف (٢) - جمادى الآخرة سنة خمس من الهجرة

وهي دورية عسكرية قام بها زيد بن حارثة (٣) ومعه خمسة
عشر رجلاً إلى ديار بني ثعلبة وهم بطن من غطفان الذين
شاركوا في الهجوم على المدينة في غزوة الأحزاب .

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٥٤ .

(٢) الطرف (بضم أوله وفتح ثانيه) ماء لغطفان على بعد ستة وثلاثين ميلاً
من المدينة ، قاله الواقدي ، أنظر صحيح الأخبار لابن بليهد ج ٥ ص ٢٣٧ .
(٣) زيد بن حارثة .. أنظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

وقد وصلت دورية زيد بن حارثة منطقة (الطرف) التي بها منازل بني ثعلبة هؤلاء والتي تبعد عن المدينة ستة وثلاثين ميلاً .

غير أن رجال دورية زيد بن حارثة لم يلاقوا أي صدام مع بني ثعلبة ، لأن هؤلاء الأعراب كانوا قد هربوا من ديارهم إلى رؤوس الجبال بمجرد علمهم بتحرك هذه الدورية المسلحة نحو ديارهم .

وقد استولى زيد بن حارثة ورجال دوريته الصغيرة على عشرين بعيراً من أباعر هذه القبيلة فأخذتها الدورية غنيمة وعادت بها إلى المدينة بعد غيبة قصيرة لم تزد على أربع ليال .

ويظهر أن الهدف من إرسال هذه الدورية المسلحة هو إرهاب الأعراب الوثنيين وإشغالهم وترويعهم وجعلهم في حالة خوف دائم لا يستطيعون معه التفكير في القيام بغزو المدينة كما كانوا يفعلون في السابق .

وفعلًا حققت هذه الدورية أهدافها إذ (على قلة عدد رجالها) فرّت من أمامها قبيلة بأكملها يقدر عدد رجالها بعدة مئات قد تعدى الألف . وبث الدوريات العسكرية المستمرة هو من سياسة النبي القائد الناجحة ، حيث كانت دورياته العسكرية التي تسمى (في عرف المؤرخين القسدامى) بالسرايا تجوس باستمرار خلال ديار القبائل الوثنية المعادية حتى رست قواعد الإسلام وشمخ بناء دولته في السماء عالياً .

حملة حسمى^(١) - جهادى الآخرة سنة خمس من الهجرة

وهي حملة عسكرية تأديبية قام بها إلى منطقة (حسمى)
خلف وادي القرى .. زيد بن حارثة لتأديب قبيلة جذام^(٢)
الواقعة ديارها قرب تلك المنطقة .

وسبب هذه الحملة العسكرية التأديبية أن النبي ﷺ كان في
تلك السنة قد أرسل دحية بن خليفة الكلبي^(٣) برسالة إلى الملك
قيصر يدعوها فيها إلى الإسلام .

(١) حسمى (بالكسر ثم السكون مقصور) قال ياقوت : أرض ببادية
الشام بينهما وبين وادي القرى ليلتان .. وقال ابن السكيت : حسمى لجدام
جبال وأرض بين إيلة (إيلات) وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي إيلة ،
وبين أرض بني عذرة من ظهر حرة تيه ، فذلك كله (حسمى) وهذا
يعني أن (حسمى) تقع على خليج المغنبة حتى تخوم (سيناء) ، وقال
ياقوت : وأهل تبوك يرون جبل (حسمى) في غربيهم .. وفي أخبار
المتنبي قال : حسمى أرض طيبة تؤدي إلى النخلة من لينها مملوءة جبلاً في
كبد السماء متناوذة ملس الجوانب ، إذا أراد الناظر إلى قلة أحدها قتل عنقه
حتى يراها بشدة ، ما لا يقدر أحد أن يراه ولا يصمده ، ولا يكاد القتام
يفارقها ولهذا قال المتنبي :

فأصبح عاقلاً بجبال حسمى دقاق القرب محترماً للقتام

(٢) جذام (يضم أوله) قبيلة قحطانية عظيمة وهي من كهلان ، كانوا
من العناصر اليمنية التي هاجرت من مأرب بعد انهدام السد .

(٣) هو دحية (بكسر أوله وسكون ثانيه) بن خليفة بن فرزة =

فا لرم الملك فيصير دحية الحلبي ولساء واجازة .. فقفل
دحية من الشام عائداً إلى المدينة ، إلا أنه لما وصل إلى منطقة
(حسمى) على الحدود الشمالية الغربية لجزيرة العرب هاجمه
الهُنَيْد (بضم الهاء) ابن عارض وابنسه عارض في أناس من
جذام فقطعوا عليه الطريق فسلبوه كل ما معه ، ولم يتركوا عليه
إلا ثوباً رثاً خلعاً .

غير أن نفرأ من بني الضُّبَيْب (من قبيلة جذام نفسها من
أسلموا) لما بلغهم ما فعل الهنيد وابنه برسول الله ﷺ دحية
الكلبي نفروا إليها واستعادوا منها ومن معها (بالقوة) كل ما
أخذوه من دحية الكلبي وأعادوه إليه .

فواصل دحية سيره حتى وصل المدينة ، وهنا أخبر النبي ﷺ
بما فعل به الهنيد بن عارض وعصابته من قطاع الطرق .

فقرر النبي ﷺ إرسال حملة عسكرية كبيرة قوامها (خمسمائة
رجل) لتجوس خلال ديار المعتدين على دحية الكلبي وتغيير
عليهم لتؤديهم وتجعلهم عبدة لمن اعتبر .

وقد أعطى النبي ﷺ قيادة هذه الحملة التأديبية لمولاه (زيد

= الكلبي ، صحابي مشهور كانت أول مشاهدته مع رسول الله (ص) الحندق ،
وكان جميل الصورة يضرب بجماله المثل ، وكان (على ما ذكره أهل الحديث)
ينزل جبريل على صورته بالوحي ، وكان من ذوي الرأي والشجاعة ، وكان
رسول النبي (ص) إلى هرقل ملك الروم ، شهد دحية معركة اليرموك وكان
قائد أحد الكتائب فيها ، عاش حتى خلافة معاوية وسكن المزة قرب دمشق .

ابن حارثة) فتحرك زيد برجال هذه الحملة نحو الشمال (ومعهم
دحية الكلبي نفسه) .

ولكي لا يعلم الأعداء بخبر هذه الحملة صار القائد (زيد)
يسير الليل ويكن النهار ، وكان دليله من بني 'عذرة' (١) .

وما زال زيد يسير بحملته حتى باغت القوم وأغار عليهم مع
(عمية الصبح) وأحاط رجال حملته بهم من كل جانب فقتلوا
منهم عدداً غير قليل من بينهم (الهنيد وابنه عارض) .

ثم استولى زيد ورجاله على ماشية قوم الهنيد (ونعمهم
ونسائهم وصبيانهم) .

فأخذوا من النعم ألف بعير ومن الشاء خمسة آلاف شاة ،
ومن السبي مائة من النساء والصبيان .

احتجاج بني الضبيد لدى القائد زيد :

ولما سمع بنو الضبيد (وهم مسلمون من 'جذام' نفسها) لما
سمعوا بما صنع زيد ورجاله بقومهم من 'جذام' جاء أحد زعمائهم
إلى قائد الحملة زيد محتجاً بأنهم مسلمون وأنهم (أي بني

(١) عذرة (بضم أوله وسكون ثانيه) قبيلة عظيمة من قضاة القحطانيين
ومن عذرة تتفرع أفعاذ كثيرة ، وهم بنو عذرة بن سعد بن هذيم بن زيد بن
ليث بن سود بن اسلم بن الحسافي بن قضاة ، وبنو عذرة هؤلاء هم المشهورون
بشدة العشق ، قال مرة سعيد بن عقبة لأعرابي منهم وهو لا يعرفه : ممن الرجل ؟
قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، قال : عذري ورب الكعبة . فسأل الأعرابي
ولماذا ؟ فقال : في نسائنا صباحة وفي رجالنا عفة .

الضبيب) هم الذين استرجعوا (عَنوة) من الهنيد وجماعته كل ما سلبوا من دحية الكلبي وأعادوه إليه ، فطلب زيد من هذا الزعيم أن يقرأ الفاتحة لينأكدون من إسلامه فقرأها .. ولكن يظهر أن قائد الحملة زيد قرر أن لا يعيد إلى القوم ما غنم منهم وما أسر من رجالهم ونسائهم وصبيانهم ، فواصل سيره بالسبي والغنائم نحو المدينة جنوباً .

زيد بن رفاعه يحتج لدى الرسول ﷺ :

غير أن أحد زعماء قبيلة (جذام) وهو (زيد بن رفاعه الجذامي) أسرع في نفر من قومه إلى المدينة لمقابلة رسول الله ﷺ .

ولدى مقابلته ﷺ احتج على ما فعل زيد بن حارثة في غارته على مناطق (حسمى) قائلا :

يا رسول الله لا تحرّم علينا حلالاً ، ولا تحل لنا حراماً ، ثم دفع إليه ﷺ كتابه الذي كان قد كتبه له ولقومه ليأبى قدومه عليهم عندما أسلموا .

الأمر بإعادة الغنائم والسبي :

وهنا قرر سيد من أوفى بالمهد على وجه الأرض صلى الله عليه وعلى آله وسلم .. قرر ﷺ أن يعيد إلى سادات (جذام) الوافدين عليه المحتجين لديه .. قرر أن يعيد إليهم كل ما غنمته وسبته حملته العسكرية التي قادها ابن حارثة .

ولم يكتف بهذا ﷺ بل بحث (مع وفد جذام) موضوع القتلى منهم الذي صرعوا بسيوف رجال حملة زيد بن حارثة قائلا : (كيف أصنع بالقتلى ؟؟) .

فقال له أحد سادات جذام المشكّل منهم الوفد وهو (أبو زيد بن عمرو) : أطلق لنا يا رسول الله من كان حيا ، ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين .

فقال رسول الله ﷺ : صدق أبو زيد .

ثم استدعى ﷺ علي بن أبي طالب ، وأمره بأن يكون مبعوثه الخاص إلى قائد الحملة زيد بن حارثة ليلفّه أمره ﷺ بأن يرد على القوم كل ما أخذ منهم في غارته من أموال وسبايا وأسرى ، وكانت شيئا عظيما كما تقدم .

فقال علي : يا رسول الله إن زيدا لا يطيعني . فقال ﷺ : خذ سيفي هذا (أي كعلامة) .

فانطلق علي ومعه زيد بن رفاعه وباقي أعضاء الوفد الجذامي نحو الشمال ، ليلفّه القائد زيدا أمر رسول الله ﷺ ، فلقني (وهو في طريقه) رافع بن مكيث الجهني^(١) على ناقه من إبل القوم ، أرسله القائد زيد بشيرا بالنصر ، فأخذ الناقة منه ورددّها على

(١) هو رافع بن مكيث (بفتح أوله وكسر ثانيه) الجهني ، قال ابن حجر في الإصابة : شهد بيعة الرضوان ، وكان يوم فتح مكة يحمل لواء جهينة استعمله النبي (ص) على صدقات قومه ، شهد الجابية في الشام مع الخليفة عمر .

القوم وأردف البشير خلفه ثم واصل سيره حتى لقي القائد زيداً وحملته العسكرية ومعهم تلك الغنائم العظيمة في منطقة الفحلين مكان بين المدينة وذو المروة ^(١) ، وهناك أبلغه أمر رسول الله ﷺ بأن يرد على القوم كل ما أخذ منهم ، وروي أن القائد زيد قال لعلي : ما علامة ذلك ؟؟ فقال : هذا سيفه ﷺ فعرف زيد سيف رسول الله ﷺ ، فصاح برجال الحملة فاجتمعوا فأمرهم بأن يردوا على القوم كل ما أخذوا منهم قائلاً : هذا سيف رسول الله ﷺ ، فأطاع الناس الأمر فردوا على القوم كل ما أخذوا منهم من غنائم وسبايا وأطلقوا سراح الأسرى الذين لم يعرف عددهم .

- ١١ -

حملة وادي القرى .. رجب سنة خمس من الهجرة :

وهي دورية عسكرية أعطيت قيادتها لزيد بن حارثة ولم أرَ فيما بين يدي من مصادر التاريخ أن هذه الدورية قامت بأي عمل عسكري ، ولم أرَ أحداً من المؤرخين ذكر القوم الذين وجهت إليهم هذه السرية .. وكل ما اطلعت عليه هو أن ابن سعد قال في طبقاته الكبرى قال : - بعد انتهائه من سرد حوادث حملة (حسمى الكبيرة) : ثم سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى في رجب سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ . قالوا : بعث رسول الله ﷺ زيداً أميراً سنة ست هـ إلا أن الإمام ابن

(١) ذو المروة : قرية بوادي القرى .

سعد ذكر في طبقاته (كما سيأتي) أن زيد بن حارثة قام بحملة عسكرية كبيرة إلى بني فزارة في وادي القرى ^(١) في شهر رمضان من هذه السنة . والله أعلم .

(١) ولما لهذا الوادي من أهمية كبرى عبر التاريخ قبل الاسلام وبعده ، لا بد من أن نمطي القارئ الكريم لحة عنه .. قال ياقوت في معجمه : قال أبو المنذر : سمي وادي القرى (بضم القاف وفتح الراء) لأن الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة ، وكانت من أعمال البلاد وآثار القرى إلى الآن بها ظاهرة إلا أنها في وقتنا هذا كلها خراب .. مياها جارية ، تتدفق ضائفة لا يلتصق بها أحد ، قال أبو عبيد الله السكوني : وادي القرى والحجر والجناب منازل قضاة ثم جبهة وعذرة وبلي ، وهي بين الشام والمدينة يمر بها حاج الشام ، وهي كانت قديماً منازل ثمود وبها أهلكتهم الله وآثارها إلى الآن باقية ، ونزلها بعدهم اليهود واستخرجوا كطائها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها ، فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفاً وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل في كل عام ومنعها لهم على العرب ودفعوا عنها قبائل قضاة ، وروي أن معاوية بن أبي سفيان مر بوادي القرى فقتل قوله تعالى : أقتزكوت فيها ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل ، الآية .. ثم قال : هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة وهي بلاد ثمود فأين الميون ؟ فقال له رجل : صدق الله في قوله ، أحب أن استخرج الميون ؟ فقال : نعم ، فاستخرج ثمانين عيناً . فقال معاوية : الله أصدق من معاوية ، وكان النعمان بن الحارث الفسائي ملك الشام أراد غزو وادي القرى فعذره نابغة بني ذبيان ذلك بقوله في أبيات منها :

تجنب بني حن فإنت لقاءهم كره وإن لم تلق إلا بصائر
 هموا قتلوا الطائي بالحجر عنوة أبا جابر واستنكحوا أم جابر
 وهم ضربوا أنف الفزاري بعدما أتاهاهم بمعقود من الأمر قاهر
 أنطمع في وادي القرى وجنابه وقد منعوا منه جميعه للعاشر
 ويظهر أن وادي القرى ازدهرت في العصر الإسلامي مزارعه وبساتينه حتى =

- ١٢ -

حملة دومة الجندل ^(١) .. شعبان سنة خمس من الهجرة :

وهي حملة عسكرية كبرى قادها عبد الرحمن بن عوف الزهري إلى ديار بني كلب ^(٢) بدومة الجندل ، وكانت هذه

= صار الشعراء به يتفننون ومن ذلك قول جميل بثينة :

ألا ليت شعري هل ابين ليلة بوادي القرى إني إذن لسعيد

(١) دومة الجندل (بضم وفتح أوله وسكون ثانيه) موضع مشهور في التاريخ ، وهي واحة كثيرة المياه والزروع ، قال في معجم البلدان: تقع في غائط من الأرض وبها عين تشق فتسقي ما بها من الزروع والنخل ، وحصنها ماردا سميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل ، وهو الصخر العظيم الصلب وكانت في الجاهلية مملكة يحكمها ملوك كندة القحطانيين ، وكان آخر ملوكها أكيدر بن عبد الملك السكوني الكندي ، وكان على دين النصرانية وهو الذي رجه النبي (ص) إليه القائد خالد بن الوليد عندما كان في تبوك غازياً سنة تسع من الهجرة ، فأمر خالد الملك (أكيدر) وقتل أخاه حسان وفتح دومة الجندل وكانت ذات أسوار عالية ، وقد أسلم أكيدر إلا أنه نقض الصلح بعد وفاة النبي (ص) فأجلاه عمر إلى العراق ، هكذا قال ياقوت في معجمه ، إلا أنه استدرك فقال : وأهل كتب الفتوح مجمعون على أن خالد بن الوليد غزا دومة الجندل مرة أخرى ، أيام أبي بكر جاءها من العراق (وكانت دومة الجندل قريباً من الحدود العراقية) في أقصى شمال الجزيرة ، وقد قتل خالد (أكيدر) سنة ١٢ هـ لأنه ارتد ونقض العهد .

(٢) هذا السياق يدل أن بدومة الجندل إمارات متعددة منها : إمارة الأصبغ بن عمرو الكلبي ، ولكن سياق المؤرخين يدل على أن أعظم أمراء أم ملوك دومة الجندل هم من كندة الذين آخرهم (أكيدر الذي ذكرنا قصته آنفاً)

الحملة تتألف من سبعمائة مقاتل (هكذا جاء في مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٦٠) .

وكانت دومة الجندل تقع في الشمال الغربي للجزيرة العربية قريباً من حدود العراق ، وكان بها ملك اسمه (الأصبع بن عمرو الكلبي) وكان وقومه على النصرانية .

وذكر المؤرخون أن النبي ﷺ عندما عقد لعبد الرحمن بن عوف لواء الإمارة على هذه الحملة الكبيرة عممه بعمامة سوداء بيده الكريمة ورخى بين كتفيه منها قدر أربع أصابع ثم قال : هكذا يا ابن عوف فاعتم فإنه أحسن وأعرف .

وكما هي عادة النبي ﷺ في توجيه وصاياه الإنسانية النبيلة إلى قادة جيوشه وجهه إلى قائد هذه الحملة وصية قال فيها: (أغز بسم الله وفي سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، لا تفل ولا تقدر ولا تقتل وليداً (أي صبياً) فهذا عهد الله وسنة نبكم^(١) .

بعد ذلك تحرك عبد الرحمن بن عوف بسيرته الكبيرة ، وما زال سائراً نحو الشمال (يكن النهار ويسير الليل) حتى وصل إلى دومة الجندل .

ولما كان القوم يدينون بالنصرانية ، لم يهاجمهم عبد الرحمن ابن عوف بفتة كما هي الحال في غزو الاعراب الوثنيين .

(١) أنظر طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٨٩ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٠٤ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٦٠ تحقيق مارسدن جونس جامعة اكسفورد .

بل دعاهم إلى الإسلام وظل يدعوهم ويفاوضهم ثلاثة أيام
وهم يأبون ويقولون لا نعطي إلا السيف أو تعود من حيث أتيت.
إلا أنه في اليوم الثالث استجاب ملكهم (الأصبح بن عمرو
الكلبي)^(١) فاسلم وتبعه على الإسلام خلق كثير من قومه وكلهم
كانوا نصارى .

. وهكذا حققت هذه الحملة الكبيرة أغراضها ، وكفى الله
المؤمنين شر القتال .. أما من بقي من أهل دومة الجندل على
النصرانية (وكلهم غرب) فقد تركهم القائد عبد الرحمن بن
عوف وشأنهم أحرار في دينهم على أن يؤدوا الجزية لدولة الإسلام
كاعتراف بسلطانها ومقابل حمايتها لهم فقبلوا .

وقد تزوج القائد عبد الرحمن بن عوف ابنة ملك دومة
الجندل واسمها (تماضر بنت الأصبح) وأحضرها معه إلى المدينة
فولدت له ابنة (سلمة بن عبد الرحمن) .

وقفة فقهية :

وذكر المؤرخون أن عبد الرحمن بن عوف توفي وتماضر

(١) اسم كلب يطلق على عدة قبائل عربية ولكن الكلابيين أصحاب دومة
الجندل هؤلاء هم بطن من قضاة من القحطانية وهم بنو كلب بن وبرة ، وهم
قبيلة عظيمة تمتد ديارهم حتى تبوك وأطراف الشام ، وفي الفتوح الإسلامية
كان لقبائل كلب شأن عظيم في نصرة الإسلام ، وكانوا عماد جند الشام في عهد
معاوية ، وكانت مدينة تدمر وسلمية والمصاحمية هي منازل كلب ، وكان
الخليفة معاوية قد أصهر إليهم إذ تزوج منهم ، وكان منهم جيل عظيم يسكن
الدهناء شرقي جزيرة العرب .

الكلبية لما تزل في عدتها من طلاقه فورثها فيه الخليفة عثمان ،
وهذا صار سنداً فقهياً قوياً للذين يقولون بعدم صحة الطلاق في
المرض الذي يموت فيه المطلق وهو مذهب المالكية .

- ١٣ -

حملة إرهاب بني سعد ^(١) بفدك .. ^(٢)
شعبان سنة ست من الهجرة .

هي دورية عسكرية كبيرة قام بها علي بن أبي طالب لبث^٢
الربع في قلوب قبائل بني سعد بن بكر بفدك ، وكان عدد
رجال هذه الدورية مائة فارس ، أعطى النبي ﷺ قيادتهم لملي
ابن أبي طالب ، وأمره بأن يغير علي بن سعد بعد أن تلقى ﷺ
من استخباراته أن بني سعد قد قرروا أن يساندوا يهود خيبر
ويمدوهم بالرجال مقابل أن يعطي اليهود هذه القبيلة جزءاً كبيراً
من تمر خيبر ^(٣) .

(١) اسم سعد يطلق على عدة قبائل منهم العدنانية والقحطانية ، وأما
هؤلاء فهم (على ما يظهر) بنو سعد بن ثعلبة ، بطن من ذبيان ثم من غطفان
العدنانية .

(٢) فدك (بفتح أوله وثانيه) قرية زراعية من أرباض خيبر ، وكانت
حاضرتها من اليهود حيث كانوا يزارعون لأنها كانت مثل خيبر ذات مياه
وتربة خصبة ، أما باديتها فكلهم من العرب من بني سعد ، وهؤلاء هم الذين
غزاهم علي بن أبي طالب .

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٦٢ .

وهذا يدل على أن اليهود كانوا يستعدون (منذ زمن طويل)
للفزو المنتظر الذي قسام به النبي ﷺ أخيراً لخبير ، فأخضعها
وأنهى الوجود اليهودي فيها ، كما يأتي تفصيله إن شاء الله في
كتابنا السادس .

وقد تحرك علي بن أبي طالب بدوريته المسلحة ، واستمر في
تحركه ستة أيام يكن فيها ليلاً ويسير نهاراً .

وفي اليوم السابع ، وصل علي بدوريته مشارف (فداك)
وهناك وجد رجلاً (لم يذكر المؤرخون اسمه) فسأله عن العدو
من بني سعد ، فخاف الرجل ، فطمأنه قائد الدورية (علي)
بأنهم لا يريدون به شراً ، فاستوثق لنفسه قائلاً : أخبركم عن
مكان القوم على أنكم تؤمنوني ، فأعطوه الأمان ، فأرشدكم إلى
الوادي الذي تتجمع فيه بنو سعد .

فأغار عليهم الإمام علي برجال دوريته ، وكان على رأس
العدو (وبر بن عليم) ولم يُبدر بنو سعد (بالرغم من كثرة
عددهم) أية مقاومة .

بل كان همهم النجاة بأنفسهم ، ففروا ومعهم النساء والأطفال
فقط ، وتركوا مواشيهم ، فاستولى عليها رجال دورية علي بن
أبي طالب .

وكانت خمسمائة بعير وألفي شاة ، قسمها القائد علي على
رجال دوريته كما تقسم الفنائم بعد أن عزل الخمس منها ليوضع

تحت تصرف النبي ورئيس الدولة ليدخروها لنوائب المسلمين كما هو المتبع. ثم عاد علي بدوريته إلى المدينة دون أن يلقى كيداً.

- ١٤ -

حملة تأديب بني فزارة ^(١) .. رمضان .. سنة ست من الهجرة

قبيلة فزارة (بفتح أوله وثانيه) تعتبر من أعظم القبائل النجدية وأكثرها عدداً في العهد النبوي ، وكان السيد الذي يرجع إليه أمرها هو عيينة بن حصن الفزاري الملقب (بالأحق المطاع) ، فقد ذكر المؤرخون أن عشرة آلاف رمح من هذه القبيلة تتحرك (مطبعة) أينما تحرك هذا الأحق .

وكانت بنو فزارة من أشد الناس عداوة للمسلمين وأكثرهم تعمرساً بهم لقرب منازلهم من منطقة المدينة ، وكانت بعض فخاذل هذه القبيلة تنزل وادي القرى الواقع بين المدينة وخيبر . وكان رجال هذه القبيلة الوثنية طالما شنوا اعتداءات

(١) فزارة (بفتح أوله وثانيه) قبيلة عدنانية عظيمة ، وهي جناس رئيسي في غطفان العظيمة ، وفزارة هو ابن ذبيان بن بغيس بن ريث بن غطفان ، وكان قائد فزارة في الجاهلية وسيد عيينة بن حصن الملقب بالأحق المطاع ، لأنه كانت تتبعه عشرة آلاف قناة بوجه أصعابها إلى أي حرب فيطعمون دون أن يسألوه عن السبب أو المبرر ، وتقع ديار فزارة في الجاهلية وعند ظهور الإسلام في نجد ، وعقب انتشار العرب خارج الجزيرة مع الفتح الإسلامي تفرقت قبائل فزارة فنزلوا مصر وبرقة وطرابلس والمغرب الأقصى (انظر معجم قبائل العرب ، لعمر كحالة) .

متكررة على المسلمين ، وكثيراً ما يستأجرهم اليهود لمحاربة المسلمين .

وقد عرفنا كيف أغار عبد الرحمن بن عيينة بن حصن على المسلمين في الغابة بضواحي المدينة فاستاق لإبلهم بعد أن قتل من قتل منهم سنة خمس من الهجرة كما تقدم تفصيله في (غزوة الغابة) .

ولهذا كان من الطبيعي أن يتحسّن المسلمون الفرص لضرب هذه القبيلة وإرهاها وكسر شوكتها بنقل المعركة إلى ديارها وضربها في منازلها ومسارحها .

لا سيما وأن المسلمين يتهيئون لخوض معركة فاصلة مع اليهود في خيبر التي تقع منازل هؤلاء الفزاريين بينها وبين المدينة. الأمر الذي يحتم على القيادة العليا في المدينة القيام بعمل عسكري حاسم تكون به خطوط المسلمين في مأمن عندما يقومون بالزحف على مدينة خيبر والذي قاموا به (بالفعل) في أوائل السنة السادسة من الهجرة .

الصديق القائد :

وجهز الرسول ﷺ لتأديب (فخذة بني بدر من قبيلة فزارة) حملة عسكرية قوية اختلف المؤرخون في القائد الذي أسندت إليه قيادة هذه الحملة الكبيرة .

فابن سعد يذكر في طبقاته الكبرى أن قيادة هذه الحملة أعطيت لزيد بن حارثة .. بينما يذكر الامام مسلم في صحيحه (عن سلمة بن الأكوع) : أن قائد هذه الحملة هو أبو بكر الصديق .

وعلى كل .. فإن الروايتين ليس بينهما اختلاف في التفاصيل .. ونحن نرجح رواية الإمام مسلم لأنه (وصحيح البخاري) أصح الكتب وأصدقها بعد كتاب الله تعالى .

تحرك القائد الصديق من المدينة على رأس قوة كبيرة من المهاجرين والأنصار (لم أر أحداً من المؤرخين ذكر عدد أفرادها) وكان تحركه في شهر رمضان من السنة السادسة للهجرة على ما حققه ابن حزم والسابعة على ما ذكره غيره من المؤرخين .

نجاح الحملة :

وقد حققت حملة الصديق المبكرية التأديبية أهدافها .. فقد بثَّ الله الرعب في نفوس بني بدر (من فزارة) .

إذ لم يكادوا يشعرون بوصول أبي بكر الصديق برجاله حتى عمَّهم الذعر والخوف فلم يبدوا أية مقاومة ، بل أخذوا في الفرار أشتاتاً .

إلا أن المسلمين حالوا بينهم وبين ذلك فقتلوا عدداً منهم وأسروا عدداً آخر بمن فيهم (أم قرفة) فاطمة بنت ربيعة بن

بدر وابنتها جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر . وهي من
أجمل بنات العرب .

أما (أم قرفة) فكانت امرأة شيطانة ، وكانت (برّزة
مسترجلة) وفي شرفٍ من قومها تحتل بينهم مكان القائد والزعيم .
وكان يعلّق في بيتها خمسون سيفاً كل أصحاب هذه السيوف
لها محرم .. وكان لها إثنا عشر ولداً كلهم يحمل السلاح .
ومن ثم كانت العرب : تضرب بها المثل في العزّة .
فتقول : لو كنت أعز من أم قرفة .

تحاول اغتيال النبي :

وقد كانت هذه الشيطانة (أم قرفة) على أشد ما تكون من
البغض للنبي ﷺ ، لذا صممت على اغتياله داخل المدينة .
فجهزت ثلاثين فارساً من ولدها وولد ولدها وأمرتهم بالذهاب
إلى المدينة لكي يقوموا باغتيال الرسول ﷺ إلا أنهم لم يتمكنوا
من ذلك (١) .

ويظهر أن (أم قرفة) هذه كانت القائد الفعلي لقومها من
بني بدر .. يدل على ذلك أن بعض المؤرخين أسمى هذه الحملة

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٠٣ .

التي أسرت فيها قرفة وابنتها (بسرية أم قرفة) (١١) .

أما كيف حققت الحملة أهدافها فقد ذكر المؤرخون أن رجال الحملة المسلمين شنوا الغارة على بني بدر في غماسة الصبح ، بعد أن فرغوا من أداء فريضة الصلاة .

قال سلمة بن الأكوع (كما في صحيح مسلم) : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق إلى فزارة ، وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشنينا الغارة ، فوردنا الماء ، فقتل أبو بكر من قتل ، ورأيت طائفة (منهم الذراري) فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا ، وفيهم امرأة هي (أم قرفة) عليها قشع من آدم . معها ابنتها من أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر فنقلني أبو بكر ابنتها فلم أكشف لها ثوباً .

وقد جاء في مسلم (كما نقله ابن برهان الدين) أن النبي ﷺ لما عاد سلمة بن الأكوع طلب منه أن يهب له تلك الفتاة الجميلة (جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر) قائلاً : يا سلمة : هب لي المرأة لله أبوك ، فقلت : هي لك يا رسول الله ، فبعث ﷺ بهذه الفتاة إلى مكة ففدى بها أسرى من المسلمين هناك .

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٠ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٥ .

وقفة تأمل وتدبر :

ولعل في هذا التصرف النبيل من قبل النبي الأعظم ﷺ أكبر دليل على دحض مزاعم أعداء الله ورسوله من المستشرقين وفروخهم في الشرق الإسلامي الذين ينكرون على الرسول الأعظم ﷺ تزوجه بتسع نساء ، ويدّعون أن ذلك منه بدافع الرغبة الجنسية .. والميل الشديد إلى اقتناء النساء .

فلو كان كما يزعمون (قبحهم الله) لاحتفظ لنفسه بهذه الفتاة الفزارية التي وهبها له سلمة بن الأكوع ، والتي هي (بإجماع المؤرخين) من أجل بنات العرب .. ولكننا نراه ﷺ يبعث بها إلى مكة ليفتدي بها أسرى من أصحابه .. الأمر الذي يؤكد بطلان مزاعم أعداء الله الآتفة الذكر .

وقد كان من بين القتلى المشركين في هذه الحملة : النعمان وعبيد الله أبناء مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر .

وذكر ابن سعد في طبقاته الكبرى : (الذي ذكر أن قائد الحملة هو زيد بن حارثة) ذكر أن القائد زيـداً قتل أم قرفة (الشيطانة) ، أمر بأن تربط رجلاها بحبل بين جلين ثم زجرهما كل منهما في اتجاه معاكس فذهبا حتى قطعاهما .

أما رواية الإمام مسلم (وهي المرجحة والأصح) فلم يذكر فيها قتل أم قرفة والله أعلم .

وقال ابن برهان الدين في السيرة الحلبية : أما لبنها قرفة ،
الذي تُكنى به فقد قتله النبي ﷺ ، كما أن بقية أولادها قتلوا
مع أهل الردة في نجد ، فلا خير فيها ولا في بنيتها .

والذي يحذر ذكره هنا ان إحدى بنات أم قرفة هذه واسمها
(سلمى) كانت قد قادت تمرداً كبيراً ضد جيش خالد بن الوليد
الذي بعثه الصديق لإخضاع المرتدين . . قادت سلمى (وهي
شيطانة مثل أمها) هذا التمرد في منطقة ظفر بنجد فتبعها
جموع غفيرة من فلال المرتدين الذين انهزموا في معركة بُزَاخة
الشهيرة ، وقد قُتِلَت سلمى هذه في المعركة بعد أن عانت منها
جيوش خالد ومن أتباعها الأهوال حيث اشتبكوا معها في قتال
مرير ليس بأقل ضراوة من القتال الذي نشب بين جيوش خالد
وجيوش المرتد، طليحة بن خويلد الاسدي ^(١) في بُزَاخة .

(١) انظر ترجمة طليحة بن خويلد في كتابنا (غزوة الاحزاب) .

- ١٥ -

سرية كرز الفهري ^(١) .. الى العرينيين .. شوال ، سنة ست من الهجرة

ففي هذا الشهر قدم نفر من عرينة ^(٢) ثمانية على رسول الله ﷺ فأسلموا ، إلا أنهم استوبأوا المدينة وأصيبوا ببعض الأمراض .

فأمر الرسول ﷺ بنقلهم إلى منطقة (الجدر) ناحية قباء وعلى بعد ستة أميال من المدينة بالقرب من جبل عير للاستشفاء ، حيث ترعى لقاحه ^(٣) في المنطقة الجيدة الهواء .

(١) هو كرز بن جابر بن حسل بن لاحب الفهري القرشي ، كان من سادات المشركين وقادتهم المحاربين قبل أن يسلم ، وهو الذي أغار بقوات فريش على ضواحي المدينة فطارده النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية حتى منطقة سفوان ولم يتمكن من اللحاق به ، أسلم (كرز) فحسن إسلامه ، وكان قائداً لإحدى الكتائب في فرقة خالد بن الوليد التي دخل بها مكة عام الفتح ، وكان (كرز) أحد اثنين من الصحابة استشهدا في فرقة خالد عند افتتاح مكة وكان الرجل الشهيد الثاني حبيش بن الأشعر الخزاعي .

(٢) عرينة : موضع ببلاد فزارة بنجد قاله ياقوت ، ويظهر أن هؤلاء العرينيين ، هم من فزارة .

(٣) اللقاح : ابل من الاناثي تتخذ خاصة لإنتاج اللبن ، وكان اللبن عند العرب من الاغذية الرئيسية للكبار والصغار وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقلني مجموعة من اللقاح لتغذية الوفود وغيرهم ممن يرد على المدينة من الغرباء والمساكين والضعفاء .

فكثوا فيها مدة يتمتعون بالهواء النقي ويشربون من لبن نخاح
النبي ﷺ حتى صحّوا وسمنوا، وهنا فعلوا فعل اللّثيم الفسّاد
الحائن المنكر للجميل .

فقد عدّوا على اللقاح التي غذاهم لبنها وأسمنهم فاستاقوها
وحاولوا الهرب بها إلى ديارهم، فأدركهم يسار^(١) مولى رسول الله
ﷺ لاسترجاع اللقاح منهم (ومعه نفر قليل) فقاتلهم فتغلّبوا
عليه وعلى رجاله حتى قتلوه ، وقطعوا يده ورجله ، وغرّزوا
الشوك في لسانه وعينه .

ولما بلغ النبي ﷺ نبأ هذا الحادث الفظيع انتخب عشرين
فارساً من أصحابه وأسند قيادتهم لكِرْزُ بن جابر الفهري ،
وأمرهم بمطاردة المرينيين وإلقاء القبض عليهم ، فأدركوهم ، ثم
ألقوا عليهم القبض بعد أن أحاطوا بهم ، ثم ربطوهم وأردفوهم
على الخيل حتى قدموا بهم المدينة .

وكان النبي ﷺ موجوداً بالغابة فخرجوا بهم إليه لاختصاص
ما يراه من إجراء ضدهم، فألنقوا به ﷺ بالغابة (بجمع الاسيال)
في ضواحي المدينة .

(١) هو يسار النوبي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حديث
سليمان بن الأكوع أخرجه الطبراني ، قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم
غلام يقال له يسار فنظر اليه يحسن الصلاة فأعتقه ، وبمته في لقاح له بالهرة،
وذكر قصة مقتله (انظر الإصابة ج ٣ ص ٦٢٨) .

وبعد أن أُجريَ التحقيق معهم ثبتت إدانتهم ، فأصدر النبي ﷺ حكماً صارماً ضدهم ليكونوا عبرة لغيرهم .. إذ أمر بهم ففعلت أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ^(١) ثم أمر بهم فصلبوا هناك .

ويقول ابن سعد : وفي ذلك أنزل الله تعالى : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً) الآية .
فلم يسمل النبي ﷺ بعد ذلك عيناً .

- ١٦ -

سرية زيد بن حارثة الى مدين ؟؟

ولم أر فيما بين يدي من مصادر تاريخ هذه الحملة .. ولكن الغالب على الظن أنها حدثت في السنة الخامسة من الهجرة .. بدليل أن ذكرها في السيرة الحلبية جاء قبل ذكر حملة علي بن أبي طالب التي قام بها إلى فدك لتأديب بني سعد في شعبان سنة ٥ من الهجرة .

قاد هذه السرية زيد بن حارثة إلى مدين وهي قرية بني الله شعيب ^{رضي الله عنه} وهي تجاه تبوك (على ما ذكره صاحب السيرة الحلبية) .

(١) سمل عينه : فقاما .

ولم أطلع في شيء من المصادر ، على من جردت هذه الحملة ، وكل ما في الأمر أن ابن برهان الدين ذكر في السيرة الحلبية أن زيدا ظفر بالقوم وأصاب سبياً ، ففرقوا في بيعهم بين الأمهات والأولاد ، فخرج رسول الله ﷺ وهم يبكون ، فقال : ما لهم ؟

فأخبر أنه فرق بين الأمهات والأولاد في البيع ، فقال رسول الله ﷺ : لا تبيعوهم إلا جميعاً ، فصار ذلك النهي تشريعاً حرم العلماء بموجبه التفريق بين الأم وأي من أولادها في البيع ، واعتبر الإمام الشافعي البيع باطلاً إذا كان فيه تفريق بين الأم وأحد أولادها (١) .

- ١٧ -

بعث عمرو بن أمية الضمري .. لقتل أبي سفيان بمكة ..
شوال من السنة السادسة

وفي شوال وقبل الحديبية بحوالي شهر واحد بعث رسول الله ﷺ الفاتك الفدائي المشهور (عمرو بن أمية الضمري) وسلمة بن أسلم ، إلى أبي سفيان بن حرب الذي كان قائداً

(١) أنظر بحثنا المستفيض عن الرق الحربي في الإسلام ، في كتابنا (غزوة بني قريظة) ففيه فندنا التهم الباطلة التي ألصقها أعداء الإسلام بهذا الدين لإباحته الرق الحربي .

عاماً لجيوش المشركين في مكة ، وأمرهم عليه السلام أن يقتلاه
أيناً وجداه .

محاولة اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم :

والسبب في الأمر بقتل أبي سفيان هو أنه استأجر رجلاً من
الأعراب وأمره بالذهاب لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم ، وفعلوا ذهب
الأعرابي حتى وصل المدينة وحاول اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلا
أن الله كشف أمره ، فألقي عليه القبض قبل الشروع في جريمته
ولدى إجراء التحقيق معه اعترف بكل شيء فعفى عنه النبي
صلى الله عليه وسلم ثم أسلم بعد ذلك .

وخلاصة القصة أن أبا سفيان بن حرب جرى بينه وبين
بعض القرشيين حديث حول تزايد قوة المسلمين وما أنزلوا
المشركين من هزائم ، فقال أبو سفيان : ألا أحد يقتال محمداً
فلأنه يمشي في الأسواق ؟ ..

فأتاه رجل من الأعراب (وقد بلغه ما قال أبو سفيان)
فقال له : قد وجدت أجمع الرجال قلباً وأشدّهم بطشاً
وأسرعهم عدواً (يعني نفسه) .. فلأن ألت قويتني (وفي
رواية فديتني) : خرجت إليه حتى أغتاله فإن معي خنجرأ
كخافية النسر فأسوره ثم آخذه في غير ، وأسبق القوم عدواً ،
فلأنني هاد بالطريق خربت .

فاغتنبط أبو سفيان قائلًا للأعرابي : أنت صاحبنا ..
ثم أعطاه بغيراً ونفقة كافية ، وطلب منه أن يكتم أمره قائلًا :
أطو أمرك .

فخرج من مكة ليلاً ، وكانت المسافة بين المدينة لا يقطعها
الراكب إلا بعد ١١ يوماً ، غير أن الاعرابي المذكور قطع هذه
المسافة في خمسة فقط ، إذ لم تكن صبيحة اليوم السادسة إلا
وهو في المدينة .

وبجرد وصوله عقل راحلته ثم أخذ يسأل عن الرسول ﷺ
لينفذ الجريمة فاهتدى إليه بسهولة لأن النبي ﷺ لم يكن له
حارس أو حاجب يحول بين الناس وبين مقابلته في أي وقت .

ان هذا يريد غدرًا :

وفي مسجد بني عبد الأشهل كاد الاعرابي المأجور ينفذ جريمة
الإغتيال .. إذ هناك وجد النبي ﷺ جالساً ، فدخل عليه
المسجد كأخذ عامة المسلمين .

غير أن النبي ﷺ تفرّس في الاعرابي وأدرك أنه يريد شراً
فقال ﷺ : إن هذا يريد غدرًا ! . فأسرع الاعرابي نحو
الرسول ﷺ لتنفيذ الجريمة المكلف بتنفيذها .

إلا أن سيد الأوس (أسيد بن الحُضَير) ^(١) حال دون

(١) أسيد بن حضير (بضم أوله وفتح ثانيه) أنظر ترجمته في كتابنا
غزوة الأحزاب .

ذلك ، إذ أمسك بالاعرابي وشده من يديه ، وبعد أن تم القبض عليه ، قام أسيد بن الحضير بتفتيشه فوجد الخنجر مخفياً داخل إزاره .. فأسقط في يديه ، وصاح خائفاً (بعد أن اكتشف أمره) دمي : دمي ، فأخذ أسيد بن الحضير بلبسته وكاد يخنقه من الغيظ .

ثم أجرى التحقيق معه في الحال ، وأثناء التحقيق ، قال له النبي ﷺ (وكان كعادته عفواً رحيماً) : أصدقني ما أنت ؟ قال : وأنا آمن ؟ ، قال ﷺ : نعم ، فأخبره بكامل مخطط المؤامرة ، فغفى عنه ﷺ ثم خلى سبيله ، فاعتنق الاعرابي الإسلام بمحض إرادته .

وقد تعدت الاعرابي إلى النبي ﷺ بعد أن أصبح عضواً في الاسرة الإسلامية ، عما اعتراه ساعة شروعه في تنفيذ الاغتيال قائلاً : يا رسول الله ، ما كنت أخاف الرجال ، فلما رأيتك ذهب عقلي وضعفت نفسي ، ثم اطلعت على ما هممت به فعلت أنك على الحق ، فجعل رسول الله ﷺ يبتسم .

السعي لاغتيال أبي سفيان :

وبعد هذه الحادثة استدعى النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري (وكان فداًئياً ممتازاً ومشهوراً في الجاهلية بأنه فاتكاً يخافه الناس) استدعاه ﷺ وكلّفه بأن يذهب إلى مكة لاغتيال

أبي سفيان بن حرب ، وندب معه سلمة بن أسلم^(١) (وقيل جبار بن صخر الانصاري)^(٢) قائلا : إن أصبنا منه (أي أبي سفيان) غرة فاقتلناه .

فصدع عمرو بالأمر ، وما هي إلا أيام قلائل حتى كان وصاحبه بمكة إلا أنها لم يتمكننا من اغتيال أبي سفيان إذ اكتشف أمرهما بمجرد وصولهما مكة .

قال ابن اسحاق : فخرج عمرو وصاحبه حتى قدما مكة ليلاً ، فقال جبار لعمرو : لو أنا طفنا بالبيت وصلينا ركعتين ؟ فقال عمرو : إن القوم إذا تعشوا جلسوا بأفئدتهم (تعبيراً منه عن خوفه من أن يكتشفهم قبل أن يقتلوا أبا سفيان) ، فقال جبار : كلا إن شاء الله .

قال عمرو : فطفنا بالبيت ، وصلينا ثم خرجنا نريد أبا سفيان ، فوالله إنا لنمشي بمكة إذ نظر إلي رجل من أهل مكة (قال ابن سعد : هو معاوية بن أبي سفيان) فقال عمرو بن أمية

(١) هو سلمة بن أسلم بن حريش الأوسي الأنصاري ، شهد بدرًا واستشهد في العراق تحت قيادة أبي عبيد الثقفي في معركة الجسر الشهيرة .
(٢) هو جبار بن صخر بن أمية بن خلفاء الأنصاري ، قال موسى بن عقبة في مغازيه إنه شهد بيعة العقبة ، وكان (بعد عبد الله بن رواحة) يحرص على أهل خيبر ، وقد روى ابن السكن أن جبار بن صخر قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إئتينا نبينا عن أن نرى عوراتنا . توفي جبار بن صخر في خلافة عثمان عن ٦٢ عاماً .

الضمري: إن قدمها (أي ما قدمها) إلا لشره ، فقلت لصاحبي النجاء : فخرجنا نشتد حتى صعدنا في جبل وخرجوا في طلبنا حتى إذا علونا الجبل ينسوا منا ، فرجعنا فدخلنا كهفاً في الجبل فبتنا فيه ، وقد أخذنا حجارة فرضمناها دوننا .

فلما أصبحنا غدا رجل من قريش يقود فرساً له ويخلي عليها ، فقلت : إن رأنا صاح بنا فأخذنا فقتلنا ، قال : ومعي خنجر قد أعدته لأبي سفيان ، فأخرج إليه فأضربه على ثديه ضربة ، وصاح صيحة أسمع أهل مكة ، وأرجع فأدخل مكاني ، وجاءه الناس يشتدون وهو بأخر رمق ، فقالوا : من ضربك ؟ فقال : عمر بن أمية الضمري ، وغلبه الموت ، فمات مكانه ولم يدلل على مكاننا ، فاحتملوه .

قال عمرو : فلما أمسينا خرجنا ليلاً من مكة نريد المدينة .

أخذ جثة الشهيد خبيب (١) :

قال : ثم مررنا بالحرس وهم يحرسون جيفة خبيب بن عدي فقال الحراس : والله ما رأيت كالليلة أشبه بمشية عمرو بن أمية لولا أنه بالمدينة لقلت هو عمرو بن أمية .

قال عمرو : فلما حاذيت الحشبة ؟ شددت على الحشبة فاحتملتها وخرجت شداً (أي عدواً) وخرج الحراس ورائي

(١) أنظر ترجمة خبيب بن عدي في كتابنا (غزوة الاحزاب) ص ٤٦

فلم يقدرُوا علي ، ثم أتيت جرفاً مبهط مسيل يأجج فرميت
بالخشبة في الجرف فغيَّب الله عنهم جنة (الشهيد) خبيب فلم
يقدرُوا عليه .

قتل جاسوس :

وبينا كان عمرو وصاحبه عائدین إلى المدينة أویا إلى كهف
فوجدا به رجلاً من بني بكر ثم من بني الدئل أعور في 'غنيمة له
فلم يتعرضا له بسوء ، ولكن الشيخ الأعور رفع عقيرته بعد أن
اضطجع وقال :

ولست بمسلم ما دمت حياً ولا دار لدين المسلمين

ففاظ ذلك عمرو فقال في نفسه : ستمعه ، فأمله حق إذا نام
أدخل طرف قوسه في عينه الصحيحة ثم تحامل عليها حتى
بلغت العظم .

ثم انطلق وصاحبه حتى إذا هبطا على النقيع (على ليلتين
من المدينة) وجدا رجلين من قريش من المشرکين بعثت بهما
قريش للتجسس على المسلمين ، فأذدرهما عمرو وصاحبه بأن
يستسلما ، فأبیا ، فرمى عمرو أحدهما بسهم فقتله ثم تمكن من
أسر الثاني ، فأوثقه ثم قدم به إلى المدينة .

- ١٨ -

مصرع ملك خيبر (أبو رافع) :

رمضان سنة ست من الهجرة

كان سلام بن أبي الحقيق النضري (بعد مصرع طاغية بني

النضير حُيي* بن أخطب (سيد خيبر المطاع ، وكان لا يقل (عن
 حُيي بن أخطب) عداوة لرسول ﷺ .

بالإضافة إلى ذلك كان من كبار مجرمي الحرب الفادرة
 الظالمة التي شنتها على المسلمين في المدينة (وبتدبير من يهود خيبر)
 عشرة آلاف مقاتل من الأحزاب الوثنية المتحالفة (قريش
 وغطفان وأشجع وفزارة وأسلم) .

فقد كان سلام بن أبي الحقيق في مقدّمة وفد التحريض
 اليهودي الذي غادر خيبر في أواسط السنة الرابعة من الهجرة
 ليطوف بمضارب البدو وفي نجد ومواطن القبائل في الحجاز
 لتحريضهم على غزو المسلمين وتدميرهم في المدينة .

وعندما تحوّل المشروع اليهودي من نطاق الفكر إلى جبر
 العمل ، وتحركت (لإبادة المسلمين في المدينة) تلك القوة الضاربة
 من أعراب نجد وقبائل قريش .. كان (سلام بن أبي الحقيق)
 هذا مع حُيي بن أخطب على رأس هذه القوة الضاربة الغازية ^(١) .

(١) قال ابن سعد في طبقاته الكبرى ج ٢ ص ٩١ : كان أبو رافع
 سلام بن أبي الحقيق قد أجلب في عطفان ومن حوله من مشركي العرب ،
 وجعل لهم الحفل العظيم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث رسول
 الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عتيك وأربعة آخرون وأمرهم بقتله .
 وقال ابن القيم « زاد المعاد ج ٢ ص ٢٩٣ » : كان أبو رافع من ألب
 الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقتل مع بني قريظة كما قتل
 صاحبه حُيي بن أخطب ، ورغبت الخزرج في قتله مساواة للأوس من قتل
 كعب بن الأشرف .

كما أن سلام بن أبي الحُقَيْقِ النَّضْرِي هذا كانت له سابقة خطيرة في الإجرام والتآمر في المدينة قبل إجلاء بني النضير عنها .
فقد كان سلام هذا، أحد أركان تلك المؤامرة الدينية التي كانت تستهدف حياة النبي الأعظم ﷺ والتي شرع يهود بني النضير في تنفيذها عندما كان النبي ﷺ موجوداً أعزلاً في ديارهم مع قلة من أصحابه جاؤوا إلى ديار بني النضير للبحث معهم في القيام ببعض التزامات تفرضها على اليهود معاهدة الحلف المعقود بين المسلمين وهؤلاء اليهود^(١) .

ولم يكن العفو الكريم الذي منحه النبي ﷺ يهود بني النضير والذي شمل في الدرجة الأولى (سلام بن أبي الحُقَيْقِ) أحد أركان المؤامرة .. لم يكن العفو الكريم ليغيّر شيئاً من طبيعة هذا اليهودي .. طبيعة الأنانية والفدر والخيانة والتآمر والسعي للوصول (على أكتاف الغير) إلى الغرض المنشود بأية وسيلة مهما بلغت من الحسنة والوضاعة (طبيعة اليهود في كل زمان ومكان) .

فقد رأينا (كما تقدم) كيف أن (سلام بن أبي الحُقَيْقِ) بالرغم من تلك المعاملة الكريمة التي عامل بها النبي ﷺ يهود بني النضير .. رأينا كيف أن سلام هذا وعصابته ، لم تكـد

(١) انظر التفاصيل الكاملة لقصة هذه المؤامرة الخطيرة في كتابنا (غزوة الاسزاب) الفصل الاول ص ٥٤ .

أقدمهم تظاً مدينة خيبر ، حتى شرعوا في حبك المؤامرة الخطيرة التي كانت ثمرتها تعريض النبي ﷺ وأصحابه لأعظم خطر شهده في حياتهم وهو غزوة الأحزاب .. التي رافق قواتها الضاربة سلام بن أبي الحقيق هذا وزميله في التآمر حيي بن أخطب اللذان كانا يحلمان بالعودة إلى المدينة .. أما حيي بن أخطب فقد لقي مصرعه في المدينة على أثر محاكمة يهود بني قريظة .

أما أبو رافع (سلام بن أبي الحقيق) .. فقد تمكن من الإفلات ، فعاد إلى خيبر عقب انفضاض جيوش الأحزاب عن المدينة مهزومة مدحورة .

وقد رأت القيادة الإسلامية العليا في المدينة ان التخلص من هذا اليهودي (سلام بن أبي الحقيق) الذي آلت إليه زعامة اليهود في خيبر بعد حيي بن أخطب — رأت أن التخلص من هذا اليهودي (كمجرم حرب) أمر لا بد منه .

لأن عداؤه المستحکم للإسلام وحققه العارم المغتلم في نفسه على النبي ﷺ لن يترك له فرصة يستريح فيها من عناء الكيد للإسلام والتأليب على المسلمين لإفنائهم حتى ولو أعطاهم ألف عهد ووقع معهم ألف ميثاق .

فمن المحتمل جداً (بما لدى هذا اليهودي المراهبي من ثراء واسع ولما يتمتع به من نفوذ اقتصادي كبير بين قبائل العرب

الوثنية المعادية بطبعها للإسلام) أن يقوم مرة أخرى بتأليب هذه القبائل وتحزيبها وأن يزّين لها غزو يثرب من جديد .

فيشعل على المسلمين ناراَ أخرى ، كما أشعل (بالاشتراك مع حييَّ بن أخطب) نار حرب الاحزاب التي كاد فيها المسلمون أن يبادوا عن آخرهم .

بل إن حديث المؤرخين ليشير إلى أن سلام بن أبي الحقيق هذا لم يكذب بل يوصل خير (بعد فراره) حتى شرع في اتصالاته المشبوهة بزعماء القبائل الوثنية وخاصة قبائل غطفان .. وأخذ يحرّضها على المسلمين ويهينها من جديد لشن حرب ثانية ضد المسلمين بقصد إبادتهم .. الأمر الذي يجعل المسلمين (حفاظاً) على سلامتهم وأمن أراضهم (أن يفكروا في التخلص سريعاً من هذا اليهودي العنيد المتأمر الذي لن يترك لهم فرصة يستريحون فيها ما بقي على قيد الحياة ، وما قدر على فعل ما يعتقد أن فيه تدميراً (أو إزعاجاً وإقلاقاً وترويعاً على الأقل) لهم .

لأن من طبيعة اليهود عدم التردد في ارتكاب فعل الشر ما وجدوا السبيل إلى فعله ، وما دام أن فعله يخدم غرضاً من أغراضهم الخبيثة أو يحقق هدفاً من أهدافهم الشريرة .

لذلك رأت القيادة الإسلامية العليا في المدينة القضاء على هذا الزعيم اليهودي بأسرع ما يمكن باعتباره مصدر خطر جسيم يهدد أمن وسلامة أمة بأكملها هي أمة الإسلام الوليدة في يثرب ..

وباعتباره غادوا وخائناً متآمراً ، لن يتورع (لإلحاق الضرر بالمسلمين) عن سلوك أي سبيل .. في وقت فيه المسلمون أحوج ما يكونون إلى الهدوء والاستقرار لمواجهة ما يهددهم من أخطار لا تزال تُذَرُّها تلمع في أفق نجد والحجاز ، حيث تتحفز قبائل غطفان (في انتظار الفرصة) لضرب المسلمين في المدينة لسلبها ونهبها ، ولإعادة الاعتبار الذي فقدته عندما عادت قواتها الضاربة مدحورة تجر أذيال الهزيمة في غزوة الأحزاب بعد حصار فاشل دام أكثر من أربعة أسابيع .

كما أن قريشاً من جانبها وكل قبائل الحجاز الوثنية تتحين الفرص للإغارة على المسلمين وكسر شوكتهم كأعداء عقائدين للوثنية التي هي دين تلك القبائل التي غضبت غضباً شديداً بسبب ظهور دعوة التوحيد التي جاء بها الإسلام لتقام أركانها على أنقاض هذه الوثنية .

وبالجملة فقد كانت القيادة الإسلامية العليا في المدينة (بالرغم من إحساسها إحساساً كاملاً بأنها من الناحية العسكرية أقوى مما كانت عليه قبل معركة الأحزاب) تشعر بأنها لا تزال محاطة بالأخطار من الشمال والشرق والجنوب .

بالإضافة إلى الخطر الداخلي الذي لا يزال الكيان الإسلامي الوليد يعاني منه الشيء الكبير .. وهو خطر المنافقين الذين يتربصون (داخل المجتمع الإسلامي) بالإسلام والمسلمين الدوائر.

ولعل أعظم خطر يخشاه المسلمون في تلك الفترة هو الخطر اليهودي الجاثم في خيبر على بعد مسافة لا تزيد على ٧٠ ميلاً من المدينة .

وهذا الخطر وإن لم يكن متمثلاً في قيام هؤلاء اليهود بغزو المدينة . إذ أن ذلك بعيد الاحتمال ، حيث أن القيام بالغزو ليس من طبيعة اليهود (طيلة وجودهم في جزيرة العرب) وإنما من طبيعتهم (كما وصفهم القرآن الكريم) القتال خلف جُدُرِ الحصون والقلاع والمستعمرات المحصنة (١) .

وإنما يتمثل هذا الخطر اليهودي (في الدرجة الاولى) في أن تعاود اليهود طبيعتهم في التعريض على المسلمين والسعي لحشد حشود جديدة هائلة من الأعراب ليقوموا بحرب خاطفة شاملة ضد المسلمين لحساب هؤلاء اليهود تحت تأثير الإغراء بالعطايا الجزيلة والرشاوى الكبيرة .

ولهذا كان لا بد للمسلمين من القيام بعمل حاسم يتسم بالترويع والتخويف .. يكون فيه درس رادع لليهود وإنذار عملي بأن هؤلاء اليهود (وخاصة زعماءهم وكبار مجرميهم) لن يكونوا بمنأى عن تأديب المسلمين وإنزالهم العقاب الصارم بهم جزاء تأمرهم حتى ولو كانوا في بروج مشيَّدة وحصون محصنة .

(١) جاء في القرآن الكريم إشارة الى واقع هؤلاء اليهود : (لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر) الحشر : ١٤ .

ولم يكن هذا العمل الجريء المتسم بطابع المغامرة الا قتل ملك اليهود وكبيرهم في قصره وعلى فراش نومه .

لأن ذلك يُعطي اليهود فكرة مجسّدة عن قدرة المسلمين على المغامرة وعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله :

وفي ذلك إذا ما نجح (دونما شك) تمزيق لأعصاب اليهود وجعلهم يتصورون أن المسلمين معهم أينما كانوا وأنهم قادرون على قتلهم متى شاءوا .. الأمر الذي ينسخ من أذهانهم فكرة السعي مرة أخرى لغزو المسلمين في المدينة .. ويجعلهم (فقط) يحصرون همهم واهتمامهم في التحصن وحماية أنفسهم من هؤلاء المسلمين .

وهل هناك قوم يخيفون أكثر من الذين يتمكنون من قتل أكبر إنسان في قومه وهو في علية حصنه وعلى فراشه بالسيف .. بالرغم من كثرة الأبواب الموصدة دونه والاحراس المقامة عليه ؟

ذلك بعض ما هدف إليه الفدائيون الخمسة الذين اتجهوا من المدينة الى خيبر خصيصاً لقتل سيدها اليهودي وكبير مجرميها وزعيم متآمريها على الإسلام والمسلمين (سلام بن أبي الحقيق الملقب بأبي رافع) .

فللقيام بهذه المغامرة الخطيرة (وبعد استشارة النبي ﷺ) تحرّك من المدينة المنورة ناحية خيبر خمسة من الفدائيين الأنصار وكلهم من الخزرج .

وهؤلاء الخمسة الفدائيون هم :

- ١ - عبدالله بن عتيك .
- ٢ - مسعود بن بن سنان .
- ٣ - عبدالله بن أنيس .
- ٤ - الحارث بن ربيعي أبو قتادة .
- ٥ - خزاعي بن أسود .

وقد أسند النبي ﷺ قيادتهم إلى (عبدالله بن عتيك) لأن من عادة النبي ﷺ أن لا يسند القيام بأي عمل إلى أكثر من اثنين إلا وأمر عليهم أحدهم لتكون روح الانضباط سائدة ولئلا تجحد الفوضى لها أي منفذ .

وبعد أن تهيأ هؤلاء الفدائيون للتوجه إلى خيبر لإنفاذ مهمتهم الشاقة الخطيرة ، زوّدهم النبي الأعظم ﷺ بوصاياهم الإنسانية النبيلة المعهودة التي يوصي بمثلها (دائماً) كل من يريد الإقدام على أي عمل حربي .. أوصاهم بأن لا يقتلوا وليداً ولا يعتمدوا على امرأة^(١) .

وبعد أن تزوّد هؤلاء الفدائيون الخمسة بتلك الوصايا الإنسانية النبوية السامية التي لا تزال قاعدة يتبناها العالم المتمدن في الحروب العادلة تحرّكوا من المدينة نحو منطقة خيبر .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٤ طبعة الحلبي .

وكان ذلك في أواخر السنة السادسة للهجرة في شهر رمضان^(١).

الفدائيون في خيبر :

ولم تكن إلا عدة أيام حتى كان الفدائيون الخمسة في مدينة خيبر .

لقد كان دخول العرب إلى منطقة خيبر غير مستنكر لا سيما وأن أهلها (وخاصة أبا رافع المطلوب القضاء عليه) مرابون يعرضون الأعراب قروضاً ربوية تقوم عليها تجارة هؤلاء اليهود في خيبر بل في جميع أنحاء جزيرة العرب .. فالربا صفة تجارية ملازمة لليهود أينما حلوا .

تخفي الفدائيين بالنهار :

ولقد كان بإمكان عبدالله بن عتيك وفصيلته من الفدائيين أن يتجولوا في مدينة خيبر ، بل وأن يدخلوا إلى حصونها ويتحدثوا إلى أهلها بجرية تامة وفي أي وقت أرادوا كما يفعل غيرهم من الأعراب الماورين لخيبر وغير الماورين الذين يعرفهم يهود خيبر أو لا يعرفونهم ، لأن اقتضاظ خيبر دائماً بالأعراب

(١) على ما حققه ابو محمد بن حزم في كتابه (جوامع السيرة) وعلى أساس أن غزوة الاحزاب وقريظة حدثتا في السنة الرابعة من الهجرة كما حققه أبو محمد واعتمدناه في كتابنا (غزوة الاحزاب) ، يرى ابن سعد في طبقاته الكبرى ج ٢ ص ٩١ أن سرية عبدالله بن عتيك سنة ست من الهجرة .

شيء مألوف ، لأنها سوقهم الرئيسية التي يبتاعون منها حاجاتهم الضرورية من المواد الغذائية كالتمر والبر والشعير والذرة وغير ذلك ، إذ أن خيبر تعتبر من أعظم تلك المناطق إنتاجاً للحبوب والتمور. ولذلك يسميها العرب آن ذاك. (ريف الحجاز) غير أن الذي حال بين الفدائيين الخمسة وبين التجوال في مدينة خيبر والظهور فيها نهراً ، واضطربهم إلى الاختفاء بالنهار والتحرك بالليل فقط ، وتحاشي التحدث إلى أي يهودي أو الاجتماع به ، هو أن جميع يهود بني النضير نساءً ورجالاً والذين أصبحوا من سكان مدينة خيبر يعرفون هؤلاء الفدائيين الخمسة فراداً فرداً ، وحتى أصواتهم سيعرفونهم بها لأنهم منذ خلقوا وهم يعيشون معهم في المدينة . ولم يمضِ على خروج يهود بني النضير من المدينة إلى خيبر إلا بضعة عشر شهراً . ولو عرف يهود خيبر هؤلاء الفدائيين لاكتشفوا أمرهم ولألقوا عليهم القبض وقتلوهم في الحال .

لأنهم يعتبرون أنفسهم في حالة حرب مع المسلمين ، ولأنهم سيدركون أن هؤلاء الفدائيين (وهم أعداء الأعداء لليهود) ، إما أن يكونوا جواسيس وإما أن يكونوا جاءوا لقتل أحد من سادات اليهود .

اللغة العبرية :

غير أن هناك أمراً ساعد قائد فصيلة الفدائيين على تخطي

بعض هذه الصعاب الشديدة وهو أنه كان يجيد اللغة العبرية (لغة دينهم) كأهلها .. وكانت هذه اللغة بالنسبة للسواد الاعظم من يهود الجزيرة تعتبر لغة ثانوية إلى جانب اللغة العربية التي يجيدها السواد الاعظم من اليهود أكثر مما يجيدون اللغة العبرية (لغة دينهم) والتي لا يجيدها إلا الاحبار والزعماء والقادة .

ولقد ساعد الإمام عبد الله بن عتيك باللغة العبرية على تيسير مهمته ، حيث يسر له الإختلاط ببعض يهود خيبر ، ويحتمل أن عن طريق مخاطبتهم باللغة العبرية حصل على أهم المعلومات التي يتوقف تنفيذ خطة قتل (أبي رافع) على الحصول عليها .

الخطوة .. والتنفيذ :

بعد الحصول على المعلومات الهامة التي يظهر أن الحصول عليها استغرق عدة أيام ، شرع الفدائيون الخمسة في رسم الخطوة للقضاء على رأس الغدر والخيانة والتآمر (أبي رافع سلام بن أبي الحقيق) حسب أوامر القيادة العليا في المدينة .

وكانت الخطوة تلخص فيما يلي حسب وصف جمهرة المؤرخين:

١ - على الفدائيين الخمسة أن يتسللوا ليلاً إلى داخل الحصن بطريقة يتم الاتفاق عليها .

٢ - عند نجاحهم في الدخول إلى الحصن عليهم أن يستولوا على مقاليد أبواب الحصن التي كان قائد الفدائيين قد عرف أين توضع بعد قفل الابواب .

٣ - بعد ذلك ، عليهم الإختفاء في أماكن الدواب حتى يمضي من الليل أكثره فيسكن الناس وينام الحراس . . وينصرف من مجلس رافع ستماره الذين يسامرونه من الزعماء كل ليلة .

٤ - في النصف الثاني من الليل ، على الفدائيين أن يتحركوا في غلس الظلام نحو الممرات والدهاليز التي تؤدي إلى غرفة نوم (أبي رافع) على أن يكون ذلك بحذر شديد ويقظة متناهية .

٥ - عند اجتياز كل باب من أبواب دهاeliz وممرات الحصن عليهم أن ينفذوا هذه الابواب من الداخل على أنفسهم ويأخذوا المفاتيح بأيديهم .

٦ - بما أن تحركهم في الممرات نحو غرفة الطاغية سيكون آخر الليل حيث يكون جميع الحرس قد ناموا ، فإن عليهم أن ينفذوا من الخارج باب كل غرفة (في حذر) على من فيها من الحرس والخدم ، ويأخذوا الأقاليد (المفاتيح) معهم بعد القيام بكل هذه العمليات التي تنفيذها يكاد يكون من المستحيل ، لأنها من الصعوبة بمكان عظيم في زمن يشمر فيه اليهود بأنهم معرضون لأي خطر من قبل المسلمين الذين هم معهم في حالة حرب ...

٧ - بعد قيام الفدائيين بهذه العمليات الصعبة التنفيذ . . عليهم أن يتجهوا بأسلحتهم الخفية داخل ثيابهم نحو غرفة الطاغية (أبي رافع سلام بن أبي الحقيق) التي عرفها قائد

الفدائيين بالتحديد لدى قيامه بالتحريي) ، وذلك لتنفيذ المرحلة الأخيرة من الخطة وهي قتل الطاغية .

٨ - اتفقوا على أن يقتحموا غرفة الطاغية وهو على فراش نومه ، ولدى اقتحام الغرفة ليس من حق أي من الفدائيين التحدث إلى كائن من كان ، إلا قائد الفدائيين (ابن عتيك) فإن من حقه أن يتكلم بما تليه الضرورة لأنه الوحيد الذي يجيد اللغة العبرية والتي يمكنه عن طريقها التموه على اليهود، إذا ما اكتشف أمره وأمر فصيلته .

٩ - عليهم ألا يهتجوا أحداً من يهود الحصن، وأن لا يقتلوا أحداً إلا في حالة الدفاع عن النفس لأن ذلك يفسد عليهم خططهم ولأنهم لم يؤمروا إلا بقتل الطاغية (أبي رافع فقط) .

١٠ - وكما هي أوامر النبي ﷺ عليهم أن لا يقتلوا امرأة أبي رافع التي أدخلوا في حسابهم أثناء وضع الخطة وجودها في حجرتة وقيامها بمدافعهم أو الصباح ، وكل ما يجوز لهم فعله في حالة وجودها تهديدها أو تكليمها (عند الفتك بأبي رافع) إذا اقتضت الضرورة ذلك .

هذه هي الخطوط العريضة للخطة التي رسمها الفدائيون الخمسة للتخلص من رأس الغدر والخيانة والتآمر أبي رافع .

لقد رسم الفدائيون هذه الخطة الجريئة .. وعند رسمها لم يفكروا كيف يمكنهم العودة من قمة الحصن الذي ينام في علية

أبو رافع وكيف يمكنهم المرور بالدهاليز والممرات الطويلة والحجر المنتثرة على جوانبها والتي لن يصلوا إليها إلا وقد وصل خبر اغتيال الطاغية .. إن باقي اليهود ، نعم لم يفكروا في العودة ، لأن هدفهم هو تنفيذ أوامر قائدهم الأعلى النبي ﷺ ، وإذا تم تنفيذ الأمر فلا يهمهم بعد ذلك كيف تجيء نتائج هذا التنفيذ .

اختلاف المؤرخين :

ومع إجماع المؤرخين وأصحاب الحديث على أن الفدائيين الخمسة قد نجحوا في القضاء على طاغية يهود خيبر وهو على فراش نومه .. إلا أنهم اختلفوا في كيفية تنفيذ الخطة .. ومن هو الذي قام (شخصياً) بالقضاء على أبي رافع .

فأكثر أصحاب المغازي والسير وعلى رأسهم إمامهم (محمد ابن إسحاق) يرون أن الفدائيين الخمسة كلهم اشتركوا (مع قائدهم عبدالله بن عتيك) في القضاء على الطاغية اليهودي ، وأن الذي أثبت أبا رافع وقضى عليه هو (عبدالله بن أنيس) .

وكل أصحاب الكتب الستة والسير (ما عدا الإمام البخاري) يتفقون مع ابن إسحاق في رأيه ، إلا أن الإمام البخاري (مع اتفاقه مع أصحاب الكتب الستة وأصحاب السير في نجاح الفدائيين في مهمتهم) ، يختلف معهم في أمرين اثنين (فقط) وهما :

١ - أنه روى أن قاتل (أبي رافع) هو قائد الفدائيين عبدالله بن عتيك ، لا عبدالله بن أنيس .

٢ - لم يذكر أن بقية الفدائيين لم يدخلوا الحصن .

ونحن سنورد رواية ابن إسحاق التي عليها الجمهور، ثم نورد رواية البخاري ، لأنها بحق أكثر تفصيلاً ، وأدق في السياق عند وصف الحادث .

رواية ابن إسحاق :

وخلاصة رواية ابن هشام عن ابن إسحاق هي أن قائد الفدائيين الخمسة لما وصل بهم خيبر دخل بهم دار (أبي رافع) ليلاً ولم يحدثنا كيف دخل هؤلاء الفدائيون .

إلا أنه قال : انهم لم يدعوا بيتاً في الدار إلا أغلقوه على أهله وكان (أبو رافع) في عِلْيَةٍ له لا يصل إليه إلا على عجلة^(١) منصوبة له إليها، فأسندوا فيها^(٢) حتى قاموا على بابه فاستأذنوا عليه فخرجت إليهم امرأته فقالت : من أنتم ؟

قالوا : ناس من العرب نلتمس الميرة .

قالت : ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه .

فلما دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها الباب تخوفاً أن تكون دونه مجاورة^(٣) تحول بينهم وبينه .

(١) العجلة : جذع النخلة ينقر فيه فيجعل كالسلم يصعد عليه .

(٢) اسندوا : علوا .

(٣) مجاورة : مدافعة ونحوها .

قال أحد الذين روى عنهم ابن اسحاق الحاذثة : « غير أن امرأته صاحت فنوّهت بنا^(١) وابتدرناه وهو على فراشه بأسيا ففنا فوالله ما يدُلُّنا عليه في سواد الليل إلا بياضه كأنه قبطية^(٢) ملقاة .

قال : ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع سيفه ثم يذكر نبي رسول الله ﷺ^(٣) فيكف يده ، ولولا ذلك لفرغنا منها بليل ، أي لقتلناها .

قال : فلما ضربناه بأسيا ففنا تحامل عليه عبدالله بن أنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه وهو يقول : (قطني ، قطني) أي : حسبي حسبي ، قال فخرجنا ، وكان عبدالله بن عتيك رجلاً سيء الصبر ، قال : فوق من الدرجة فوثبت يده وثباً شديداً — ويقال — رجله فيما قال ابن هشام — وحملناه حتى نأتي منهراً^(٤) من عيونهم فندخل فيه .

قال : فأوقدوا النيران واشتدوا في كل وجه يطلبوننا ،

(١) نوّهت بنا : رفعت صوتها تشهر بنا .

(٢) القبطية : بضم القاف وكسر الهاء نوع من الثياب البيض تصنع بمصر في تلك الأيام .

(٣) يعني وصية الرسول صلى الله عليه وسلم التي أوصى بها الفدائيين ونهاهم عن قتل النساء والأطفال .

(٤) المنهر : مدخل الماء من خارج الحصن الى داخله .

قال : حتى إذا يشوا رجعوا إلى صاحبهم فاكتنفوه وهو يقضي بينهم .

قال : فقلنا : كيف لنا بأن نعلم بأن عدو الله قد مات ؟

قال : فقال رجل منا : أنا أذهب فأنظر لكم ، فانطلق حتى دخل في الناس ، قال فوجدتُ امرأته ورجال يهود حوله وفي يدها المصباح تنظر في وجهه وتحادثهم وتقول : أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ، ثم أكذبت نفسي وقلت : أننى ابن عتيك بهذه البلاد ؟

ثم أقبلت عليه تنظر في وجهه ، ثم قالت : فاظ^(١) وإله يهود ، فما سمعت من كلمة كانت ألذَّ إلى نفسي ، ثم احتملنا صاحبنا فقدمنا على رسول الله ﷺ فأخبرناه بقتل عدو الله ، واختلفنا عنده في قتله ، كلنا يدعيه . فقال رسول الله ﷺ : هاتوا أسيافكم ، قال : فجئناه بها ، فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس : هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعام .

وفي رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى : أن النبي ﷺ لما رأى الفدائيين عائدِينَ إلى المدينة قال : أفلحت الوجوه ! فقالوا : أفلح وجهك يا رسول الله .

(١) فاظ : أي مات .

رواية البخاري :

أما رواية الإمام البخاري والتي هي أكثر تفصيلاً وتناسقاً فهي كما يلي :

فقد ذكر في صحيحه في باب قتل أبي رافع ^(١) أن الفدائيين لما وصلوا إلى خيبر أمرهم قائدهم عبد الله بن عتيك بالبقاء حيث هم كي ينطلق للقيام بالتحري قائلًا :

اجلسوا مكانكم ، فإنني منطلق لأنظر (أي أتحرى) قال ابن عتيك : فتلطف أن أدخل الحصن ، قال : ففقدوا حماراً لهم فخرجوا بقبس يطلبونه .. قال فخشيت أن أعرف ، قال : فغطيت رأسي ورجلي كأني أقضي حاجة .. ثم نادى صاحب الباب : من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه (وفي رواية فهتف به أي بابن عتيك - يا عبد الله (ناداه بذلك كما ينادي الشخص شخصاً لا يعرفه ، وهو يظنه من أهل الحصن) إن تريد أن تدخل فادخل ، فإنني أريد أن أغلق الباب .

قال : فدخلت .. فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علّق الأغاليق ^(٢) على وتد ، أما أنا فاخترت في مربوط حمار عند باب الحصن .. وكان أبو رافع يُسمّر عنده وكان في علالي له فتمعشوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهب ساعة من الليل ، ثم

(١) صحيح البخاري ج ٥ ص ٢١٠ - ٢١٢ .

(٢) الأغاليق : المفاتيح .

رجعوا إلى بيوتهم ، فلما هدأت الأصوات ولا أسمع حركة قمت إلى الأقاليد^(١) فأخذتها ففتحت الباب .. قال : قلت : إن نذير^(٢) بي القوم انطلقت على مهل .

قال : ثم عمدت إلى أبواب بيوتهم فغلقتها عليهم من ظاهرها وجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل .. قلت : إن القوم نذروا بي لم يخلصوا الي حتى أقتله^(٣) . فانتبهت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت فقلت : يا أبا رافع . قال : من هذا ؟ .

قال : فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دَهِش^(٤) ، فما أغنيت شيئاً (أي لم تصنع به الضربة شيئاً) وصاح . فخرجت من البيت غير بعيد^(٥) .

-
- (١) الأقاليد : المفاتيح أيضاً ، وهي لغة عامة مشهورة في حضرموت .
 (٢) نذر : بفتح أوله وكسر ثانيه - علم - .
 (٣) أنظر كيف لم يتم بمصير حياته بقدر اهتمامه بتنفيذ أمر نبيه صلى الله عليه وسلم .
 (٤) دهش : (بفتح أوله وكسر ثانيه) متحير .
 (٥) قال ابن رمان الدين في كتاب (السيرة الحلبية) ج ٢ ص ٢٨٦ - وهو ينقل رواية البخاري هذه - إن امرأة أبي رافع قالت له : هذا صوت عبد الله بن عتيك ، فقال لها زوجها : ثكلتك أمك وأين عبد الله بن عتيك؟ وهذا يوافق (من حيث الأصل) ما جاء في سيرة ابن هشام وباقي الأمهات ، من أن زوجة أبي رافع قد عرفت صوت قسائد القدائين لأنها نشأت مع زوجها في المدينة ، فليس مستغرباً أن تعرف صوت ابن عتيك بالرغم من أنه كان يتحدث (ساعة مخاطبة أبي رافع) باللغة العبرانية (لغة اليهود الدينية) .

ثم جئت كأني أغيبه ، فقلت : (أي بالعبرية) : ما لك ؟
وغيرت صوتي .

فقال : لامك الويل ، دخل علي رجل فضرمني بالسيف ..
قال : فعمدت له أيضاً فأضربه أخرى فلم تغن شيئاً ، فصاح وقام
أهله .. ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المفيت ، فإذا هو مستلق
على ظهره فأضع السيف في بطنه ، ثم انكفيء عليه حتى سمعت
صوت العظم (بعد أن أخذ السيف في ظهره) فعرفت أنني قتلتها .

قال : فجعلت افتح الأبواب باباً باباً ثم خرجت دهشاً حتى
أتيت السلم أريد أن أنزل ، فأسقط منه فأنخلعت رجلي فعصبتها
ثم أتيت أصحابي أحجل^(١) فقلت : انطلقوا فبشروا رسول
الله ﷺ فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية .

فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال : أنمي أبارافع
تاجر أهل الحجاز^(٢) ، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي
ﷺ فبشرته وحدته ، فقال لي : ابسط رجلك ، فبسطت
رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط^(٣) . وقد علق الإمام ابن

(١) حجل : مشى على رجل واحدة .

(٢) منذ القدم تعد خير ضمن أقاليم الحجاز .

(٣) نقلنا هذا السياق من صحيح البخاري (اختياراً) من روايتين
متشابهتين : الأولى رواها البخاري عن يوسف بن موسى ، والثانية عن أحمد
ابن عثمان ... صحيح البخاري ج ٥ ص ٢١٠ - ٢١٢ طبعة إدارة الطباعة
المنيرية بمصر .

كثير في البداية والنهاية على روايتي البخاري هذه بقوله : « تفرد به البخاري بهذه السياقات من بين أصحاب الكتب الستة » . ثم قال : (أي البخاري) قال الزهري : قال أبي بن كعب : فقدموا على رسول الله ﷺ وهو على المنبر فقال : أفلحت الوجوه ، قال : (أي ابن عتيك) : أفلح وجهك يا رسول الله ، قال : أفتكتموه ؟ قالوا : نعم ، قال : ناولني السيف ، فسله فقال : أجل ، هذا طعامه في ذباب السيف (١) .

ليس هناك تناقضاً :

قد يبدو (لأول وهلة) للقارئ ، أن هناك تناقضاً بين رواية البخاري وبين رواية ابن إسحاق وبقية أصحاب الكتب الستة حول سياق قصة الفدائيين الخمسة .

غير أن الناظر بتأمل وتفحص يجد أن لا تناقض بين الروايتين ، بل يجد أنهما قد اتفقتا حول عناصر القصة الأساسية وأن ما يمكن اعتباره تبايناً بين الروايتين هو تصريح البخاري في روايته بأن قاتل (أبي رافع) هو قائد الفدائيين عبد الله بن عتيك . وقول ابن إسحاق وبقية أصحاب الكتب الستة : أن قاتله هو عبد الله بن أنيس ، لا عبد الله بن عتيك .

وهذا إشكال يمكن حله بالقول : انه يمكن انه حصل

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٣٩ .

التباس من الراوي ، فأملئ أن قاتل الطاحية هو عبد الله من أنيس (كما هو عند ابن إسحاق) بدلاً من اسم عبد الله بن عتيك (كما هو عند البخاري) . لا سيما وأن هناك تشابهاً كبيراً بين الإسمين .

نقول هذا لأننا نرجح رواية الإمام البخاري لا سيما و نهـا جاءت في صحيحه الذي هو أصح كتاب بعد كتاب الله العزيز وأن أسانيد بقية الروايات لا تصل إلى سند رواية البخاري من حيث القوة .

أما ما جاء في صحيح البخاري من أن ابن عتيك قال لـتـبـة رجاله : أبـقـوا مـكـانـكم حـتى أنـظـر ، فليس فيه ما ينفي اشتراكهم معه في العملية ، إذ يحتمل أنه بعد أن نظر وقام بالاستكشاف رجع وأخذهم معه كقائد مسؤول ، وأنه كان يتحدث بلسان القائد الذي ينسب إليه فعل كل شيء حتى وإن لم يكن هو الذي فعل كل شيء .. كما أن عدم ذكر دور بقية الفدائيين في رواية البخاري لا ينفي اشتراكهم ، إذ يحتمل أن يكونوا ملأوا كالحرس يحمون ظهر قائدهم حتى قام بالقضاء على أبي رافع .. أما قول ابن عتيك (في رواية البخاري) ثم أتيت أصحابي أحجل الخ . فلا ينفي أيضاً اشتراكهم مع قائدهم في العملية إذ لا يستبعد أن يكونوا قد سبقوه فخرجوا قبله وتأخر هو بسبب ما حدث له من كسر في رجله ، ولأن القائد عند الانسحاب عادة يكون آخر من ينسحب . بهذا يتضح أنه

لا تناقض ولا تباين يذكر بين الروايتين ، كما قد يتسرب إلى بعض الأذهان .

المطاردة :

وبعد أن نجح الفدائيون في القضاء على (سلام بن أبي الحقيق) وعرف يهود خيبر حقيقة الخبر تأكد لهم أن فدائيين من المسلمين هم الذين قضوا عليه . لا سيما بعد تصريح زوجته أنها سمعت صوت عبد الله بن عتيك .

وقد جد اليهود في مطاردة الفدائيين بغية قتلهم أو اعتقالهم فانتشر منهم ثلاثة آلاف يفتشون عن الفدائيين قبل طلوع الفجر ولكن دون جدوى ، فبالرغم من أن اليهود كانوا سريعين جداً في القيام بعمليات التفتيش ، وبالرغم من أن قوات اليهود كانت تقوم بهذا التفتيش ، والفدائيين لما يزالوا داخل خيبر ، إلا أن هذه القوات عجزت عن أن تعثر على واحد منهم .

قال ابن سعد - يصف مطاردة اليهود للفدائيين الخمسة - :
وصاحت امرأته فتصايح أهل الدار واختبأ القوم في بعض مناهر خيبر . . وخرج الحارث أبو زينب ^(١) في ثلاثة آلاف في آفأهم يطلبونهم بالنيران (أي بالمشاعل في ظلام الليل) فلم يروهم ، فرجعوا ومكث القوم (أي الفدائيون) في مكانهم

(١) الحارث أبو زينب هذا فارس يهود شجاع مشهور، كان أحد الفرسان الذين قتلوا مبارزة أمام حصن مرحب. أنظر كتابنا السادس (غزوة خيبر) .

يومين حتى سكن الطلب ثم خرجوا مقللين إلى المدينة (١) .

- ١٩ -

مقتل ملك اليهود الثاني في خيبر .. أسيد بن زارم
شوال سنة ست للهجرة

وبعد أن لقي ملك خيبر الثاني (أبو رافع) مصرعه على أيدي الفدائيين في شهر رمضان من السنة السادسة للهجرة .. قامت يهود بتنصيب (أسير بن زارم) ملكاً على خيبر خلفاً لأبي رافع .

فجدد أسير ، كسلفه أبي رافع في مواصلة السعي لشين حملة أحزاب جديدة على المسلمين في المدينة .

فلدى تنصيبه جمع سادات اليهود في خيبر وأبلغهم بأن لديه خطة لغزو المسلمين ، لم يسبقه إليها أحد من ملوك خيبر .

فقد قال لزعماء اليهود في خيبر : إني صانع بمحمد ما لم يصنعه أصحابي .

فقالوا له : وما عسيت أن تصنع ؟

قال : أسير في غطفان فأجمعهم بنفسي لحربه .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٩١ .

فوافقوه قائلين : نعم ما رأيت (١) .

وفعلًا ، غادر (أسير بن زارم) خيبر لتنفيذ خطته العدوانية ضد المسلمين ، فذهب إلى مناطق القبائل النجدية (غطفان وغيرها من القبائل المحيطة بالمدينة) وصار يتنقل بين مضارب البدو ، ونجيات العشائر الوثنية يحرضها على حرب رسول الله ﷺ ويجمعها لغزو المدينة .

وكان كسلفه (حبي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق) يستخدم المال لرشوة زعماء العشائر الوثنية ليحشدوا له أكبر عدد ممكن من الرجال لحرب النبي ﷺ . . تمامًا كما فعل حبي بن أخطب وباقي زعماء خيبر عندما سعوا بين أعراب نجد وعشائر الحجاز فجمعوا تلك الجيوش الجرارة التي جاءوا يقودونها في شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة فاندحروا ذلك الاندحار الشنيع كما هو مفصل في كتابنا (غزوة الأحزاب) ، وهو الكتاب الثالث من سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) .

الاستخبارات النبوية في خيبر :

ولم تكن المدينة غافلة عن التحركات المشبوهة التي يقوم بها اليهود في خيبر ضد المسلمين فقد جعلتهم أعمال الخيانة التي قام بها اليهود في غزوة الأحزاب على حذر دائم وتنبه مستمر لكل

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٠٦ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٦٦ .

حربة أو سكنة تقوم بها الزعامة اليهودية في منطقة خيبر .
ولذلك فقد تبليغ النبي ﷺ من عيونهم على اليهود نبأ
المشروع العدواني الذي أخذ أسير بن زارم (ملك خيبر الجديد)
في الإعداد لتنفيذه ضد المسلمين .

وكان هذا كافياً لقيام النبي ﷺ بقتل هذا اليهودي المتآمر
الخطير .. إلا أن النبي القائد ﷺ أحب التأكد من هذه
الأنباء قبل الإقدام على أي عمل كما هي عادته ﷺ في تحري
الأمور وعدم التسرع في تصديق كل ما يصل إلى أذنه من أخبار.

عبدالله بن رواحة في خيبر :

فاستدعى ثلاثة من أصحابه على رأسهم عبدالله بن رواحة^(١)
أمره ﷺ بأن يذهب مع صاحبيه إلى خيبر للتحري عن الذي
بلغه من اعتزام (أسير بن زارم) تحشيد الأعراب وقيادتهم
لغزو النبي ﷺ ومحاربته في المدينة .

فصدع عبدالله بن رواحة بالأمر وانطلق مع صاحبيه حتى
دخلوا خيبر متنكرين ، وبعد التحري والبحث وجدوا أن
الخبير كان صحيحاً كما بلغ النبي ﷺ .

وهنا رأى النبي ﷺ أنه لا بد من القيام بعمل حاسم لدره

(١) أنظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

خطر هذا اليهودي الشرير ، لئلا تتعرض المدينة لغزوة أحزاب أخرى قد يصعب على المسلمين النجاة من أهوالها .

لذلك استدعى ثلاثين من أصحابه وأعطى قيادتهم لعبدالله ابن رواحة ، وأمره بأن يتوجه برجاله إلى خيبر ، وأن يتصل أولاً (بأسير بن زارم) ويحاول بالطرق السلمية إقناعه بالتخلي عن فكرة الحشد ومحاربة المسلمين وأن يجنح للسلم والتفاوض مع النبي ﷺ .

ففي أوائل شهر شوال من تلك السنة تحرك عبدالله بن رواحة في ثلاثين راكباً نحو خيبر وحتى إذا ما وصلوا مشارفها بعث الأمير عبدالله بن رواحة إلى ملكها (أسير) بضم أوله وفتح ثانيه : بأنه يرغب في مفاوضته ويطلب منه الأمان والسماح له ولرجالها بدخول خيبر قائلاً : (نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟) فوافق (أسير) على طلبهم قائلاً : نعم ، ولي منكم مثل ذلك ، فقالوا : نعم^(١) .

وبعد أن وثق كل من الفريقين بأمان الآخر ، دخل عبدالله ابن رواحة برجاله مدينة خيبر ولدى اجتماعه بملكها (أسير بن زارم) أبلغه بأنه يحمل إليه رسالة شفوية من النبي ﷺ .

وكانت الرسالة تتضمن دعوة ملك اليهود (أسير) للذهاب إلى المدينة ليقابل النبي ﷺ بنفسه لينهوا حالة الحرب القائمة

(١) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٩٢ .

بين الفريقين على أن يبقى النبي ﷺ أميراً على خيبر .. حيث قال له ابن رواحة : يا أسير إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك ^(١) .

خروج ملك خيبر الى المدينة :

ولدى عرض هذه الدعوة على ملك خيبر طلب من المبعوث النبوي إعطاءه مهلة للتشاور مع بقية زعماء خيبر .

ولدى اجتماع (أسير) ببقية الزعماء اليهود أخبرهم بفحوى الدعوة النبوية له إلى المدينة ، وطلب استشارتهم ، فأشاروا عليه بأن لا يجيب هذه الدعوة وأن لا يذهب إلى المدينة قائلين : ما كان محمد ليستعمل رجلاً من بني إسرائيل .

ولكن (أسيراً) خالفهم في رأيهم وقرر الذهاب إلى المدينة لمقابلة النبي ﷺ كما دعاه قائلاً : بلى لقد ملّ (محمد) الحرب .

ولما كان أسير بن زارم ملكاً ، فلم يعترض باقي زعماء خيبر على قراره ، فخرج في ثلاثين من خلصاء أصحابه بصحبة عبدالله بن رواحة وقومه .

وقد أردف كل رجل من أصحاب عبدالله بن رواحة رجلاً من أصحاب (أسير بن زارم) وكان سيد خيبر (أسير) رديف

(١) أنظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦١٨ والخلبية ج ٢ ص ٣٠٦ .

عبد الله بن أنيس^(١) . وكان أسير بن زارم رجلاً شجاعاً^(٢) .

كيف قتل ملك خيبر :

نقد كان عبد الله بن رواحة وأصحابه أمناء في أداء رسالة النبي ﷺ إلى ملك خيبر (أسير بن زارم) وصادقين فيما أعطوا من عهد بالأمان الملك خيبر وأصحابه ، ولم تراودهم أية فكرة عن قتل هؤلاء اليهود أثناء الطريق ، لأن الغدر جريمة كبرى حرّمها الإسلام وخاصة بمن أعطى عهداً وأماناً .

حاولوا الغدر بقتلوا :

غير أن طبيعة الغدر المتأصلة في اليهود جعلت عبد الله بن رواحة وأصحابه يكونون على حذر دائم من غدريهم . ولهذا جعل كل رجل من أصحاب ابن رواحة رجلاً من أصحاب ابن (زارم) رديفاً خلفه .

وبينما كانوا سائرين في اتجاه المدينة حاول اليهود الغدر بالمسلمين ، فقد أهوى أسير بن زارم بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس ليقتله ، إلا أنه كان أسرع منه إذ فطن لذلك ، فانتزع السيف من يده وقتله ، ثم دارت معركة بين بقية الركب تمكن فيها المسلمون من القضاء على ابن زارم وجماعته ما عدا رجلاً واحداً تمكن من الفرار .

(١) أنظر ترجمة عبد الله بن أنيس في كتابنا (غزوة أحد) .

(٢) مغاوي الواقدي ج ٢ ص ٥٦٦ .

الفصل الثاني

- رسوخ جذور الإسلام في جزيرة العرب .
- قوة المسلمين وقدرتها على الصمود والردع .
- النبي يستنفر أصحابه لزيارة الكعبة بعد حرمان دام ست سنوات .
- استجابة المؤمنين للنبي.. وتحاذل المنافقين والأعراب عنه.
- الخطر المهدق بالرحلة .
- النبي يبلغ قريشاً (رسماً) أن خروجهم ليس للحرب وإنما للعمرة .
- قريش تفضب وتقرر صد المسلمين عن البيت بقوة السلاح .
- ثمانية آلاف مقاتل تخرج من مكة لاعتراض المسلمين ومنعهم من دخول الحرم .
- النبي ﷺ : يعلن أسفه لانتحاذ قريش قرارها الفاشم .
- خالد بن الوليد يسد الطريق على المسلمين بفرسانه .

- النبي يغيّر اتجاه سيره نحو الحديبية لئلا يصطدم بفرسان خيالة .
- النبي يعسكر في الحديبية (خارج الحرم) في انتظار فرصة يتحقق فيها السلام .
- إعلان الرسول ﷺ استعدادة لقبول أية خطة تعرضها قريش فيها صون للحرم عن سفك الدم .
- قريش ترفض ثلاثة عروض عرضها النبي وهو في الحديبية .
- أربعة وسطاء يفشلون في حل الازمة المعقدة .
- الانشقاق الخطير في معسكر قريش .
- سيد الاحابيش ، حليف قريش الأكبر ينتقد موقفها ويهدد بإلغاء الحلف إن لم تسمح للمسلمين بزيارة البيت .
- عروة بن مسعود الثقفي يترك معسكر حلفائه القرشيين احتجاجاً على صدمتهم المسلمين .

* * *

لقد ظل النبي ﷺ يدعو قومه في مكة (بالطرق السلمية) طيلة ثلاث عشرة سنة ، لقي فيها وأصحابه من قريش شتى أنواع المضايقة والإرهاب والتنكيل الى درجة بلغ فيها الطفيان بقريش إلى تعذيب المستضعفين تعذيباً وحشياً ، فقد البعض منهم أرواحهم تحت وطأته الشديدة ، لا شيء إلا أنهم اختاروا على

دين الوثنية دين التوحيد فاتبعوه واتبعوا حامل لواء دعوته .

بل لقد لجت قريش في بغيتها وعدوانها حتى بلغ بها العناد والطفيان إلى أن دبّرت مؤامرة دنيئة تستهدف حياة النبي الأعظم ﷺ ، وذلك في أواخر السنة الثالثة عشرة من بدء حمل النبي ﷺ لواء الدعوة إلى التوحيد ، فاتفق ساداتها ولواب عشائرها (بالإجماع) في برلمانهم الوثني بمكة (دار الندوة) على قتل النبي ﷺ اعتقاداً منهم أن دعوة التوحيد التي رسخت جذورها في نفوس المؤمنين بها داخل مكة وخارجها ستموت بموته .

إلا أن الله سبحانه وتعالى نجّى رسوله من شرّ هذه المؤامرة الخطيرة فتمكن (هو وصاحبه الصديق الأكبر) من مغادرة مكة في الليلة التي اتفق فيها المشركون على تنفيذ المؤامرة (١) .
كما غادر مكة (قبله وبعده) الأغلبية الساحقة من الأصحاب الذين آمنوا بدعوته واجتمع شمل الجميع هناك في دار الهجرة (المدينة المنورة) .

وما كانت قريش ترغب في أن يفساد النبي ﷺ مكة إلى المدينة ، بل إنها لتخشى ذلك أشدّ الخشية ، لذلك قررت في برلمانها قتله ﷺ . لأن وصوله إلى المدينة سالماً معناه بناء أمة

(١) أنظر تفاصيل هذه المؤامرة وقصة الهجرة الشيقة في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) الطبعة الرابعة .

جديدة هناك قد يقودها هذا الذي تمكّن من الإفلات من سيوف
الشرك للإطاحة بالكيان الوثني داخل مكة مقر كرسي كهنوت
الوثنية الرئيسي .

ولكن ما حيلة قريش ، فقد وقع الذي نخشاه ، حيث وصل
النبي ﷺ إلى المدينة سالماً فاستقبل أعظم استقبال عرفته المدينة
في تاريخها .

حروب فاشلة :

لم تم قريش ولم تستكن بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى
المدينة ، لا سيما بعد أن أصبحت المدينة الحاضرة الأولى لدولة
إسلامية انضوى تحت لواءها الأغلبية الساحقة من سكان يثرب .

لقد ظلت الرغبة الشريرة المتأججة في نفوس مشركي مكة
تضغط عليهم بشكل عنيف (هو أقرب إلى الجنون) ليسيروا
في طريق بغيهم وعدوانهم على المسلمين وظلمهم لهم .

وأول قرار غاشم ظالم اتخذته برلمان مكة (دار الندوة) هو
ذلك القرار الذي أعلنوا فيه أنهم يعتبرون المسلمين أعداء
محاربين يجب قتلهم أينما وجدوا .

كما اتخذ المشركون قراراً غاشماً آخر يقضي بمنع المسلمين
(دون سائر العرب) من دخول الحرم .

ونتيجة تنفيذ هذا القرار ، ظل المسلمون في المدينة (طيلة

ست سنوات) محرومين من دخول الحرم ممنوعين من الطواف بالبيت الذي يتحرقون شوقاً إلى زيارته .

ولم تكتف قريش بذلك ، بل رغبة منها في هدم الإسلام وحو آثاره من الوجود سلكت كل سبيل تقدر على سلوكه لقتل النبي ﷺ وهو في المدينة .. فدبرت عدة مؤامرات لاغتياله ، ولكن هذه المؤامرات كلها فشلت كما هو مفصل في غير هذا المكان من هذا الكتاب ومن كتبنا الأربعة السابقة له ضمن سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) .

الحرب الشاملة :

بل لقد أُلح الحقد الوثني المتأجج في نفوس مشركي مكة .. أُلح هذا الحقد العارم عليها للقيام بجروب شاملة وغزوات منظمة لمخمد شوكة المسلمين وقطع تيار دعوة التوحيد إلى الأبد .

فقامت بعدة حملات عسكرية قوية ضد المسلمين ، وصلت ببعضها إلى أسوار المدينة (حاضرة الإسلام الأولى) التي كادت تسقط (فعلاً) في أيدي المشركين .

ولعل أعظم هذه الحملات العسكرية العدوانية وأخطرها ، هي الحملات المشهورة الثلاث :

١ - حملة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة .

٢ - حملة أحد .. في السنة الثالثة من الهجرة .

٣ - حملة الأحزاب .. في السنة الرابعة من الهجرة .

غير أن قريشاً (بالرغم من تفوقها الساحق في كل شيء مادي) فشلت في كل حملاتها العسكرية الكبرى الثلاث .

ففي الأولى (وهي حملة بدر الكبرى) أنزل المعسكر الإسلامي (ولأول مرة في التاريخ) أشنع هزيمة تمرغت فيها سمعة قريش العسكرية في الوحل حينما جاءت (باغية ظالمة معتدية) تقصد خضد شوكة المسلمين .. فقتل في هذه المعركة سبعون من ساداتها وقاداتها ، ووقع في أسر المسلمين سبعون مثلهم وفرّ الباقيون منهزمين شتتتهم الهزيمة في وهاد ووديان تهامة كما تشتت العاصفة الورق اليابس .

أما الحملة العسكرية الثانية وهي (غزوة أحد) التي نقلت بها قريش المعركة إلى ضواحي حاضرة الإسلام (المدينة) ، فقد فشل القائمون بها في تحقيق شيء من أهدافهم الرئيسية التي من أجل تحقيقها شتّوا هذا العدوان ، بالرغم من الإعداد الكامل والتعضير المنظم الذي سبق هذه الحملة التاريخية .

فقد عادت قريش من هذه المعركة وكل مكسبها سبعون قتيلًا من المسلمين استشهدوا في هذه المعركة مقابل ستة وعشرين قتلوا من الجانب القرشي .

أما الحملة الثالثة وهي غزوة الأحزاب (والتي تعتبر أعظم غزو يتعرض لها المسلمون في تاريخهم أثناء العهد النبوي) ، فقد

كانت آخر سهم في كنانة آمال قريش ، يتعظم على صخرة المقاومة الإسلامية الصلبة .

إذ كانت هذه الحملة العظيمة آخر حملة عسكرية تشنها قريش على المسلمين في تاريخها . فقد اندحرت وأحلافها النجديون في هذه الحملة إندحاراً مهيناً قاضحاً ، بعد حصار دام على المدينة شهراً كاملاً .

إذ عادت قريش وأحلافها من هذه الغزوة دون أن يحققوا أي شيء من الأهداف التي حشدوا لها تلك الحشود الهائلة ، اللهم إلا إيقاع يهود بني قريظة وتعريضهم للإبادة على أيدي المسلمين بعد أن أغوام قادة الأحزاب بالقدر بالمسلمين ونقض العهد الذي بينهم^(١) .

رسوخ جذور الاسلام :

لقد كانت قريش تهدف من وراء تجريد تلك الحملات العسكرية الكبرى (وخاصة حملة الأحزاب) نحو كيان المسلمين واقتلاع جذور الإسلام نهائياً .

ولكن المكس هو الذي حدث (وخاصة بعد اندحار قريش وأحلافها في غزوة الأحزاب) .

(١) أنظر أوسع التفاصيل عن هذه الحملات العسكرية التاريخية الثلاث في مكتبنا (غزوة بدر الكبرى) و (غزوة أحد) و (غزوة الأحزاب) و (غزوة بني قريظة) .

لبعد هذا الإندحار الشنيع الذي انكسر به العمود الفقري
للأمال القرشية العريضة ، ازدادت قواعد الدولة الإسلامية
صلابة وقوة ، وأخذ الإسلام يضرب يجذوره وينشر ظلالة في
الجزيرة بسرعة هائلة وبشكل لم يسبق له مثيل .

وأصبح المسلمون (بعد فشل الأحزاب في غزوهم وبعد
إنزال الضربة الصاعقة بخونة يهود بني قريظة) قوة ضاربة
مخشاهما كل أعداء الإسلام ولا تخشى أحداً ، وخاصة العناصر
العربية الوثنية .

يهود خيبر فقط :

والقوة الوحيدة التي ظل المسلمون يحسبون لها حساباً هي
قوة اليهود الموجودين في منطقة خيبر ، الواقعة إلى الشمال الشرقي
من المدينة ، وعلى بعد حوالي ثمانين ميلاً منها .

فقد كان في خيبر حوالي عشرة آلاف مقاتل من اليهود
يتربصون بالمسلمين الدوائر ويحاولون بكل الوسائل (وفي جهد
مضني الإطاحة بهم) .

إلا أن المسلمين (قبل الحديدية) ألقوا عليهم دروساً
أشعرتهم بأن المسلمين أصبحوا قوة لا تقهر ، وخاصة بعد أن
تمكن الفدائيون من هؤلاء المسلمين من قتل ملكين من ملوك
خيبر الواحد بعد الآخر ، داخل منطقة خيبر نفسها ، وهما :
(أبو رافع سلام بن أبي الحقيق) و (أسيد بن زارم) . وقد

تقدم تفصيل الطريقة التي بها تم القضاء على هذين الملكين الذين يتمكن الفدائيين المسلمين من القضاء عليهما انهارت معنويات اليهود وانخفضت نسبة اعتزازهم بأنفسهم واعتدادهم بقوتهم التي هي بالفعل قوة ضاربة إذا ما قورنت بقوة المسلمين من ناحية العدد ، حيث ان قوة المسلمين في المدينة لا تزيد على ألفي مقاتل على أكثر تقدير .. بينما قوة اليهود في خيبر هي لا تقل عن عشرة آلاف مقاتل على أقل تقدير .

ومع ذلك فقد خالط الخوف نفوسهم واستولى الرعب على قلوبهم بعد مصرع ملكيهم على أيدي الفدائيين داخل خيبر ، وتلاشت من أذهانهم فكرة غزو المدينة التي كانت تراود أحلامهم .. وأصبحوا فقط محصوراً مهمهم في الدفاع عن أنفسهم داخل حصونهم ومعقلهم التي لم يعد لديهم أدنى شك في أن المسلمين سيشتنون الفارة لاحتلالها وإنهاء الوجود اليهودي عند موااة الظروف وتهيؤ الفرص .

الخروج للعمرة :

ويظهر أن المسلمين أدركوا ما عليه اليهود من خوف ورعب منهم ، وأنهم لذلك أصبحوا في حالة من الإنهيار المعنوي ، بحيث يستعجل عليهم التحرك من خيبر لغزو المدينة حتى ولو غادرها أكثر المخاربين المسلمين إلى أية جهة أرادوا .

ولذلك وبعد أن أصبح المسلمون في ذلك المركز العسكري

الممتاز وأصبحوا قوة فرضت هيبتها على كل منطقة يثرب وكل المناطق المجاورة لها بعد الإنتصارات الساحقة التي سجلتها على قوات الأحزاب الضاربة ، وعلى خونة يهود بني قريظة بتلك التصفية الدموية العادلة الحاسمة ، وبعد أن بثت الرعب وأشاعت الخوف بين عناصر يهود خيبر .. قرروا (على ما في ذلك من تحدٍّ لمعسكر الشرك الحائق في مكة) أن يقوموا بزيارة البيت الحرام .. مطلب ظللوا عاجزين عن تحقيقه طيلة خمس سنوات كاملة لبطر وتعنتت المشركين في مكة الذين كانت لهم الصولة والدولة طيلة هذه المدة .

لقد كان العرف المتبع والقانون السائد — غير المكتوب — بين العرب منذ آلاف السنين أن زيارة البيت العتيق والطواف به حق مشاع لجميع العرب مهما تباينت آراؤهم واختلفت مذاهبهم في العبادة .. لا يجوز لقريش سادنة البيت والمسؤولة عن الأمن في الحرم أن تحول بين أي إنسان وبين دخول الحرم لزيارة البيت وباقي المشاعر التي درج العرب على زيارتها منذ عهد الخليل ابراهيم عليه السلام .

ولكن قريشاً (وهي الحاكمة بأمرها في مكة) بلغ بها البغي والشطط إلى منع المسلمين (خاصة) من زيارة البيت وباقي المشاعر ، وهدر دماهم وإباحة سفكها حتى ولو وجدوا مهلتين ملتبين داخل الحرم .

لقد صبر المسلمون وامتنعوا عن الذهاب إلى مكة طيلة هذه

الخمس السنوات ، والسبب في ذلك أنهم كانوا (من الناحية العسكرية) في مركز لا يمكنهم من مباشرة حقهم الشرعي من الطواف بالبيت واقتحام مكة عنوة لمباشرة هذا الحق المشروع إذا ما حاولت قريش منعهم من مباشرته بالقوة .

أما وقد أصبحوا قوة لها وزنها قادرة على مباشرة هذا الحق ولو عن طريق اقتحام مكة عنوة ، فلا بد لهم من التوجه إلى مكة لأداة نسك العمرة الذي حُرِّموا منه (بغيًا وعدوانًا) طيلة خمس سنوات كاملة .

لذلك أعلن النبي ﷺ في الحاضرة والبادية أنه قرر التوجه إلى مكة ، وأعلن صراحة أنه لا يريد دخول مكة غازياً وإنما معتمراً مسالماً .. وأرسل إلى قريش من يبلغها ذلك لتلاظن أنه جاء محارباً .

الاستعداد للطوارئ :

ولكنه ﷺ مع نواياه السلمية وتجربته الكامل في هذه الرحلة للنسك ، أدخل في حسابه أن قريشاً قد تحاربه وتصدّه عن البيت بقوة السلاح ، فقرر أن يحتاط لهذا الاحتمال الذي لا يستبعد حدوثه . والذي أقدمت عليه قريش الشرك بالفعل .

فقد استنفر المسلمين حاضرة وبادية ليصاحبوه في هذه الرحلة التي هي دونما شك رحلة محفوفة بالأخطار .. لأنه لم يكن بينه وبين قريش (عدوه الرئيسي) أيّ عهد أو صلح ، بل كانت الحالة بين الفريقين حالة حرب مُعلنة .

تثبيت المنافقين :

وبالرغم من كثرة المنتسبين إلى الإسلام في الحاضرة والبادية في تلك الفترة ، فإنه لم يستجب لدعوة الاستنفار هذه إلا الخلاء المؤمنون الصادقون من أصحابه عليه السلام .

أما المنافقون من أهل المدينة ، وضعاف الايمان من الأعراب الذين أسلموا ولما يدخل الايمان في قلوبهم ، فقد تخاذلوا وقرروا عدم مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة التاريخية . لأنه رسخ في نفوسهم المريضة أن مشركي مكة سيعولون دون دخول النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه مكة بالقوة .

و معنى ذلك أن المسلمين ونبههم سيضطرون لخوض حرب ضروس بعيدين عن بلادهم . فهي إذن رحلة محفوفة بالاعطار الجسام ، والمنافقون ليس لديهم أي رصيد من الايمان يجعلهم يستهينون بهذه الاعطار في سبيل مرضاة الله .

لذلك تناقلوا وتخلفوا عن ركب الايمان متعللين بشق الاعداد الكاذبة من ذلك أن انشغالهم بأهليهم وأموالهم ، لا يسمح لهم بمصاحبة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة .

بينما الباعث الحقيقي لهذه الانهزامية والتناقل هو ما رسخ في نفوسهم الضعيفة ، فمن أن المسلمين سيخوضون حرباً ضروساً مع قريش ، وأنهم قد لا يعودون سالمين إلى المدينة ، هكذا ظنوا . بل هكذا كانوا يتهامون فيما بينهم ، قائلين : (أذهب إلى قوم

قد غزوه في 'عقر' داره بالمدينة وقتلوا أصحابه^(١)، ولكنهم تظاهروا بأنهم مشغولون بأهلهم وأموالهم واعتدروا بذلك .

القرآن يفضحهم :

غير أن ضعاف النفوس هؤلاء، قد فضحهم القرآن الكريم فيما بعد، وكشف لنبيه ولكل الناس حقيقة أمرهم فقال تعالى: ﴿سيقول لك المخلتفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا، فاستغفر لنا (أي عندما تطوف بالبيت) يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرأً ، أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾^(٢) .

وقال تعالى كاشفاً ما يعتقده هؤلاء المنافقون من أن المسلمين سيبادون في رحلتهم هذه عن بكرة أبيهم على أيدي قريش : ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾^(٣) .

الصفوة المختارة :

غير أن هذه الانهزامية التي قعدت بالمنافقين وجعلتهم يشبّهون عرائم ضعاف النفوس ليبتعنوا عن مرافقة النبي الأعظم

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) سورة الفتح ١١ .

(٣) سورة الفتح ١٢ .

ﷺ في هذه الرحلة السلمية التاريخية .. هذه الانهزامية لم يكن لها أي أثر على عزائم الصفوة المختارة من أصحاب محمد ﷺ الذين لم يكادوا يسمعون صوت الاستنفار الذي وجهه النبي ﷺ للانضمام إلى ركبته المبارك للتوجه إلى مكة حتى تسابقوا فرحين مستبشرين ملتبين نداء نبيهم العظيم ، مستهينين بما يهوله المنافقون من أخطار جسام قد تحف (من جانب قريش) بهذه الرحلة التي تحمل كل معاني التحدي لقريش وكبرياتها الوثني .

لأن هذه الصفوة المختارة واثقة كل الثقة من أن سعادتها في الدنيا وفلاحها في الآخرة إنما هو في طاعة أوامر نبيها الذي لا يمكن أن يدعوها إلا إلى خير .

فقد التف حول النبي ﷺ ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار تهيئوا معه للخروج إلى مكة .

وبعد أن تجهزوا للسفر خرج بهم ﷺ من المدينة في اتجاه مكة وكان بينهم مائتا فارس . وعندما وصل ذا الحليفة ^(١) (في ضواحي المدينة) أحرم بالعمرة وأعلن ذلك ليعلم الناس جميعاً أنه لم يخرج للحرب وإنما خرج لزيارة البيت وأداء مناسك العمرة .. وقد أحرم معه عامة أصحابه رضي الله عنهم

(١) ذو الحليفة (بضم الحاء) إحدى ضواحي المدينة ، تقع على بعد حوالي عشرة أميال منها ، وتسمى ذو الحليفة اليوم : بأبيار علي .

أمير على المدينة :

وكما هي عادته (عندما يمتزم الغياب عن المدينة في غزو أو غيره) أصدر مرسوماً عيّن بموجبه نُميلة بن عبدالله الليثي^(١) محافظاً على المدينة يصرف أمورها نيابة عنه حتى عودته ، كما عيّن ابن أم مكتوم^(٢) على الصلاة يؤم المسلمين نيابة عنه حتى يعود .

حمل السلاح :

وفي ذي الحليفة أشار عمر بن الخطاب وسعد بن عباد على رسول الله ﷺ أن يسلّح أصحابه التسليح الكامل ، استعداداً للطوارئ ، لأنه لا يستبعد أن تشن قريش الحرب على المسلمين . وما يمنعا من ذلك - إذا ما قدرت عليه ؟ - أليست في حالة حرب معهم ؟

فقد قال ابن الخطاب : تدخل على قوم هم لك حرب ، بغير

(١) هو نُميلة بن عبدالله بن فقيم الليثي ، من قبيلة كلب اليمنية الواقعة دياره - أ في شمال شرقي الجزيرة .. صحابي شجاع ، شهد نُميلة فتح مكة ، وكان ضمن فرقة خالد بن الوليد عند دخول مكة ، ونُميلة هو الذي قتل مقبس ابن صابة الذي كان ضمن من أهدو النبي صلى الله عليه وسلم دمهم فأمر بقتلهم حتى ولو تعلقوا بأستار الكعبة .. استعمل النبي صلى الله عليه وسلم نُميلة والياً على خيبر بعد فتحها .

(٢) انظر ترجمة ابن أم مكتوم في كتابنا (غزوة أحد) .

سلاح ولا كراع ؟ فعمل النبي ﷺ بنصيحة عمر ، فبعث إلى المدينة ، فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حمله .

علامات النسك لا الحرب :

وساق معه ﷺ سبعين بدنة ^(١) هدياً أشعرها ^(٢) وقلدها ليعلم الناس أنها هدي فيكفثوا .

شاري بدن رسول الله :

وعندما قرر النبي ﷺ القيام بالعمرة طلب من 'بشر بن سفيان الكعبي ثم الحزاعي' ^(٣) أن يشتري له 'بدناً' لتكون هدية إلى الكعبة في عمرته حيث قال لبسر (الذي كان قدم مسلماً

(١) البدنة - بفتح أوله وثانيه - : من الابل والبقر كالأضحية تهدي إلى مكة . قاله في القاموس المحيط .

(٢) أشعرها : أي أعلها . قال في النهاية في غريب الحديث : أشعار البدن هو أن يشق أحد جنبي شاة البدنة حتى يسيل دمه . ويجعل ذلك علامة تعرف بها أنها هدي .

(٣) هو بسر (بضم أوله وسكون ثانيه) ابن سفيان بن عمرو بن هوير الحزاعي ، من سادات خزاعة وزعمائها يضاهي بديل بن ورقاء في زعامته ، قال ابن عبد البر أسلم سنة ست . وبسر هذا هو الذي لقي النبي صلى الله عليه وسلم بلذي طوى بالقرب من مكة (على ما ذكره ابن اسحاق) وقال له : يا رسول الله هذه قریش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العمود الطافيل قد لبسوا جلود النمرود ، وقد نزلوا بلذي طوى ، يماهدون الله أن لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم .

عليه) : يا بسر لا تبرح حتى تخرج معنا ، فلما إن شاء الله
معتصرون ، فأقام بسر في المدينة . ثم أمره النبي ﷺ أن يبتاع
له بُدناً . فذهب إلى البادية وأخذ يبتاع البدن ويبعث بها إلى
ذي الجدر ليرعى هناك ، وكانت ذو الجدر من مسارج المدينة
التي ترعاها اللقاح .

وعندما أكمل بسر بن سفيان شراء البدن التي بلغت سبعين
بدنة حضر بها إلى المدينة ، وذلك بمسد أن تها النبي ﷺ
وأصحابه للخروج منها معتصرين .

ناجية بن جندب على الهدي :

وعندما تها النبي ﷺ للخروج من المدينة استعمل على هديه ناجية
ابن جندب الأسلمي وأمره أن يقدمها إلى ذي الحليفة .
وخرج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة وهم لا يشكثون في
الفتح للرؤيا التي رأى النبي ﷺ .

هدي الموسرين من الصحابة :

وساق المسرون من الصحابة (أبو بكر وعبد الرحمن بن
عوف وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن عباد)
معه هدياً خاصاً بهم .

تاريخ الخروج للعمرة :

وكان خروج النبي ﷺ من المدينة يوم الاثنين لـهلال ذي

القعدة سنة سبع من الهجرة ، وكان ﷺ قد اغتسل في بيته بالمدينة ولبس ثوبين من نسج صحار وركب راحلته القَصْواء من عند بابه ، وما زال يسير بالمسلمين حتى وصل بهم (ذي الحليفة) وهناك توقف وصلى بهم الظهر ، ثم دعا بالبُدن فجاءت ثم أشعر بنفسه منها عدة وهن موجهاً إلى القبلة ، وكان بين البدن جمل أبي جهل بن هشام ، وكان من الجمال المهرية الأصلية المشهورة ، غنمه النبي ﷺ ببدر ، فساقه مع الهدى إغاطة للمشركين .

الاحرام بالعمرة :

ومن ذي الحليفة أحرم النبي ﷺ بالعمرة ، حيث دعا براحلته فركبها من باب المسجد ، فلما انبعثت به مستقبلة القبلة أحرم ولبى بأربع كلمات : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . وأحرم عامة المسلمين بإحرامه ، ومنهم من لم يحرم إلا من الجحفة — بالقرب من رابغ — .

النساء المعتمرات :

وخرج مع النبي ﷺ في هذه العمرة أربع نساء ، واحدة من نسائه وهي أم سلمة ^(١) وثلاث أنصاريات وهن : أم عمارة وأم منيع وأم عامر .

(١) أنظر ترجمة أم سلمة في كتابنا (غزوة الأحزاب) .

والمنافقون أيضاً :

كما صاحبه في هذه الرحلة التاريخية أيضاً إثنان من كبار المنافقين وهما عبد الله بن أبي بن سلول^(١) والجد بن قيس^(٢) ، وذلك بالرغم من أن أكثريّة المنافقين لم يخرجوا ، ولا شك أن ابن أبي والجد بن قيس لم يخرجوا بدافع الإيمان ، وإنما لدوافع قد يكون منها محاولة إثارة الفتنة والتشكيك بين المسلمين في هذه الرحلة إن أمكنهم ذلك ، كما حدث وأن خرجوا في غزوة بني المصطلق ، وأثاروا نيران تلك الفتنة اللاهبة التي كادت تشعل نيران حرب أهلية لا تبقي ولا تذر^(٣) .

ملاحق للاستكشاف ورجل الاستخبارات :

ومع أن النبي ﷺ أعلن بكل صراحة ووضوح أنه لا يريد

(١) أنظر ترجمة عبد الله بن أبي في كتابنا (غزوة بدر الكبرى ط ٤) .
 (٢) هو الجد بن قيس بن صخر بن خنساء الأنصاري .. اختلف في أمره كان الجد بن قيس سيد بني سلمة (الحزرج) قال في الإصابة : يقال : إن الجد بن قيس هذا منافقاً ، روى أبو نعيم وابن مردويه عن ابن عباس أنه نزل فيه قوله تعالى : (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني) ومن حديث جابر بسند فيه مبهمة أن الجد بن قيس تخلف يوم الحديبية عن البيعة ، أخرجه ابن عساکر من طريق الأعمش ، وقال ابن عبد البر في الاستيعاب : إن الجد بن قيس ثاقب وحسنت توبته ومات في خلافة عثمان .. للجد أخبار سنائي عليها إن شاء الله في هذا الكتاب في موضعها .

(٣) أنظر تفاصيل هذه الفتنة في كتابنا (غزوة الأحزاب) الفصل الأول ، (غزوة بني المصطلق) .

الحرب ، فقد أدخل في حسابه احتمال أن تقوم قريش بالعدوان عليه وعلى أصحابه في أي مكان لأنه في حالة حرب معها ، ولأنها أمة مشركة لا يمكن أن يأمن المسلمون جانبها حتى وإن كانوا على حالة من النسك هي عنوان المسألة ، لا يجوز (في عرف جميع العرب مسلمين ووثنيين) التعرض لمن هو عليها حتى ولو كان في ظروف حربية .

فقد أمر (أولاً) بسر بن سفيان الكعبي ثم الخزاعي بأن يقوم بمهمة الاستخبارات بين قريش للمسلمين ، فيجمع المعلومات عنهم وعن نواياهم ، وماذا يمكن أن يقولوه أو يفعلوه إذا ما بلغهم أن النبي قد خرج بأصحابه قاصداً مكة للعمرة .

فقد قال النبي ﷺ لسر بن سفيان : إن قريشاً قد بلغها أني أريد العمرة فخبّر لي خبرهم ، ثم القني بما يكون منهم ، فتقدم بسر أمامه ، ودخل مكة وظل بها يرصد قريشاً ويجمع المعلومات ، ولم يخرج إلا عندما وصل النبي عسفان حيث لاقاه هناك .

كذلك كوّن النبي ﷺ - وهو بذوي الحليفة - فصيلة من الفرسان لتكون طليعة أمله ولتقوم بأعمال الاستكشاف حتى مكة ، وذلك تحسباً للطوارئ ، وبالرغم من أنه سير بقبائل إما مسلمة ، أو مشركة موادعة ^(١) .

(١) المرادعة بلفظ هذا المعنى هي معاهدة عدم الاعتداء .

وقد كانت هذه الفصيلة مكوّنة من عشرين فارساً فيهم رجال من المهاجرين والأنصار ، منهم المقداد بن الأسود^(١) وأبو عياش الزرقى^(٢) والحباب بن المنذر^(٣) وعامر بن زبيعة ومحمد ابن مسلمة الأنصاري وسعد بن زيد وعبيد بن بشر ، وكان أمير الفصيلة عباد بن بشر الأنصاري .

طريق الرسول الى مكة :

ووصف الواقدي تحركات الرسول ﷺ في هذه الرحلة التاريخية ، وأشياء حدثت له وهو في طريقه ، وأحاديث قالها لأصحابه ولغيرهم كانت بمثابة أصول تشريعية وآداب إسلامية ، كما حدد الطرق الرئيسية التي سلكها الرسول ﷺ إلى مكة فقال : (وخرج معه المسلمون ست عشرة مائة ، ويقال ألف وأربعمائة ، ويقال ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون رجلاً)^(٤) .

وخرج معه من أسلم^(٥) وحدها مائة رجل ، وخرج معه أربع نسوة ، فجعل رسول الله ﷺ يمر بالأعراب فجا بين مكة

(١) أنظر ترجمة المقداد في كتابنا (غزوة بدر الكبرى ط ٤) .

(٢) أنظر ترجمة أبي عياش في هذا الكتاب .

(٣) » ترجمة الحباب بن المنذر في كتابنا (غزوة بدر الكبرى ط ٤) .

(٤) أصح الأقوال أنهم ألف وأربعمائة .

(٥) أسلم : اسم لعدة قبائل قحطانية ، ويظهر أن هذه القبيلة هم بنو

أسلم بن أنصى ، بطن من خزاعة ، تقع منازلهم على الطريق ما بين المدينة ومكة .

والمدينة، وكان يُقدّم الخيل ثم يقدم ناجية بن جندب^(١) مع الهدى، وكان معه فتیان من أسلم، وخرج رسول الله ﷺ حين أصبح يوم الثلاثاء بمل^(٢)، فراح من ملسل وتعشّى بالسيالة^(٣) ثم أصبح بالروحاء^(٤) فلقي بها اصراً من بني نهد معهم نعم وشاء، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا له وانقطعوا من الإسلام، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ بلبن مع رجل منهم فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل منهم وقال: لا أقبل هدية مشرك، فأمر رسول الله ﷺ أن يُبتاع منهم فابتاعوه من الأعراب فسرّ القوم وجاءوا بثلاثة أضب (جمع ضب) أحياء يعرضونها، فاشترها قوم أحلة من العسكر، فأكلوا وعرضوا على المحرمين

(١) هو ناجية بن جندب بن عمير بن يعمر الأسلمي وكان اسمه ذكوان فسماه النبي صلى الله عليه وسلم ناجية حين نجا من قريش، وكان ناجية هو الذي سار بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في طريق لا تمر بقريش حين قرر عدم مصادمتها بعد أن علم أن خالد بن الوليد معسكراً على الطريق الرئيسي لمقاتلته، فخرج به جندب حتى جاء الحديبية، توفي ناجية بالمدينة في خلافة معاوية.

(٢) قال ياقوت: ملسل (بفتح أوله وثانيه) منزل على طريق المدينة إلى مكة على ثمانية وعشرين ميلاً من المدينة.

(٣) السيالة (بفتح أوله وتخفيف ثانيه) أول مرحلة لأهل المدينة إذا أرادوا مكة، قال ابن الكلبي: مر بها تبسح اليمن بعد رجوعه من قتال أهل المدينة ووادها يسيل فسموها السيالة.

(٤) الروحاء سهل فسيح واسع، يقع على بعد أربعين ميلاً من المدينة ويقال أنها سميت بهذا الاسم لأن تبسح اليمن استراح بها وهو عائد من قتال أهل المدينة يريد مكة.

فأبوا حتى سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال : كلوا فكل
 صيد ليس لكم حلالاً في الإحرام تأكلونه إلا ما صدتم أو صيد
 لكم ، قالوا : يا رسول الله فوالله ما صدنا ولا صادته إلا هؤلاء الأعراب
 أهدوا لنا وما يدرون أن يلقونا ، إنما هم قوم سيارة يصبحون
 اليوم بأرض وهم الغد بأرض أخرى يتبعون الغيث وهم يريدون
 سحابة وقعت من الحريف بفرش ملل . فدعا رسول الله ﷺ
 برجل منهم فسأله : أين تريدون ؟ فقال : يا محمد ، ذكرت لنا
 سحابة وقعت بفرش ملل منذ شهر ، فأرسلنا رجل منا يرثد البلاد ،
 فرجع إلينا فخبّرنا أن الشاة قد شبت ، وأن البعير يمشي ثقيلاً
 بما جمع من الحوض ، وأن الغدُر كثيرة مروية فأردنا أن نلحق به .
 وقال أبو قتادة : خرجنا مع رسول الله ﷺ في عمرة
 الحديبية ومنا المحيل ومنا الحرم ، حتى إذا كنا بالأبواء وأنا
 محيل فرأيت حمراً وحشياً فأسرجت فرسي فركبت ، فقلت
 لبعضهم : ناولني سوطي ، فأبى أن يناولني فقلت : ناولني
 رمحي ، فأبى ، فنزلت فأخذت سوطي ورمحي ثم ركبت فرسي
 فحملت على الحمار فقتلته فبعثت به أصحابي الحرميين والمحلين ،
 فشك الحرمون في أكله حتى أدر كننا رسول الله ﷺ ، وقد كان
 تقد منا بقليل فأدر كننا فسالناه عنه فقال : أمعكم منه شيء ؟
 قال : فأعطيته الذراع فأكلها حتى أتى على آخرها وهو محرم
 فقيل لأبي قتادة : وما خلفكم عن رسول الله ﷺ ؟
 قال : طبخنا الحمار فلما نضج لحقناه وأدر كننا . وقد أخرج
 البخاري في صحيحه حديث أبي قتادة بلفظ آخر والمعنى واحد .

كيف تلقت قريش النبا ؟

لقد شاع بين العرب نبأ خروج النبي ﷺ وأصحابه معتمرين ولم يكن في هذا الخروج ما يدعو إلى الدهشة أو الإستغراب بين العرب الوثنيين عموماً .

لأن زيارة البيت (وخاصة في الأشهر الحرم) حق لكل إنسان مهما كان دينه أو لونه أو جنسه .. ذلك قانون غير مكتوب يجمع على العمل به بين جميع قبائل العرب .

غير أن قريشاً تجاهلت هذا القانون الذي كان يجب أن تكون أول من يلتزم به ويحرص على تنفيذه ، لأنها حتى ذلك المصام كانت السادة للكعبة والمسؤول بين العرب عن جميع المشاعر التي يعضدها العرب في نسكهم ، ومطلوب منها إعطاء كل التسهيلات لمن جاء راغباً في زيارة البيت حتى ولو كانت في حالة نزاع مسلح معها ، ما دام أنه لم يأت محارباً ، لأن لمنطقة الحرم قدسية عند العرب تجعل من الحرم تحريماً قاطعاً سفك أي دم وإنشابه أي حرب داخل حدوده ، ذلك هو القانون والعرف السائد بين عرب الجزيرة منذ آلاف السنين .

ولكن قريشاً قد تملكها الغرور — بعد أن استبد بها الغضب ونزاهها الحق — فرمت بهذا العرف عرض الحائط حينما قررت (في إصرار) منع النبي ﷺ وأصحابه من دخول مكة بالرغم من تبليغها أنهم لم يأتوا للحرب وإنما جاؤوا محرمين لزيارة البيت فحسب .

لقد اعتبرت قريش خروج النبي ﷺ نحو مكة (وفي هذا العدد الكبير من أصحابه) بادرة خطيرة ، أحسن سادات مكة أن فيها مساساً بكرامتهم وخدشاً لكبريائهم الوثني ، وأنه — بالنسبة للعرب أجمعين — بمثابة الدليل العملي على ضعف قريش السياسي وانخفاض هيبتها العسكرية ، وتضعف دورها القيادي بين العرب .

كما اعتبرت قريش هذا التصرف من النبي ﷺ رداً (في صورة التحدي) على ما قامت به من أعمال إرهابية ضده وضد القلة من أصحابه عندما كانوا في مكة ، مما اضطرهم إلى مغادرتها هرباً مرغمين .

ولم يستطع النبي ﷺ (منذ خرج مكة خائفاً يترقب بعد أن أهدرت قريش دمه وقررت الفتك به) ولا أحد من أصحابه الإقتراب من مكة فضلاً عن دخولها .

ولكن ها هو (وبعد مرور خمس سنوات على نجحاته من سيوف قريش) يتحرك نحو مكة ، (ليس وحيداً ولا خائفاً ولا مستخفياً هذه المرة كما كان حاله عند مغادرته لها قبل خمس سنوات) وإنما على رأس ألف وأربعمائة من أصحابه ، كلهم يفديه بروحه .

إنه (اذن) التحدي السافر لقريش في أبرز صوره .

هكذا قرء في نفوس القرشيين ، فعمّت مكة — لهذا النبأ — بوجة من الغضب والإستياء والقلق والإرتباك .

قريش في برلمانها :

ولدى تأكد قريش من نبأ خروج النبي وأصحابه نحو مكة
سارع زعماءها إلى عقد اجتماع هام في دار الندوة للتشاور فيما
بينهم وللإتفاق على خطة لمواجهة هذا التطور الخطير .

لجنة المتابعة والتنفيذ :

وبعد هذا القرار الذي اتخذته قريش في برلمانها (دار
الندوة) بالإجماع انتخبت من يمكن تسميتهم بلجنة المتابعة ...
مهمة هذه اللجنة متابعة هذا القرار الخطير ، والعمل (بالطرق التي
تراها اللجنة) على تنفيذه .

وكان أعضاء هذه اللجنة المنتخبون ثلاثة من سادات
مكة ، وهم :

١ - عكرمة بن أبي جهل المخزومي ^(١) .

٢ - صفوان بن أمية الجمحي ^(٢) .

٣ - سهيل بن عمرو العامري ^(٣) .

وقد أعطيت هذه اللجنة (من جميع نواب الندوة)
التفويض الكامل المطلق في اتخاذ ما تراه من تدابير وتصرفات
تضع قرار صد المسلمين عن البيت موضع التنفيذ .

(١) أنظر ترجمة عكرمة في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) أنظر ترجمة صفوان في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٣) أنظر ترجمة سهيل بن عمرو في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

قال الواقدي : (ولما بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ إلى مكة راعهم ذلك ، وأجمعوا له ، وشاورو. فيه ذوي الرأي منهم ، فقالوا: يريد (أي النبي ﷺ) أن يدخل علينا في جنوده معتمراً ، فتسمع به العرب ، وقد دخل علينا عثوة ^(١) وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا يمكن هذا أبداً ومنّا عين تطرف ، فارتأوا رأيكم ، فأجمعوا أمرهم وجعلوه إلى نفر من ذويهم (صفوان بن أمية .. وسهيل بن عمرو .. وعكرمة ابن أبي جهل) ^(٢) .

قريش تستعد لمنع المسلمين بالقوة :

وقد وضعت لجنة التسابعة الثلاثية (بالتشاور مع سادات مكة الآخرين) خطة كاملة لمواجهة المسلمين وصدّهم عن البيت بقوة السلاح ، إنهم أصرّوا على دخول مكة معتمرين. ويمكن تلخيص خطة قريش التي بموجبها قرّرت صد المسلمين فيما يلي :

- ١ - إعلان حالة الاستنفار بين جميع القرشيين ممن يقدرّون على حمل السلاح وتعبئتهم لمقاتلة المسلمين .
- ٢ - طلب مساعدة الحلفاء (الأحابيش ^(٣) وثقيف وغيرهم) بالوقوف إلى جانب قريش عسكرياً لمواجهة المسلمين .

(١) عثوة (يفتح العين وسكون النون) : أي بالقوة .

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٧٩ .

(٣) الاحابيش: مجموعة من القبائل غير القرشية حالفت قريشاً حتى صارت وكأنها جزء منها .

٣ - إعتاد ميزانية حرب خاصة لتموين جنود الحلفاء الذين يقررون الانضمام إلى قريش في هذا النزاع الذي قررت قريش أن يكون نزاعاً مسلحاً .

٤ - وإخراج فكرة صد المسلمين بقوة السلاح من الحيز النظري إلى الحيز العملي قررت لجنة الحرب العليا بالتشاور مع سادات مكة أن يخرج كل حلة السلاح من قريش وحلفائها إلى خارج مكة ليكونوا على أهبة الاستعداد لمنع المسلمين من دخول الحرم ، على أن يكون ذلك قبل وصول المسلمين إلى حدود الحرم .

٥ - أن يصاحب المشركين عند خروجهم لصد النبي ﷺ نساؤهم وأطفالهم ، ليلبس المسلمون الدليل العملي على قصم قريش على صدم وأنهم غير مستعدين للتراجع عن هذا القرار الخطير ، وليكون وجود النساء والأطفال في معسكرات قريش وحلفائها بمثابة قطع خط الرجعة على الذين لا يرون من القرشيين التعرض للنبي ﷺ لصدّه عن البيت .

٦ - تكوين قوات كثيفة من الفرسان وإعطاء قيادتها لفرسان قريش خالد بن الوليد ، على أن تمسك هذه القوات من الفرسان على الطريق الرئيسي بين مكة والمدينة وبالقرب من الحرم لاعتراض المسلمين وإفهامهم (عملياً) بأن قريشاً قد قررت (وبدون تراجع) منهم من دخول الحرم .

٧ - إقامة جهاز دقيق من الاستخبارات العسكرية ، تكون مهمة رجاله الضرب في الأرض إلى أبعد مكان ممكن على الطريق

الذي سيمر به النبي وأصحابه ، وإبلاغ قريش في معسكرها الرئيسي (أولاً بأول) عن كل ما تحتاجه من معلومات عن تحركات المسلمين ومدى قوتهم وحقيقة أمرهم من جميع الوجوه .

تنفيذ خطة الصد :

وقد نفذت قريش كامل بنود هذه الخطة تنفيذاً تاماً ..
ففيما يختص بالاستنفار العام في مكة ، فقد خرج منها لمواجهة المسلمين كل قادر على حمل السلاح .

وفيما يتعلق بمساعدة الحلفاء ، فقد نجحت قريش في إقناع الأحابيش بالانضمام إليها بعد أن شوّمت لسيدهم العنيس بن زبّان حقيقة موقف المسلمين السلمي وصورتهم له بأنهم جاؤوا محاربين معتدين ، كما نجحت أيضاً في إقناع حلفائها (ثقيف) فانضموا وجاؤوا إليها من الطائف بقيادة سيدهم (عروة بن مسعود) ، فاستطاعت بذلك قريش أن تحشد من أبنائها ومن حلفائها قوة ضخمة ضاربة بلغت حوالي ثمانية آلاف مقاتل ، كلها وقفت على أهبة الاستعداد لمحاربة المسلمين لحساب الزعامة القرشية .

المعسكر الرئيسي لقريش :

وقد عسكرت قريش بهذه القوات الضاربة المشتركة (بصفة رئيسية) في منطقة بلدح ^(١) الواقعة غربي مكة ، كما أن قريشاً

(١) بلدح (يفتح أولوسكون ثانيه) قال في مراصد الاطلاع: واد قبل مكة من جهة المغرب .

أخرجت بالفعل النساء والأطفال ليكونوا موجودين في المعسكر الرئيسي في بلدح .

وفيما يختص بقوات الفرسان التي قررت قريش تكليفها باعتراض النبي وأصحابه ، فقد تحرك خالد بن الوليد بمشي فارس ورباط بهم في كراع الغميم على الطريق الرئيسي الذي من المفروض أن يمر به النبي وأصحابه وهم في طريقهم من المدينة إلى مكة .. وكانت لدى القائد خالد أوامر صارمة مشددة بأن يمنع المسلمين بالقوة من اجتياز الطريق كما هو قرار سادة قريش .

أما فيما يتعلق بجهاز الاستخبارات ، فقد أقامته قريش على أدق ما يكون ، فقد انتخبت عشرة رجال أعطت قيادهم للحكم بن عبد مناف ، فتولّى تنظيمهم ، فوزعهم في رؤوس الجبال المطلّة على الطريق الرئيسي الذي سيمر به النبي ﷺ وأصحابه ، فكان الأول ينقل إلى الثاني ما يرى ويسمع من المسلمين ، والثاني إلى الثالث حتى يصل إلى العاشر فينقله بدوره إلى قيادة قريش العليا في وادي (بلدح) .

وهكذا وبواسطة تنظيم هذا الجهاز من الاستخبارات تلقت قيادة قريش في بلدح كل شيء عن تحركات المسلمين أولاً بأول ، فعرفوا كل ما يريدون معرفته عن مدى قوة المسلمين ، وما يقولونه ويفعلونه قبل أن يصلوا إلى حدود الحرم .

قال الواقدي (المغازي ج ٢ ص ٥٧٩) : (وقدّموا خالد ابن الوليد في الحيل ووضعوا الميون على الجبال حتى انتهوا إلى

جبل يقال له : وزر ، وزع .. كانت عيونهم عشرة رجال قام عليهم الحكم بن عبد مناف يوحى بعضهم إلى بعض الصوت الخفي : فعل محمد كذا وكذا ، حتى ينتهي ذلك إلى قريش) ..

اطعام المرتزقة :

وفيا يختص بتموين المرتزقة الموجودين مع قريش في معسكرهم ، والمسمين بالحلفاء من غير القرشيين ، فقد تولّى أربعة من زعماء قريش إطعامهم ، وهؤلاء الزعماء الذين تولوا تموين المرتزقة بالنيابة عن قريش ، هم سهيل بن عمرو وعكرمة ابن أبي جهل وصفوان بن أمية وحريطب بن عبد العزى ، وكلهم ما عدى الأخير أعضاء في لجنة الحرب التي كلفتها قريش في دار الندوة بمتابعة وتنفيذ قرارات البرلمان القرشي المتعلقة بصدّ المسلمين عن البيت ومنعهم من دخول مكة منها كانت النتائج .

الاستخبارات النبوية في مكة :

كان النبي ﷺ عند خروجه من المدينة (وفي ذي الحليفة بالذات) كلف بسر بن سفيان الكعبي الخزاعي بأن يقوم بمهمة الاستخبارات في مكة ، وأمره بأن يتوجه إليها لينقل إليه كل أخبار القرشيين ، ما يقولونه وما يفعلونه كردّ فعل لتلقيهم نبأ خروج المسلمين معتمرين .

وقد صدع بسر بن سفيان بأمر نبيه ﷺ ، فتوجه إلى مكة ، وما هي إلا أيام قلائل حتى كان فيها ، وظلّ بسر في مكة يرصد

(بطريقه الخاص) حركات القرشيين ويدوّن في ذاكرته كل ما يراه أو يسمعه مما تقوله وتفعله قريش ، وظلّ في مكة عدة أيام عرف فيها كل ما يجب أن يعرفه رجل مكلف بمثل هذه المهمة الخطيرة التي كلّف بها .

وقد بلغ رجل الاستخبارات النبوية في إنجاح مهمته إلى حدّ المخاطرة بروحه ، حيث صاحب الجيوش المشتركة (من القرشيين والأحلاف) في تحركاتها حتى استقرّت في معسكرها الرئيسي في وادي (بلدح) ، ولم يتركها إلا بعد أن رآها تقيم الأبنية وتضرب الخيام في هذا الوادي مصممة على صدّ المسلمين عن البيت بالقوة .

فقد توجه (بسر) بعد ذلك ليلتقي بالرسول ﷺ في ذات الاشطاط) من وراء عُسفان على مسافة غير بعيدة من حدود الحرم . وهناك أخبر النبي ﷺ بكل شيء عن قريش .. فعندما رآه النبي ﷺ قال : يا بسر ما وراءك ؟

قال : يا رسول الله تركت قومك كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ، قد سمعوا بمسيرك ففزعوا وهابوا أن تدخل عليهم عنوة وقد استنفروا الأحابيش ومن أطاعهم ، معهم العوذ المطافيل ، قد لبسوا لك جلود النمر ليصدّوك عن المسجد الحرام ، وقد خرجوا إلى (بلدح) وضربوا الأبنية ، وتركوا عمادهم (أي قادتهم) يطعمون الجزر أحابيشهم ومن ضوّى (أي انضم إليهم) في دورهم ، وقدّموا الخيل عليها خالد بن الوليد ، مائتي

فرس .. وهذه خيلهم بالغيم وقد وضعوا العيون على الجبال ،
ووضعوا الأرصاد (١) .

النبي يستشير أصحابه :

وكما هي عادة النبي ﷺ ، وتمشياً مع روح الشورى التي جاء بها الإسلام والمتمثلة في قوله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ ، جمع الرسول ﷺ أصحابه حيث يعسكر في وادي عُسْفان وأطلعهم على حقيقة الموقف ، مشيراً إلى التطورات الخطيرة التي حدثت نتيجة تعنت قريش وإصرارها على صد المسلمين عن المسجد الحرام بالقوة ، ذلك الإصرار ، الذي تمثل بأجلى مظاهره في خروج حوالي ثمانية آلاف مقاتل إلى وادي (بلدح) تصحبهم نساؤهم وأطفالهم ، وفي مرابطة مالتى فارس على مقربة من المسلمين في كراع الغميم .

فقد قال النبي ﷺ : هذا خالد بن الوليد على خيل المشركين بالغميم ، ثم وقف ﷺ خطيباً في المسلمين فأتى على الله بما هو أهله ، ثم قال (مستشيراً أصحابه) : (أما بعد فكيف ترون يا معشر المسلمين في هؤلاء الذين استنفروا إلي من أطاعهم ليصدونا عن المسجد الحرام ؟ أترون أن نخلف هؤلاء الذين استنفروا فمن صدنا قاتلناه ، أم ترون أن نخلف هؤلاء الذين استنفروا

(١) مغاري الراقي ج ٢ ص ٥٨٠ .

لنا ، إلى أهلهم ، فإن اتبّعونا اتبعنا منهم عنقُ يقطعها الله ،
وإن قعدوا قعدوا محزونين موتورين ؟

فقام أبو بكر الصديق فقال : الله ورسوله أعلم ، نرى
يا رسول الله أن نضي لوجهنا ، فمن صدّنا عن البيت قاتلناه ،
فقال رسول الله ﷺ : « فإن خيل قریش فيها خالد بن الوليد بالفيم » .
فقال أبو هريرة : فلم أر أحداً كان أكثر مشاورة لأصحابه
من رسول الله ﷺ ، وكانت مشاورته أصحابه في الحرب فقط .

المقداد بن عمرو يتكلم :

وقام المقداد بن عمرو الكندي ^(١) فقال : يا رسول الله ،
لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (إذهب أنت وربك
فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا
إنا معكما مقاتلون ، والله يا رسول الله لو سرت إلى برك الغماد
لسرنا معك ما بقي منا رجل .

وتكلم سيد الأوس (أسيد بن الحضير) وقال قريبا من
قول أبي بكر الصديق .

وبعد هذا التشاور تبين أن جميع المسلمين موافقون على
المضي نحو غابتهم وهي زيارة البيت العتيق ، وأنهم مستعدون
للصدام إذا ما ألبأتهم قریش إلى ذلك بإصرارها على منعهم من
دخول الحرم .

(١) أنظر ترجمة المقداد في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

مشادة بين الصديق وابن ورقاء :

وإلى وادي عسفان حضر حليف المسلمين سيد خزاعة (بديل
ابن ورقاء) وعلى مسمع من الناس قال : يا محمد لقد اغتررت
بقتال قومك جلابيب العرب ^(١) ، والله ما أرى معك أحداً له
وجه ، مع أني أراكم قوماً لا سلاح معكم ، فجرت (لهذا
القول) بينه وبين أبي بكر الصديق مشادة كلامية أغلظ له فيها
القول أبو بكر الصديق ، وأسمعه ما يكره ظناً منه أنه
متحيز لقريش .

غير أن بُدَيْلاً أعلن بأن لا باعث لمفاله إلا الإخلاص لحليفه
النبي وأصحابه حيث قال مجيباً على مقالة أبي بكر الصديق : أما
والله لولا يد لك عندي لأجبتك فوالله ما أتهم أنا ولا قومي ، ألا
أكون أحب أن يظهر محمد ، إني رأيت قريشاً مقاتلتك عن
ذرارها وأموالها ، قد خرجوا إلى بلدح ، فضربوا الأبنية ، معهم
العوذ المطافيل ^(٢) ، ورادفوا على الطعام يطعمون الجزر من
جاءهم ، يتقوون بهم على حريمكم ، ففر رأيتك .

وعندما تبلغ النبي ﷺ نبأ شطط قريش وتصلفها وطفبائها
وإصرارها (هكذا) على منعه من زيارة البيت (بغياً وعدواناً)
قال مبدئياً أسفه الشديد لهذا التصرف الجاهلي الأحق :

(١) الجلابيب : جمع جلباب ، وهو الإزاء والرداء .

(٢) العوذ (بضم العين) : جمع عائد وهي الإبل الحديثة الناتج ،
والمطافيل : جمع مطفل وهي التي لها طفل ، يريد أنهم صمموا على صده عن
الحرم إلى درجة إخراج النساء والصبيان معهم للملاقاته .

(يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلتوا
 بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ،
 وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا
 قاتلوا وبهم قوة ، ثم أعلن ﷺ تصميمه على المضي في نشر
 رسالته مهما كانت فعالية القوة التي تحاول الوقوف في وجهها
 لصد تيارها قائلاً :

فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به ، حتى يظهره
 الله أو تنفرد هذه السالفة .

ثم تبلغ النبي ﷺ من عيونه (رجال استخباراته) : ان
 أسباطين الكفر في مكة قد خرجوا بقرارهم المتهور من حيز
 القول إلى حيز الفعل ، فحشدوا كل ما لديهم من قوة وعسكروا
 بها في وادي بلدح .. وأنهم قد استنفروا حلفائهم من ثقيف
 بقيادة عروة بن مسعود ، وحلفاءهم من الأحابيش بقيادة
 الحليس بن زبان^(١) فأطاعوهم جميعاً وانضموا إلى معسكرهم .

نذر الحرب :

وهكذا (وباتخاذ قريش ذلك القرار المتعسف المخالف للقيم

(١) الحليس (بضم الحاء وفتح اللام) سيد بني كنانة وزعيم الأحابيش
 جميعاً ، كان سيداً مطاعاً راجح العقل ، ولم يصل إلى علمي هل أسلم أم
 مات مشركاً ، وقد انتقد قريشاً أشد الانتقاد في موقفها المتصلب في منع
 النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أداء مناسك العمرة .

والتقاليد المرعية حتى بين الوثنيين العرب (تراءت نذر الحرب في الأفق ، والتي لم يأت لها المسلمون ولم يفكثروا فيها عندما خرجوا من المدينة معتمرين ملتبئين مكبرين .

ومع كره النبي ﷺ للحرب وعدم رغبته في خوضها مع قريش ، فقد أدخل في حسابه أن قريشاً قد تقدم على مثل هذا التصرف الأخرق الذي أقدمت عليه . . فاتخذ كل الاحتياطات الضرورية تحسباً للطوارئ وفضل أصحابه (في حالة استنفار واستعداد يحملون السلاح وهم في حالة الإحرام متلبسين بنسك العمرة) .

النبي يتحاشى الصدام المسلح :

غير أن النبي ﷺ مع كل ما صنعت قريش من التحدي ومع ما قامت به من استفزاز للمسلمين وتحريض بهم ، بتكليفها قائد فرسانها خالد بن الوليد بأن يربط بمئتين من الفرسان في الطريق الرئيسي بين عسفان ومكة لاعتراض المسلمين ومنعهم من المرور بالقوة . . فإنه ﷺ قرر أن يتحاشى الصدام المسلح مع قومه ما أمكنه ذلك حرصاً منه على حقن الدماء التي ليس شيئاً أبغض إليه من إراقتها بدون مبرر وخاصة في تلك الظروف التي لم يأت فيها لحرب أو قتال وإنما جاء فقط لزيارة البيت الحرام .

ولذلك قرر أن لا يمر في طريقه إلى مكة بالطريق الرئيسي الذي يربط فيه خالد بن الوليد بفرسانه لمقاتلة المسلمين وهو الطريق الذي يأتي من ناحية الشمال وينتهي عند حدود الحرم جنوباً عند التنعيم ثم مكة .

غير أنه يظهر أن خالد بن الوليد قائد فرسان المشركين قد سار في طريق التحدي بسرعة مذهلة وبصورة جعلت النبي ﷺ وأصحابه أمام امتحان صعب للغاية .

فقد تحرك خالد بفرسانه من كراع الغميم إلى وادي عسفان حيث يعسكر النبي ﷺ بالمسلمين ، وقصد خالد من ذلك (دوغما شك) هو تحدي المسلمين وإثارتهم ، ومحاولة اقتناص فرصة يتمكن فيها قائد سلاح فرسان مكة من ضرب المسلمين فيها ضربة قاتلة .

وقد كان تصرف خالد المتحدي هذا كافياً لأن يجعل المسلمين يُعجّلون بالصدام ويقابلون استفزازات خالد المثيرة بالهجوم عليه ، لا سيما وأنه جاء في صورة المهاجم المعارض المتحدي.. نعم لقد كان يمكن أن يحدث ذلك من جانب المسلمين، لولا أنهم عرفوا أن نبيهم ﷺ لا يرغب في مقاتلة قومه ما وجد إلى تجنب هذا القتال سبيلاً. ولهذا كظموا غيظهم أمام استفزاز وإثارة قائد سلاح فرسان المشركين مع قدرتهم التامة على تأديبه وردعه ووضع حد (بحمد السيف) لتحديّه واستفزازه .

ولقد بالغ خالد بن الوليد الذي كان قائد أول قوة للمشركين بواجبها المسلمون في رحلتهم السلمية التاريخية هذه .. بالغ في التحدي والاستفزاز إلى أن وقف بخيالاته المثبتين بين المسلمين وبين القبلة وقت أداء الصلاة في عسفان مستفزاً بذلك مشاعرهم ، ومستعرضاً عضلات قريش ومدخلها في روع المسلمين بأن صنيعه

هذا هو أحد مظاهر قوة قريش العسكرية الضاربة القادرة على منع المسلمين من دخول مكة في أية صورة من الصور .

سلاح فرسان الفريقين في حالة المواجهة :

وإزاء تصرف خالد بن الوليد هذا ، أمر النبي ﷺ قائد سلاح فرسان المسلمين (عباد بن بشر) أن يقف بفرسانه إزاء فرسان خالد لصدة أية محاولة قد يقوم بها خالد على حين غرة بالهجوم على المسلمين ، فصف عباد بن بشر فرسانه ، وبهذا أصبح خيالة الفريقين في حالة مواجهة كاملة .

ومع هذا فقد تلقى قائد سلاح فرسان المسلمين (على ما يظهر) أمراً من النبي ﷺ بأن لا يباشر أي قتال ضد فرسان خالد بن الوليد إلا في حالة واحدة هي حالة الدفاع عن النفس ومنع أية محاولة قد يقوم بها خالد للهجوم على النبي وأصحابه .

صلاة الخوف في عسفان :

وقد اضطر النبي ﷺ إزاء تحفز خيالة المشركين وتعرُّشهم بالمسلمين - أن يصلي بالمسلمين صلاة الخوف ، وهي صلاة خاصة بمن هم في حالة حرب ، يجوز فيها ما لا يجوز في غيرها من صور الصلاة المعتادة .

خالد يحاول مهاجمة المسلمين وقت الصلاة :

وقد حاول قائد فرسان مكة أن يشن هجوماً كاسعاً على

المسلمين وهم في حالة الصلاة ، إلا أن النبي ﷺ تنبه لذلك
فصلى بأصحابه صلاة الخوف ، وبهذا أحبط على خالد بن الوليد
خطئه التي بها أراد أن يأخذ المسلمين على حين غرة فيضربهم
وهم في صلاتهم آمنين .

قال الواقدي (المغازي ج ٢ ص ٥٨٢) : (ودنا خالد بن
الوليد في خيله حتى نظر الى أصحاب رسول الله ﷺ ، فصفا
خيله فيما بين رسول الله ﷺ وبين القبلة ، وهي مائتا فارس ،
وأمر رسول الله ﷺ عبادة بن بشر فتقدم في خيله فقام بإزائه
فصفا أصحابه . فحانت صلاة الظهر فأذن بلال وأقام ، فاستقبل
رسول الله ﷺ القبلة وصفا الناس خلفه يركع بهم ويسجد ، ثم
سلم فقاموا ما كانوا عليه من التعبئة ، فقال خالد بن الوليد :
قد كانوا على غرة لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم ، ولكن تأتي
الساعة صلاة هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم (يعني
صلاة العصر) .

(وكان خالد بهذا القول قد قرر الهجوم عليهم وقت صلاة
العصر ، ولا شك أنه سينزل بهم خسائر فادحة لو صلوا صلاتهم
العادية ، ولكن النبي ﷺ أحبط محاولة خالد الفسادة إذ صلى
بأصحابه صلاة الخوف) .

قال الواقدي : (فحانت العصر فأذن بلال ، وأقام ، فقام
رسول الله ﷺ مواجهاً القبلة ، والعدو أمامه ، وكبر رسول الله
ﷺ وكبر الصفان جميعاً ، ثم ركع وركع الصفان جميعاً ، ثم

سجد قسجد الصف الذي يليه وقسام الآخرون يحرسونه ، فلما قضى رسول الله ﷺ السجود بالصف الأول وقاموا معه ، سجد الصف المؤخر السجدين ، ثم استأخر الصف الذي يلونه ، وتقدم الصف المؤخر ، فكانوا يلون رسول الله ﷺ فقاموا جميعاً ، ثم ركع رسول الله ﷺ فركع الصفان جميعاً ، ثم سجد رسول الله ﷺ وسجد الصف الذي يلونه ، وقسام الصف المؤخر يحرسونه مقبلين على العدو ، فلما رفع رسول الله ﷺ رأسه من السجدين سجد الصف المؤخر السجدين اللتين بقيتا عليهم ، واستوى رسول الله ﷺ جالساً فتشهد ، ثم سلم عليهم ، فكان ابن عباس يقول : هذه أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ في الخوف .

وعن وهب بن كيسان عن جابر بن عبد الله قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع ، ثم صلاها بعد بعسغان ، بينها أربع سنين ^(١) ، قال الواقدي : وهذا أثبت عندنا .

الحديبية بدلاً من التمتع :

ومع كل ما أقدمت عليه قريش من تحدٍ واستفزاز بحشد جيوشها وإعلانها أنها ستصد المسلمين عن المسجد الحرام ، وبالرغم من تكليفها قائد سلاح فرسانها خالد بن الوليد باعتراض سبيل

(١) انظر تفاصيل غزوة ذات الرقاع في كتابنا (غزوة الاحزاب) الفصل الاول .

المسلمين في الطريق ومحاولة الهجوم عليهم في عُسفان إن أمكنه ذلك ، وهو ما قام به خالد بن الوليد (فعلاً) كما تقدم ، الأمر الذي يعتبر (صراحة) عملاً حربياً تقوم به قريش (بغياً وعدواناً ضد المسلمين) مع كل هذا قرر النبي ﷺ أن يتحاشى الصدام المسلح مع خالد بن الوليد الذي قطع الطريق على المسلمين بجياله محاولاً استدراجهم إلى الاشتباك معه وجبرهم إلى خوض حرب ما جاؤوا لها ولا يرغبون فيها .

وقد كان قرار النبي هذا تابعاً من حرصه على حقن الدماء التي لا مبرر لإراقتها وخاصة في تلك الظروف التي لم يأت فيها للحرب وإنما جاء (فقط) زائراً لبيت الله الحرام .

لذلك قرر أن لا يمر (في طريقه إلى مكة) بالطريق الرئيسي الذي سده خالد بن الوليد بمئتين من الفرسان ، والذي لا يمكن للنبي وأصحابه أن يمرؤا به دون أن يشتبكوا مع خالد وفرسانه في صدام مسلح .

لقد كانت المفروض أن يستمر النبي ﷺ وأصحابه في تحركهم من عُسفان نحو الجنوب في اتجاه مكة (عبر التنعيم)^(١) وهو الطريق الرئيسي المعتاد أن يطرقه كل من يقصد مكة من المدينة .

(١) التنعيم ، قال في مراصد الاطلاع : (موضع بمكة خارج الحرم ، وهو أدنى الحل إليها على طريق المدينة وهو على ثلاثة أميال من مكة .

ولكنه بناء على القرار الذي اتخذته بتجنب الاشتباك مع فرسان خالد بن الوليد - وبالتالي بتجنب القتال مع قومه بصورة عامة ، ما وجد إلى ذلك سبيلاً - فقد قرر أن يغير اتجاهه بحيث يمكنه المرور بأصحابه من طريق تفضي بهم إلى مكة دون أن يمرؤا بالطريق الذي يربط فيه خالد بن الوليد بفرسان قريش ، فقال ﷺ : (هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟) (١) .

ثم قال النبي ﷺ - آمراً بتغيير اتجاه السير - : تيامنوا في هذا العمل ، فإن عيون قريش بمرّ الظهران أو بضجنان ، فأينكم يعرف ثنية ذات الحنظل ؟

وبعد أن سأل ما إذا كان أحد من أصحابه يعرف طريقاً إلى مكة لا تمر بخيل خالد بن الوليد ، ويعرف ثنية ذات الحنظل قال بريدة بن الحصيب الأسلمي : أنا يا رسول الله عالم بها . فقال النبي ﷺ : أسلك أماننا .

وقد سلك الدليل بالنبي ﷺ وأصحابه ذات اليمين بعد أن انحرف بهم عن الجادة ، فسلوكهم طريقاً وعرّاً غير مطروق ، وما زالوا يسرون في مسالك مجهولة وعرة حتى أفضوا إلى سهل الحديبية ، عبر مضيق (ذات الحنظل) .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٩ .

النبي وأصحابه يصلون الطريق عدة مرات :

وبسبب كون المسالك التي سلكها النبي ﷺ وأصحابه مهجورة وليست من الطرق المعروفة إلا لدى أفراد قليل من بادية المنطقة ، لقي النبي وأصحابه عناء شديدا أثناء مرورهم بهذا الطريق .

فقد ضلوا الطريق إلى الحديبية ثلاث مرات بعد أن فشل ثلاثة من بني سليم (العالمين بمسالك المنطقة) في معرفة هذا الطريق ، وتحيروا فيها ، بالرغم من أنه قد سبق لهم وأن مروا بها عدة مرات .

فقد جاء في (مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٨٣) ، أن الدليل الأول (بريدة بن الحصيب الأسلمي) قاد النبي وأصحابه في طريق متعرج - كان قد سلكه عدة مرات - قبال جبال سراوع قبال الغرب ، فسار قليلا تنكبته الحجارة وتعلقه الشجر ، وحار حتى كأنه لم يعرفها قط ، فقال بريدة : (وكأنه أعلن فشله في معرفة الطريق) : فوالله إن كنت لأسلكها في الجمعة مرارا .

فلما رآه رسول الله ﷺ حائرا لا يتوجه ، قال له : اركب ، ثم نادى رسول الله ﷺ : من رجل يدلنا على طريق ذات الحنظل ؟ فنزل حمزة بن عمرو الأسلمي فقال : أنا يا رسول الله أدلك ، فسار قليلا ثم سقط بهم في سخر الشجر فلا يدري أين

يتوجه ، فقال رسول الله ﷺ : إركب ، ثم نادى ﷺ مرة أخرى : من رجل يدلنا على طريق ذات الحنظل ، فنزل عمرو ابن عبد نهم الأسلمي فقال : أنا يا رسول الله أدلك . فقال : إنطلق أماننا ، فانطلق عمرو أمامهم حتى نظر رسول الله ﷺ إلى الثنية فقال : هذه ثنية ذات الحنظل ؟ فقال عمرو : نعم يا رسول الله ، فلما وقف على رأسها تحدّث به . قال عمرو : والله إن كان ليمني نفسي وجدتي ، إنما كانت مثل الشراك فاتسعت لي حتى برزت وكانت حجة لا حبة ، ولقد كان النفر يسرون تلك الليلة جميعاً معطفين من سعتها يتحدّثون .

الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل :

وبعد الخروج من متاعب الضياع في الطريق ، وبعد الوصول إلى ثنية ذات الحنظل عند منقطع الوادي ، طرف سهل الحديبية أضاءت السماء الأرض تلك الليلة حتى كأن الناس في قمر (لم تكن ليلة مقمرة) ، فقال رسول الله ﷺ : فوالذي نفسي بيده ما مثل هذه الثنية الليلة إلا مثل الباب الذي قال الله لبني إسرائيل : ﴿ وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ﴾ ، وقال الرسول ﷺ : الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل : (لا إله إلا الله وادخلوا الباب سجداً) قال : باب بيت المقدس ، فدخلوا من قبل أستاذهم وقالوا : (حبة في شعيرة) ، وقال ﷺ : الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل ، أن يقولوا : (نستغفر الله وتوب إليه) .

ويقول ابن إسحاق : إن النبي ﷺ لما مرَّ بأصحابه في ذلك الطريق الوعر المجهور الذي شق عليهم وأرهمهم - وقد افضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي - قولوا : نستغفر الله ونتوب إليه ، فقالوا ذلك ، فقال ﷺ : والله إنها للحنة (١) التي عرضت على بني إسرائيل ، فلم يقولوها (٢)

أصحاب الثنية المغفور لهم :

قالوا : ثم قال رسول الله ﷺ (وهم يجتازون ثنية ذات الحنظل) : لا يجوز هذه الثنية أحد إلا غفر الله له .

قال أبو سعيد الخدري (٣) : وكان أخي لأمي قتادة بن النعمان (٤) في آخر الناس ، قال : فوقفت على الثنية فجعلت أقول للناس : إن رسول الله ﷺ قال : (لا يجوز هذه الثنية إلا غفر له) فجعل الناس (وكانوا ألفاً وأربعمائة) يسرعون حتى جاز أخي في آخر الناس ، وفرقت (٥) أن يصبح قبل أن يجوز (٦) .

(١) الحطة : بكسر الحاء مع تشديد الطاء - يريد قول الله تعالى لبني إسرائيل (كما في سورة البقرة) : (وقولوا حطة) ومعناه : اللهم حط عنا ذنوبنا .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٩ .

(٣) أنظر ترجمة أبي سعيد الخدري في كتابنا (غزوة أحد) .

(٤) هو قتادة الخ .

(٥) فرق بكسر الراء : خشي .

(٦) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٨٥ .

بعيره أهم اليه من أن يستغفر له الرسول :

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال - حين نزل ليلاً : من كان معه ثقل^(١) فليصطنع^(٢) ، قال أبو سعيد الخدري : وإنما كان عامة زادنا التمر ، فقلنا . يا رسول الله ، إنا نخاف من قریش أن ترائنا . فقال ﷺ : إنهم لن يروكم ، إن الله سيعينكم عليهم ، فأوقدوا النيران ، واصطنع من أراد أن يصطنع ، فلقد أوقدوا أكثر من خمسمائة نار . فلما أصبحنا صلى رسول الله ﷺ الصبح ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، لقد غفر الله للركب أجمعين إلا رويكباً واحداً على جبل أحمر ، التقت عليه رجال القوم ليس منهم ، فطلب في المسكر وهو يظن أنه من أصحاب رسول الله ﷺ فإذا به ناحية إلى ذرى سعيد بن عمرو بن نفيل من بني ضمرة أهل سيف البحر ، فقيل لسعيد : إن رسول الله ﷺ قال كذا وكذا . قال سعيد للضمري : ويحك ، إذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك ، قال : بعيري والله أهم إليّ من أن يستغفر لي - وإذا هو قد أضل بعيراً له يتبع المسكر يتوصل بهم ويطلب بعيره - وأنه لفي عسكرهم فأدثوا لي بعيري . فقال سعيد : تحول عني لا حيثك الله إلا لا أرى قربى إلا داهية ، وما أشعر به .

فانطلق الأعرابي يطلب بعيره بعد أن استبرأ المسكر ،

(١) الثقل : بفتح أوله وثانيه (الدقيق) .

(٢) اصطنع : المراد به هنا طبخ على النار .

فبينما هو في جبال سراوع إذ زلقت نعله فتردّى فمات فما علم به حتى أكلته السباع^(١) .

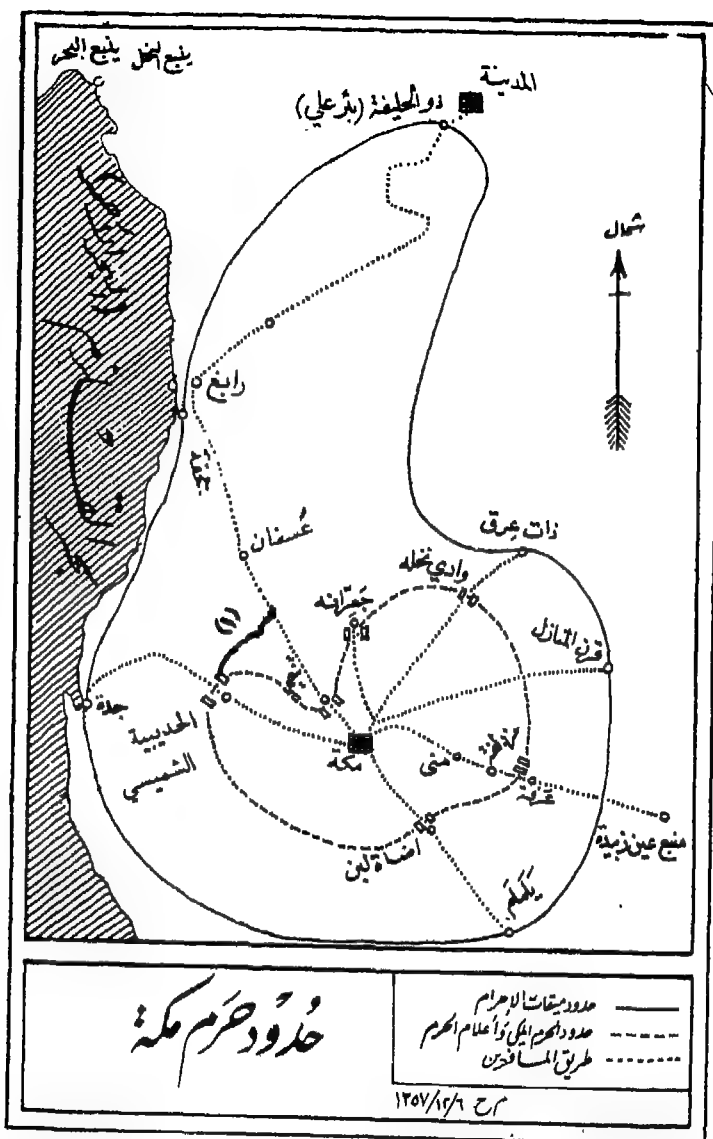
عودة خالد الى مكة :

وبعد أن تأكد لدى خالد بن الوليد أن النبي ﷺ قد التف حوله ذات اليمين وأنه قد وصل بأصحابه إلى سهل الحديبية (عبر ذلك الطريق الوعر الغير المسلوک) ، وأنه يعتزم دخول الحرم من ناحية الغرب (عبر الحديبية) أغاظه ذلك ، لأن النبي بالخرافه ذات اليمين فوت على خالد الفرصة إذ نسف خطته الحكمة التي رسمها لملاقاة المسلمين وضرهم في موقع استراتيجي اختاره هو وعسكر فيه بفرسانه لينقضّ منه على المسلمين حالة وصولهم .

ولقد كرّ خالد بفرسانه راجعاً إلى مكة ليبلغ قادة قريش بما حدث ويتلقى منهم تعليمات جديدة بعد أن نسف الرسول ﷺ خطته الأساسية بالتجأه بأصحابه نحو الحديبية بدلاً من التمتع الطريق الطبيعي الرئيسي والأقرب لمن يريد مكة قادماً من المدينة (انظر خريطة الحرم) .

لم يكن النبي ﷺ يقصد بتحاشي الصدام مع فرسان خالد في كراع الغميم على الطريق الرئيسي .. لم يكن يقصد التراجع

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٨ وما بعدها .



(١) الطريق الذي سلكه الرسول (ص) الى الحديدية عن الوثائق السياسية

• العهد النبوي والخلافة الراشدة

(11)

عن دخول مكة لأداء مناسك العمرة .. وإنما يقصد التنزه عن سفك الدم وإعطاء قریش فرصة أطول لعلها تعود إلى صوابها ، فتخلّص بينه وأصحابه وبين البيت ليطوفوا به ويسعوا سالمين ثم يعودوا من حيث أتوا سالمين كما هي خطتهم منذ تحركوا من المدينة .

ومع رغبة النبي ﷺ في تجنب الحرب .. وابتعاده لذلك عما يؤدي إلى الصدام المسلح كما فعل عندما تحاشى المرور بفرسان خالد في كراع الفم .. مع ذلك فقد ظل الجو مكهرباً والموقف على غاية من الدقة .

فالمسلمون قد قطعوا أكثر من مئتين وخمسين ميلاً محرمين بالعمرة ، وها هم بعد ذلك السفر الشاق قد وصلوا حدود الحرم ولم يبق بينهم وبين البيت العتيق الذي خرجوا لزيارته سوى عدة أميال لا تزيد على العشرة .

ومن الصعب عليهم جداً ، أن يعودوا إلى المدينة دون أن يحققوا أمنيتهم التي قطعوا كل هذه المسافات الطويلة الشاقة من أجل تحقيقها وهي زيارة البيت العتيق .

وقريش من ناحيتها قد أقسمت أن لا يدخل محمد وأصحابه مكة عنوة .. وحشدت لتبر بهذا القسم الآثم كل إمكاناتها العسكرية ، كما استنفرت كل حلفائها من ثقيف والاحابيش ليقفوا إلى جانبها ضد المسلمين .

وها هي تغدو وتروح ينزويها الغضب ويشتط بها الكفر

ويحجم بها الشرك .. قد لجئت في العناد وأمكنت في البغي ، قد
أخذ الشيطان مقودها وسار بها في دروب العناد والمكابرة .

فقد خرجت بجيوشها التي كانت ترابط بالقرب من التنعيم
شمال مكة حيث من المنتظر أن يمر النبي ﷺ بأصحابه إلى
مكة .. خرجت بجيوشها إلى منطقة الحديبية وعسكرت بها
داخل الحرم بالقرب من الحديبية مصمة على منع النبي وأصحابه
من اجتياز حدود الحرم بقوة السلاح تساندها قوات كبيرة من
حلفائها ثقيف والأحابيش .

حابس الفيل :

وبهذا أصبحت الحرب بين الفريقين قاب قوسين أو أدنى ..
بعد أن أصبح كل منهما قريباً من الآخر ، فالنبي ﷺ وأصحابه
بعد أن أفضى بهم الدليل من الطريق الفرعي إلى سهل الحديبية
غربي الحرم .. أخذوا في التحرك نحو مكة مصممين على دخولها
معتمرين ومصرين على مقاتلة قريش إن هي حاولت منعهم بالحرب .
غير أنه وبينما كان ﷺ يقترب وأصحابه من حدود الحرم
(في منطقة الحديبية) ، حدث حادث عجيب عاقه عن اجتياز
حدود الحرم .

وكان الله تعالى أراد بذلك الحوادث العجيب أن يحنثب
الفريقين مأساة مجزرة رهيبة ، كانت وشيكة الحدوث ، لو
اجتاز النبي ﷺ بأصحابه حدود الحرم نحو مكة .

فقد بركت ناقته (القَصْوى) وكانت من أجود النوق المطاويح .. بركت القصى مكانها بالقرب من حدود الحرم ، ولم تنهض من مبركها بالرغم من محاولة إنهاضها ، فظن الناس أنها تعبت فعبزت ، فقالوا : خلأت القصى (أي حرنت) (١) ، فقال النبي ﷺ : ما خلأت وما هو لها بخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . ثم قال ﷺ (بعد أن أدرك ما لم يدركه غيره) : والذي نفس محمد بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطه يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها (٢) ، وفي رواية : لا يسألوني (أي قريش) اليوم خطه فيها تعظيم حرمت الله تعالى إلا أعطيتهم إياها (٣) .

وهذا إعلان صريح من النبي الأعظم ﷺ بأنه مستعد (من أجل حقن الدماء في الحرم) للتفاوض مع قريش إلى أبعد الحدود ، وأنه سيبدل كل ما في وسعه للحيولة دون إراقة الدماء ما وجد إلى ذلك سبيلا .

ثم زجر ناقته فقامت ، فماد بها راجعاً عوده على بدئه (٤) آمراً أصحابه بالنزول في الحديبية ، وقرّر عدم اجتياز حدود الحرم وأصدر بذلك أمراً حتى إشعار آخر .

(١) أي استعصت ولم تقم من مبركها ، وهو عيب في الإبل .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٠ .

(٣) الواقدي ج ٢ ص ٥٨٧ .

(٤) أنظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٨٧ .

فأطاع أصحابه (وعددهم ألف وأربعمائة) وأمره فتزلوا على بشر في الحديبية ، ويظهر أنها البشر التي يراها اليوم الزاهب إلى مكة على يمينه بالقرب من أعلام الحرم في الشامي .

هكذا (وبالرغم من أن النبي ﷺ قادر على اقتحام مكة عنوة بما لديه من قوات قادرة على قهر المشركين .. تعرف قريش ما سيصيبها من دمار على يدها إذا ما التحمت معها في صدام مسلح) فإنه ﷺ - رغبة منه في حقن الدماء - قد أثمر التريث ، وظل برجاله معسكراً خارج حدود الحرم في انتظار ما تأتي به الإقدار ، بما يمكن أن تكون فيه مصلحة الفريقين .

فلعل عقلاء قريش يكبحون من جماح سفهاء قومهم وغلاتهم فيتخلون عن فكرة استخدام القوة لصد المسلمين عن زيارة البيت ، فيؤدّي المسلمون العمرة دونما إراقة قطرة دم ، ثم يعودون إلى عاصمتهم المدينة التي لم يخرجوا منها إلا لزيارة البيت .

وبالرغم من التزام النبي ﷺ جانب التسامح وسلوكه سبيل التريث ضناً بالدماء من أن تراق في الحرم ، فقد استمرت قريش في عنادها ، فأبقت قواتها بجانب المسلمين في حالة استنفار عام .. بل لقد ذهبت في الشطط والغرور إلى أبعد من ذلك ، حيث حاول بعض سفهاء المشركين الهجوم على المسلمين وأخذهم على حين غرة في الظلام .

إلا أن الصحابة الذين كانوا يقومون بأعمال الدورية بقيادة رئيس الحرس محمد بن مسلمة الأنصاري ، أحبطوا مؤامرة هؤلاء

السفهاء، وحالوا بينهم وبين التسلل إلى معسكرات المسلمين التي اعزموا التسلل إليها ليلا للقتل والإغتيال ، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله .

فصائل حراسة المسلمين :

وعندما وصل النبي ﷺ إلى سهل الحديبية وقرر التريث والإنتظار فيها - ونظراً لحالة التوتر الشديد التي نجمت نتيجة بغى قريش وتعنتها وتهديدها المسلمين بمنعهم من دخول الحرم عن طريق الحرب - فقد أمر بإنشاء ثلاث كتائب من أصحابه للقيام بأعمال الحراسة في الحديبية لصد أي عدوان قد يقوم به الطائشون من القرشيين .

وكان قادة فصائل الحراسة هذه ثلاثة كلهم من الأنصار وهم:

١ - عباد بن بشر

٢ - أوس بن خولي

٣ - محمد بن مسلمة

وكان هؤلاء الثلاثة القادة يبيتون يحرسون معسكر المسلمين بالتناوب ، كل ليلة يحرس واحد منهم ورجاله المعسكر ، يقوم بأعمال الدورية حول المعسكر حتى الصباح (١) .

معجزة الرسول في الحديبية :

وعندما عاد النبي ﷺ بأصحابه إلى الحديبية بعد أن قرر

(١) أنظر مغازي الراقي ج ٢ ص ٢٠٦ .

عدم التعمجل في دخول مكة ، وأعلن ما يمكن تسميته فتح باب
المفاوضة لإيجاد حل سلمي للمشكلة التي بلغت بينه وبين قومه
حد الانفجار ، وذلك بقوله : (والذي نفس محمد بيده لا تدعوني
قريش اليوم إلى 'خطئة' يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم
إياها) (١) .

عندما عاد إلى الحديبية نزل بأصحابه على بئر ليس فيها من
الماء إلا شيء يسير ، تسابق إليه الصحابة كلٌ يريد أن يشرب
ويسقي فرسه أو بعيره ، فوجدوا أن الماء الذي في البئر لا
يكفي لإرواء عطش نفر قليل ، وكان الصحابة ألفاً وأربعمائة
أكثرهم راكباً .

وقد تفاقم الأمر واشتدت أزمة الماء إلى درجة خطيرة
أصبحت معها حياة الصحابة ومواشيهم مهددة ، لا سيما إذا
أخذنا بعين الاعتبار أنهم سيقومون بالحديبية مدة غير قصيرة ،
وأنة لا يوجد مصدر للماء في تلك المنطقة ، وما يمكن الالتجاء
إليه من مياه قريبة من الحديبية قد سيطر عليها القرشيون ومن
المستحيل في ذلك الظرف المتوتر (غاية التوتر) أن يسمحوا
للمسلمين بالسقيا منها .

وعندما بلغت أزمة الماء غايتها وحرار الصحابة ماذا يصنعون
جاؤوا إلى رسول الله ﷺ واشتكوا له ما يعانون من نقص

(١) مفازي الواقدي ج ٢ ص ٥٨٧ .

خطير في الماء ، فلجأ إلى ربه سبحانه وتعالى ، ثم أمر أحد أصحابه بأن يتزل في عين البشر الشحيحة بالماء وأن يفرز فيها سهماً أعطاه إياه بيده الشريفة ، ولم يكده صاحبه يفرز السهم في عين البشر حتى تدفقت منها المياه بغزارة إلى درجة ان امتلأت البئر بالماء ، فارتوى الصحابة وأرووا خيلهم ، وبهذا حل الله مشكلة الماء الخطيرة ، وعادت إلى الصحابة طمأنينتهم الكاملة ، وتعاضم إيمانهم بنبيهم العظيم ﷺ .

فقد جاء في كتب الحديث والتاريخ أن النبي ﷺ لما عاد راجعاً بأصحابه إلى الحديبية - وكان قد اتجه نحو مكة - نزل بالناس على ثمد^(١) من ثمد الحديبية ظنون^(٢) قليل من الماء يتبرض مأؤه تبرضاً^(٣) ، فاشتكى الناس إلى رسول الله ﷺ قلة الماء ، فانزع سهماً من كنانته فأمر به ففرز في الثمد فجاشت لهم بالرواء حتى صدروا عنه^(٤) بعطن^(٥) قال: وإنهم ليغرفون بآفيتهم جلوساً على شفير البئر، والذي نزل بالسهم في البئر

(١) الثمد: بفتح أوله وثانيه : الماء القليل الذي لا مادة له، كذا قال في الصحاح ، ص ٤٤٨ .

(٢) الظنون: بفتح أوله: قال في الصحاح ص ٢١٦٠ : البشر التي لا يدرى أفيها ماء أم لا ، ويقال القليلة الماء .

(٣) قال في الصحاح ص ١٠٦٦ : (برض الماء من العين إذ خرج وهو قليل) .

(٤) صدر عن الماء : تركه .

(٥) العطن بفتح أوله وثانيه : مبرك الإبل حول الماء .

ناجية بن الأعجم^(١) من أسلم ، ويقال أن الذي نزل بالسهم في
البشر حتى جاشت هو ناجية بن جندب الاسلمي^(٢) .

فكان ناجية بن الأعجم يحدث فيقول : دعاني رسول الله ﷺ
حين سُكِيَ إليه قلة الماء ، فأخرج سهماً من كنانته ودفعه إليّ
ودعاني بدلو من ماء البشر ، فجثته به فتوضأ ، فقال : مضمض
فاه ، ثم مَجَّ في الدلو ، والناس في حر شديد وإنما هي بشر واحدة
وقد سبق المشركون إلى بلدح فغلبوا على مياهه ، فقال : انزل
بالماء فصبّه في البشر وأثّر^(٣) ماءها بالسهم ، ففعلت فوالذي
بعشه بالحق ما كنت أخرج حق كاد يغمرني ، وفارت كما تفور
القدر حتى طمّت ، واستوت بشفيرها يفترفون ماءً من جانبها
حتى نهلوا من آخرهم .

موقف المنافقين من هذه المعجزة :

وقد كان نفر من المنافقين (عبدالله بن أبي^(٤)) والجد بن
قيس^(٥) حاضرين عندما جاشت البشر بالماء ، فدار بينهم نقاش

(١) هو ناجية بن الأعجم الاسلمي قال في الاصابة : ذكره ابن سعد في
الاصحابة ، كان ناجية هذا يحمل لواء بني سليم يوم الفتح ويحمل اللواء الثاني
بريدة بن الحصيب ، قال ابن شاهين : مات ناجية بالمدينة في آخر خلافة معاوية .

(٢) ناجية بن جندب : تقدمت ترجمته فيما مضى من هذا الكتاب .

(٣) أثّر في الشيء : ترك الأثر فيه .

(٤) انظر ترجمة ابن أبي في كتابنا (غزوة بدر) .

(٥) تقدمت ترجمة الجد بن قيس فيما مضى من هذا الكتاب .

حول المعجزة النبوية ، وقد لام بعضهم عبدالله بن أبيّ ، على التمسك بالسير في خط النفاق بعد الذي رأوا بأعينهم . ولكنه أصرّ على أن يبقى وأصحابه في عماء النفاق .

قال ناجية بن الأعجم : وكان على الماء يومئذ نفر من المنافقين ، الجد بن قيس وأوس ، وعبدالله بن أبيّ ، وهم جلوس ينظرون إلى الماء ، والبشر تحبش بالرواء وهم جلوس على شفيرها ، فقال أوس بن خولي (١) لعبدالله بن أبيّ : ويحك يا أبا الحباب ، أما آن لك أن تبصر ما أنت عليه ؟ أبعده هذا شيء ؟ وردنا بشراً يتبرّض ماؤها — يتبرّض : يخرج في القعب جرعة ماء — فتوضأ رسول الله ﷺ في الدلو ومضمض فاه في الدلو ، ثم أفرغ الدلو فيها ونزل بالسهم فحششها فجاشت بالرواء . قال : يقول ابن أبيّ : قد رأيت مثل هذا ، فقال أوس : قبّحك الله وقبّح رأيك .

(١) هو أوس بن خولي بن عبدالله بن الحارث الخزرجي الانصاري ، كان رجلاً قوي البنية خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مفردة من أصحابه ليتقربوا قريشاً في عمرة القضاء ويحبطوا عليها أي كيد تريد أن فكيد به المسلمين ، خلفه على هذه المفردة بلدي طوى (ضواحي مكة) ذكره الزهري وموسى بن عقبة فيمن شهد بدرأ ، وأخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين شجاع بن وهب ، شارك أوس في غسل النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، ومات أوس في خلافة عثمان قبل حصاره ، وقال في الاصابة : كان أوساً أحد الحمسة الذين فتكوا بزعم اليهود سلام بن أبي الحقيق في خيبر .

نموذج من نفاق ابن أبي :

وقد بلغ رسول الله ﷺ عدم تسليم عبدالله بن أبي بمعجزته ﷺ الآتفة الذكر وسخريته منها أثناء مناقشة أوس بن حولي له. ولذلك عندما جاء عبدالله بن أبي إلى مجلس رسول الله ﷺ (وكان ابن أبي سيداً من سادات الخزرج) ، قال له النبي ﷺ : (أي أبا الحباب ، أين رأيت مثل ما رأيت اليوم ؟) فقال : ما رأيت مثله قط ، فذكره النبي ﷺ بما قاله لأوس بن خولي قائلاً : (فلم قلت ما قلت ؟) فلم ينكر ابن أبي مقالته النكراء ، بل أسقط في يده فقال (ليتجنب ثقمة المسلمين) : استغفر الله ، قال ابنه عبدالله بن عبدالله : (وكان من أبرّ واصلح شباب الصحابة : استغفر له يا رسول الله ، فاستغفر له ﷺ) .

مقالة الجدد بن قيس المنافق :

وكان الجدد بن قيس زعيماً في قومه الأنصار ، وكان لا يبعد عن ابن أبي من حيث النفاق والبغض للنبي ﷺ ولكنه خرج معه ليس للعمرة ، وإنما لتخذيل الناس عنه وبث الفتنة في نفوسهم إن أمكنه ذلك .

فقد ذكر الواقدي عن أبي قتادة أنه قال : لما نزلنا على الحديبية ، والماء قليل ، سمعت الجدد بن قيس يقول : ما كان خروجنا إلى هؤلاء القوم بشيء ، نموت من العطش عن آخرنا ، قال أبو قتادة : فقلت : لا تقل هذا يا أبا عبدالله ، فلم خرجت ؟

قال : خرجت مع قومي . قلت : فلم تخرج معتمراً ؟ قال : لا ، والله ما أحرمت . قال أبو قتادة : ولا نويت العمرة ؟ قال : لا ، فلما دعا رسول الله ﷺ الرجل فنزل بالسهم ، وتوضأ رسول الله ﷺ في الدلو ومج فاه فيه ، ثم رده في البئر فجاشت البئر بالرواء ، قال أبو قتادة : فرأيت الجدماداً رجليه على شفير البئر في الماء ، فقلت : أبا عبد الله أين ما قلت ؟ قال : إنما كنت أمزح معك ، لا تذكر لمحمد مما قلت شيئاً . قال أبو قتادة : وقد كنت ذكرت قبل ذلك للنبي ﷺ قال : فغضب الجد وقال : بقينا مع صبيان من قومنا لا يعرفون لنا شرفاً ولا سناً ، لبطن الأرض اليوم خير من ظهرها ، قال أبو قتادة : وقد كنت ذكرت قوله للنبي ﷺ فقال ﷺ : إبنه خير منه . قال أبو قتادة : فلقيني نفر من قومي فجعلوا يؤنّبوني ويلوموني حين رفعت مقالته إلى رسول الله ﷺ ، فقلت لهم : بشس القوم أنتم ، ويحكم ، عن الجد بن قيس تذبون ؟ قالوا : نعم ، كبيرنا وسيدنا . فقلت : قد والله طرح رسول الله ﷺ سؤده عن بني سلمة ، وسود علينا بشر بن البراء بن معرور (١) ، وهدمنا المنامات التي كانت على باب الجد وبنيها على باب بشر بن البراء ، فهو سيدنا إلى يوم القيامة .

يُمْتَنَعُ عَنِ الْمَبَايَعَةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ :

وقال أبو قتادة : فلما دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة (في

(١) أنظر ترجمة البراء بن معرور في كتابنا (غزوة خيبر) .

الحديبية) فرَّ الجد بن قيس، فدخل تحت بطن البعير، فخرجتُ أعدو، وأخذتُ بيد رجل كان يكلمني فأخرجناه من تحت بطن البعير، فقلت: ويحك ما أدخلك هاهنا؟ إقراراً مما نزل به الروح القدس؟ قال: لا، ولكنني رعبتُ وسمعتُ الهيعة^(١) قال الرجل: لا نضجتُ عنك أبداً، وما فيك خير، فلما مرض الجد بن قيس ونزل به الموت، لزم أبو قتادة بيته فلم يخرج حتى مات ودفن، ف قيل له في ذلك، فقال: والله ما كنت لأصلي عليه وقد سمعته يقول يوم الحديبية، كذا وكذا، وقال في غزوة تبوك، كذا وكذا، واستعيت من قومي يروني خارجاً ولا أشهده^(٢).

الغلام الذي اعجب الرسول بفصاحته :

كانت قبيلة خزاعة اليمنية (مسلمها وكافرها) على ولاء للمسلمين، ولهذا فإن النبي ﷺ وأصحابه لما نزلوا الحديبية (وكانت قريبة من منازل خزاعة) أحبت خزاعة اظهار مشاعر الود والصداقة للمسلمين فأهدى عمرو بن سالم^(٣) وبسر بن سفيان

(١) الهيعة، بفتح الهاء: (قال في النهاية: الصوت تفرع وتخافه من هدد).

(٢) أنظر مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٤٤ وسيرة ابن هشام ج ٢ ومغازي

الواقدي ج ٢ ص ٥٨٧ وما بعدها.

(٣) هو عمرو بن سالم بن حضير بن سالم الخزاعي، أسلم قبل الفتح وكان أحد أعضاء الوفد الذين جاءوا إلى المدينة يبلغون رسول الله صلى الله عليه وسلم نقض قریش وبني بكر صلح الحديبية باعتدائهم كل خزاعة والصلح قائم، حل عمرو أحد ألوية خزاعة يوم الفتح.

الخزاعيان غنماً وجزوراً للمسلمين أهدى عمرو ، وبُسّر غنماً لرسول الله ﷺ وأهدى عمرو بن سالم جزوراً لسعد بن عباد ، وكان صديقاً له . فجاء سعد بالغنم إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ : وعمرو قد أهدى لنا ما ترى فبارك الله في عمرو ^(١) .

قال الواقدي : (المغازي ج ٢ ص ٥٩٢) ، وكان الذي جاء بالهدية غلام منهم ، فأجلسه رسول الله ﷺ بين يديه ، والغلام في بردة بلية ، فقال : يا غلام ، أين تركت أهلَكَ؟ قال : تركتهم بضجنان وما والاها . فقال : كيف تركت البلاد؟ فقال الغلام : تركتها وقد تيسرت ، قد أمشرت ^(٢) عضاها ، وأغدق إذخرها ^(٣) وأسلم ثامها ^(٤) ، وأبقل حمضها ^(٥) ، وانبلت الأرض فتشبعت شاتها إلى الليل ، وشبع بعيرها إلى الليل مما جمع من خوص وضمد الأرض ^(٦) وبقل .. وتركتم مياهم كثيرة تشرع فيها الماشية ، وحاجة الماشية إلى الماء قليل لرطوبة الأرض ، فأعجب رسول الله ﷺ لسانه ، فأمر رسول الله ﷺ بكسوة للغلام ،

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٩٢ .

(٢) أمشرت : خرج ورقه .

(٣) الإذخر ، بكسر الهمزة ، الحشيش الأخضر والحشيش طيب الريح (كذا قال في القاموس المحيط .

(٤) أسلب ثامها : أي أخرج خوصها (كذا قال في النهاية لابن الأثير ج ٢ ص ١٧٣) .

(٥) أبقل : أي نبت وظهر .

(٦) ضمد الأرض : رطبها (النهاية في غريب الحديث ج ٣ ص ٢٥) .

وقال الغلام : إني أريد أن أمسّ يدك أطلب بذلك البركة ،
فقال رسول الله : أدن مني ، فدنا فأخذ يد رسول الله ﷺ
فقبلها ، ومسح رسول الله ﷺ على رأسه وقال : بارك الله فيك
فكان قد بلغ (الغلام) سنّاً ، وكان له فضل وحال في قومه حتى
توفّي زمن الوليد بن عبد الملك اه .

النبي يبلغ قريشاً نواياه السلمية رسمياً :

وعندما استقر المقام بالنبي ﷺ في الحديبية ، (ولما كان قد
استبعد فكرة الحرب (أساساً) منذ خروجه من المدينة) بعث
إلى قريش من يبلغهم رسمياً ، أنه ﷺ لم يأت للحرب ، وإنما
جاء مسلماً ، لا هدف له من مجيئه سوى أداء مناسك العمرة ثم
الانصراف بعد ذلك إلى المدينة ، وطلب من مبعوثه الخاص
(خراش بن أمية الكعبي^(١)) في رسالة شفوية حمّله إياها إلى
قريش (أن يبلغهم ذلك ، ويحاول إقناعهم بأن يتركوا التصلب ،
فلا يتسببوا في إثارة حرب مدمرة لا ضرورة لها ، وذلك بأن
يخلوا بينه وأصحابه وبين مكة ليقضوا مناسكهم ثم يعودوا
إلى المدينة .

(١) هو خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي ، كان حليف بني
مخزوم ، قال ابن عبد البر : حضر خراش خيبر والحديبية وما بعدها
بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة فأذنه قريش وعقرت جملة ، وأرادوا
قتله ، فمنعته الأحابيش ، وذكر ابن الكلبي أنه كان حجاجاً ، حلق خراش
رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المروة في عمرة القضية ، قاله في الاصابة .

وكان مبعوث النبي ﷺ إلى قريش رجلاً من خزاعة (جارة قريش والتي ليست على خلاف معها بل كانت أقرب ما تكون إلى الحياء) .

وقد ذهب خراش بن أمية - الذي يمكن تسميته بمبعوث السلام - ، ذهب إلى قريش حيث تمسك بقضها وقضيضها وحلفائها ونساءها وأطفالها في وادي بلدح .. ذهب ليلفها عرض الرسول ﷺ المتضمن دعوتها إلى التخلي عن فكرة الحرب والجنوح إلى السلم ، ولكن مبعوث السلام لم يكديصل إلى معسكر قريش ليبلغ أشرافها رسالة النبي ﷺ حتى حال بينه وبين ذلك المتهورون منهم ، فهاجموه وعقروا الجمل الذي كان يركبه وحاولوا قتله ، لولا أن حماه عقلاؤهم من ذلك ، وكان الذي حاول قتله عكرمة بن أبي جهل .

قال الواقدي : وكان أول من بعث رسول الله ﷺ إلى قريش خراش بن أمية الكعبي على جمل لرسول الله ﷺ يقال له الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عن رسول الله ﷺ ما جاء له ويقول : إنما جئنا معتمرين ، معنا الهدئي معكوفاً ، فنطوف بالبيت ونحلب وننصرف . فمعقروا جمل النبي ﷺ ، والذي ولي عقره عكرمة بن أبي جهل وأراد قتله ، فمنعه من هناك من قومه حتى خلوا سبيله ، فرجع إلى النبي ﷺ ولم يكدي ، فأخبر النبي ﷺ بما لقي فقال : يا رسول الله ابعث رجلاً أمتنع مني ^(١) .

(١) أنظر الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٤٢١ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٤ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٩٣ .

وسيط السلام الأول :

ويذكر المؤرخون أن أول وفد من عرب المنطقة المجاورة للحرم قابل النبي ﷺ هو وفد خزاعة ، وكانت خزاعة عيبة نصح^(١) رسول الله ﷺ بتهامة ، منهم المسلم ومنهم المواع^(٢) لا يخفون عليه بتهامة شيئا .

فقد جاء الوفد منهم برئاسة بُدَيْل بن ورقاء فسلموا على رسول الله ﷺ ثم قال بُدَيْل بن ورقاء - وكأنه يحاول التوسط لتخفيف حدة التوتر بين الفريقين - : قد جئناك من عند قومك ، كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ، معهم العوذ المطافيل - الذساء والصبيان - يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تبعد خضراؤهم . وقد أجاب النبي ﷺ على الوسيط سيد خزاعة بقوله ﷺ : إننا لم نأت لقتال أحد ، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدنا قاتلناه ، وقريش قوم قد أضرت بهم الحرب ونهكتهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مدة يأمنون فيها ، ويخلصون فيما بيننا وبين الناس ، والناس أكثر منهم ، فإن ظهر أمري على الناس كلوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، أو يقاتلوا وقد جمعوا ، والله لأجهدن على أمري هذا حتى تنفرد سألقي أو ينفذ الله أمره .

(١) عيبة رسول الله : قال الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية (أي مروض الأمانة على مره) .
(٢) المواعة : معاهدة عدم الإحتداء .

بدیل بن ورقاء يتاثر بقول النبي ﷺ وينصح قريشاً بقبول عرضها السلمي :

ويظهر أن سيد خزاعة لم يأت وسيطاً من قبل قريش ، وإنما جاء من تلقاء نفسه بإذلاً لمساغيه الحميدة ليكون داعية سلام بين الفريقين ، كزعيم له وزنه وتأثيره ، لا يزال في موقف المحايد ، خارجاً عن دائرة الصراع بين المسلمين وقريش ، لأنه لم يكن حتى تلك الساعة قد أسلم ، وإنما كانت بينه وبين النبي ﷺ اتفاقية مودعة (معاهدة عدم اعتداء) كما أنه وقومه ليسوا في حالة حرب مع قريش .

والمتمتع فيما قاله النبي ﷺ لوسيط السلام بدیل بن ورقاء يجد أنه قول يحمل كل معاني الحصافة والمرونة والاتزان مع إعلان الثقة والقدرة العسكرية .

فهذا الرد النبوي الكريم يضمن الرغبة الصادقة الأكيدة في السلم وحقق الدماء ، إلا أنه في الوقت نفسه يتضمن التصريح بعدم الخوف من الحرب ، بل الترحيب بها إذا ما فرضتها قريش الشرك على المسلمين وعلى نفسها بغياً وبطراً ، كما تضمن الرد النبوي إبلاغ قريش بأن تزيل من مخيلتها (وإلى الأبد) فكرة الأمل في

(١) السالفة: صفحة العنق ، وكان هذا من النبي صلى الله عليه وسلم تعبيراً عن أنه لن يتغلب على دعوته حتى ولو كان في ذلك ذهاب روحه .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١١ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٩٣ .

أية تنازلات يعطيها النبي ﷺ على حساب الإخلال بمجهر
دعوته ، مهما كانت الظروف والأحوال .

ولقد وعى بدیل بن ورقاء ما سمع من النبي ﷺ بل وتأثر
به غاية التأثر ، وكان عمرو بن سالم الذي كان ضمن الوفد
الحزاعي ، أحد الذين تأثروا بما سمع من النبي ﷺ من دعوة
صادقة إلى السلام إلى درجة أنه كان يقول (وهو عائد مع بُدَیل
وكانه يخاطب قريشاً) : والله لا تُنصرون على من يمرض هذا
أبداً (يعني الممرض السلمي الذي كلّف النبي ﷺ بُدَیل بن
ورقاء - ضمناً - أن يمرضه على قريش حين يلقاها .

يطلبون مقاطعة الوفد الحزاعي :

وقبل أن يصل ساعي السلام بُدَیل بن ورقاء ووفده إلى
ممسكر قريش في وادي (بلُذح) حاول بعض المتطرفين من
سادات قريش الشباب حمل قريش على مقاطعة وفد السلام لأنهم
أدركوا سلفاً أنه ما جاء إلا ساعياً لإحلال السلام والمعمل على
منع نشوب الحرب بين النبي وقومه . فقد قال هؤلاء المتطرفون :
هذا بُدَیل وأصحابه إنما جاؤوا يريدون أن يستخبروكم ، فلا
تسألوهم عن حرف واحد .

فلما رأى بُدَیل وأصحابه أنهم لا يستخبرونهم قال بُدَیل :
إنا جئنا من عند محمد ، أتحبُّون أن نخبركم ؟ فقال عكرمة بن أبي
جهل والحكم بن العاص : لا والله ما لنا حاجة بأن نخبرنا عنه ،

ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً حتى لا يبقى منا رجل .

وكان عروة بن مسعود سيد ثقيف حاضراً يسمع ما يدور من حديث بين وفد خزاعة والمتطرفين من قريش ، لأن عروة حليف قريش ، وجاء من الطائف بقومه ليساندها عسكرياً ضد المسلمين إذا ما نشبت الحرب بينها .

لا يفلح قوم فعلوا هذا أبداً :

إلا أنه كسيد حاذق عنك ذي عقل راجح وتجارب عديدة استهجن صنيع عكرمة بن أبي جهل والمتطرفين من الشباب القرشي الطائش فقال : والله ما رأيت كالיום قط رأياً أعجب ، وما تكرهون أن تسمعو من بديل وأصحابه ؟ فإن أعجبكم أمر قبلتموه ، وإن كرهتم شيئاً تركتموه ، لا يفلح قوم فعلوا هذا أبداً .

وقد مال عقلاء مكة وأشرافها (فيهم الحارث بن هشام ^(١))

(١) هو الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أبو عبد الرحمن الخزومي ، أخو أبي جهل وابن عم خالد بن الوليد ، كان من أشراف مكة في الجاهلية ، مدحه الشاعر اليهودي كعب بن الأشرف عندما جاء إلى مكة يخوض قريشاً على المسلمين بمدة معركة بدر الكبرى .. شهد الحارث بدواً وأحداً مع المشركين ، ثم أسلم عام الفتح فحسن إسلامه حتى صار في عداد خيار الصحابة ، حضر الحارث سقيفة بني ساعدة (وكان يومئذ سيد بني مخزوم) ساهم في مناقشة الأنصار لصالح قريش عندما احتدم

وصفوان بن أمية) إلى الأخذ بنصيحة عروة بن مسعود ،
فأسكتوا المتطرفين من أبنائهم ، ثم قالوا لبُدَيْل بن ورقاء
ورجال وفد السلام الذين معه : أخبرونا بالذي رأيتم والذي سمعتم .

فأبلغهم رجال الوفد الحزاعي بما قالوه للنبي ﷺ وما قاله
لهم ، ثم أبلغوهم العرض الذي عرضه النبي ﷺ الذي يدعوهم
فيه إلى إقامة سلم بين المسلمين وقريش يأمن فيه كل من الجانبين
الأخر ولولمة معينة ، تبدأ هذه المدة بالسماح للمسلمين بأداء
مناسك عمرتهم ، وتقف قريش أثناءها موقف الحياد عندما
يشتبك النبي ﷺ مع باقي العناصر الوثنية ، فإن انتصر النبي
على باقي العرب دخلت قريش فيما يدخل فيه العرب ، وإلّا لم
ينتصر ، تستطيع قريش أن تقاوم المسلمين وهي على جانب كبير
من القوة .

= الخلاف حول (في من تكون الخلافة) ، وكان له مقال مشهور خالد يدل على
رجاحة العقل ومتانة الدين : (والله لولا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم
- الأئمة من قريش - ما أبعدنا منها الأنصار ولكافروا لها أهلاً ، ولكنه
قول لا شك فيه ، فوالله لو لم يبق من قريش كلها إلا رجل واحد لصبر الله
هذا الأمر فيه .. عندما تدفقت الجيوش الإسلامية خارج الجزيرة للجهاد ،
خرج الحارث من مكة بأهله مجاهداً إلى الشام ، وذلك في عهد عمر ، وما
زال يجاهد حتى توفاه الله وهو مرابطاً في حالة الجهاد ، وذكر الواقدي (كما في
الاصابة) أن الحارث مات في طاعون عمواس ، كان الحارث يضرب به المثل
في الشرف والسؤدد حتى قال الشاعر في ذلك :

أظننت أن أبالك حين تسبني في الجهد كان الحارث بن هشام
أولى قريش بالمكارم والندي في الجاهلية كانت والاسلام

قريش ترفض عروض السلام النبوية :

هذه خلاصة العرض النبوي للسلام والذي حمله بُدَيْل بن ورقاء الذي تبرع مشكوراً وجعل من نفسه ومن أصحابه (كما يقولون) حامة سلام بين الفريقين .

وبعد أن أبلغ بُدَيْل بن ورقاء وأصحابه رسالة النبي السلبية إلى قريش ، قال لهم - ناصحاً ومنتقداً في آن واحد - : يا معشر قريش ، إنكم تمجلون على محمد وإن محمداً لم يكن باعث حرب ، ولم يأت لقتال وإنما جاء زائراً لهذا البيت .. فشتموه واتهموه بالتحيُّز للمسلمين ثم أصرُّوا على موقفهم المتعنَّت قائلين : (حق) وإن كان جاء محمد ولا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، أريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده معتمراً .. تسمع العرب انه قد دخل علينا عنوة ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا كان هذا أبداً ، ومننا عين تطرف (١) .

الوسيط الثاني :

غير أن عروة بن مسعود الثقفي (٢) ، نصح حلفاءه بالتزام

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١١ وصحيح البخاري ج ٥ ص ٢٦٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣٦ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٩٣ - ٥٩٤ نشر جامعة أكسفورد ، طبعة دار المعارف المصرية ، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٦٦ ، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٢٥ وما بعدها .

(٢) هو عروة بن مسعود بن معتب بن مالك الثقفي ، سيد عظيم من =

جانب الاعتدال ، وأنكر عليهم رفض العرض النبوي الذي حله
إليهم بُديل بن ورقاء الخزاعي .

لقد كان عروة بن مسعود هذا سيداً مطاعاً في قومه وكان
(كما تقدم) حليفاً لقريش ومرابطاً مع قومه ثقيف في معسكر
قريش أثناء أزمة الحديبية ، وكان فوق ذلك له نسب وصهر في
قريش ، إذ كانت أمه سبعة بنت عبد شمس بن عبد مناف .

وكان هذا السيد الثقفي بحكم وجوده وحكم مركزه القيادي
في معسكر قريش (كقائد لقوات القبائل الثقفية الحليفة)
يرقب الأحداث والتطورات في أزمة الحديبية ، وكان يطلع
(بدقة) على ما يدور بين النبي ﷺ وقريش حول هذه الأزمة
الحادة ، مما جعله يدرك الصورة الصحيحة لموقف النبي ﷺ
وأصحابه ، وهي الصورة التي أعطت قريشاً حلفاءها من ثقيف

== سادات ثقيف ، كانت له اليد الطولى في تقرير صلح الحديبية ، أسلم سنة
تسع من الهجرة وحسن إسلامه ، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم (حكما
في صحيح مسلم) : عرض علي الأنبياء ورأيت عيسى ، فإذا أقرب من رأيت
به شياً هروة بن مسعود . بعد أن أسلم استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في
أن يلعب إلى قومه ثقيف ليدعوهم إلى الإسلام ، فقال صلى الله عليه وسلم :
إني أخاف أن يقتلك ، قال : لو وجدوني قائماً ما أيقظوني ، فأنت له ،
فدعاهم إلى الإسلام ونصح لهم فعضوه ، ثم قتلوه ، قتل رجل منهم بهم
فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال : مثل هروة مثل صاحب ياسين
دعا قومه إلى الله فقتلوه ، وقيل له : ما ترى في ذلك ؟ قال : كرامة أكرمني
الله بها وشهادة ساقها الله إلي .

والأحابيش عكسها إذ زعمت لهم أن محمداً ﷺ وأصحابه جاؤوا معتدين بقصد إهانة قريش والمس بكرامتها وإنهاء وجودها ، ولم تذكر لهم الحقيقة أو شيئاً منها ، وهي أن النبي وأصحابه لم يأتوا إلا "معتبرين مسالمين" ، وأن فكرة الحرب لم يكن لها أي وجود في أذهان النبي وأصحابه منذ أن غادروا المدينة في اتجاه مكة .

وعلى أساس الإدراك الصحيح والتقييم للموقف (كما هو) لدى عروة بن مسعود ، ولدى سيد الأحابيش الحليس بن زبآن تبين لهما أن النبي وأصحابه لم يكونوا مخطئين ولا معتدين حينما جاؤوا محرمين ، قاصدين تعظيم البيت فحسب ، لأن ذلك حق لهم كسائر العرب ، ليس من حق أحد أن يحول بينهم وبين مباشرته . وتكون لدى عروة بن مسعود (آئند) أن العرض النبوي الذي يدعو فيه قريشاً إلى السلم والموادعة ونبذ الحرب عرض عادل وخطئة رشد لا يجوز لقريش أن ترفضها ، لأن هذا الرفض يجعل قريشاً (أمام العرب) في الموقف البغيض الذي أراد سادات مكة أن يضموا النبي ﷺ فيه .

ولهذا فقد وجه عروة بن مسعود اللوم صراحة إلى حلفائه القرشيين ، ونصحهم بأن يقبلوا العرض النبوي القائم على أساس إنشاء معاهدة سلام بين المسلمين والقرشيين .

فقد قال لهم : يا معشر قريش تهمونني ؟ قالوا : ما أنت عندنا بمتهم ، ثم قال لهم : ألسنم الوالد وأنا الولد ؟ وقد استنفرت لكم

أهل عكاظ لنصرتكم ، فلما بلسحوا ^(١) علي نفرت اليكم بنفسي
 وولدي ومن أطاعني ، فقالوا : قد فعلت ، فقال : إني ناصح لكم
 شقيق عليكم ، لا أدخر عنكم نصحا ، وإن بُدِلا قد جاءكم بخطة
 رُشد (يعني العرض النبوي) لا يردّها أحد إلا أخذ شرا
 منها فاقبلوها منه .

ثم اقترح عليهم أن يكون مبعوثهم ووسيطهم إلى النبي ﷺ
 ليتفاوض معه ويتباحث حول هذا النزاع عساه أن يتوفق لحل
 هذه المشكلة الخطيرة التي كادت (بسبب تصلّف قريش
 وعنادها) أن تتحول إلى حرب ضروس مدمرة ، كلا الفريقين
 يخشى الإقدام عليها .

فقد قال عروة لقريش : إبعثوني حتى آتيكم بمصدقتهما من
 عنده (يعني الخطة التي عرضها النبي ﷺ على قريش ، وأكون
 لكم عيناً عليه آتيكم بخبره ^(٢)) .

عروة بن مسعود في معسكر المسلمين :

فوافقت قريش على أن يكون عروة مبعوثها إلى النبي ﷺ ،
 فذهب عروة إلى الحديبية ، وهناك استقبله النبي ﷺ كوسيط
 يمكن أن يكون في وساطته إبعاد لشبح الحرب الذي أصبح
 مطلاً بوضوح نتيجة بغْي قريش وعنادها .

(١) بلحوا : أي امتتموا من الاجابة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٣ ومغازي الراقي ج ٢ ص ٩٤

لقد كان سيد ثقيف يعلم يقيناً بأن الحق في جانب النبي
صحابه ، وأن الخطأ كان الخطأ في أن تصر قريش على منعهم
من دخول مكة لزيارة البيت وأداء مناسك العمرة ، ومع ذلك
لأنه كوسيط سياسي لقوم هم حلفاؤه وأصهاره ، فإنه قد تجاهل
هذه الحقيقة أثناء محادثاته التي أجراها مع النبي ﷺ في
الحديبية ، بل حاول في هذه المحادثات إلقاء اللوم على النبي ﷺ
وتحميله مسؤولية تصيد الأعداء ، بدت وكأنها تتحول إلى
حرب يتفانى فيها الفريقان ، فبدأ بذلك إقناع النبي ﷺ بل
تخويله ليخرج عروة حلفاء من برطلة ، وذلك لن يكون
إلا بأن يعود النبي ﷺ وأصحابه من أن يدخلوا مكة ،
ودونما أي قيد أو شرط ، وهذا ما حاول عروة بن مسعود أن
يركز في محادثاته لتحقيقه .

فقد قال عروة بن مسعود للنبي ﷺ : أجمعت أو شأب
الناس^(١) ثم بثت بهم إلى بيضتك (أي أصلك) لتفضها بهم .

ثم أخذ عروة يضرب على وتر الإشادة بقوة قريش
العسكرية والتلويح بأنهم قاصدة على منع النبي وأصحابه من
دخول الحرم إن هم أصرؤا على دخولهم فقال : (إنها قريش قد
خرجت معها المؤذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر يماهدون
الله أن لا تدخلها عليهم كعنة أبدأ ، يا محمد إني تركت قومك

(١) الأوشاب : الاخلاط ، مثل الأوباش.

كعب بن لؤي وعامر بن لؤي على أعداد^(١) الحديدية ، قد استنفروا لك أحابيشهم ومن أطاعهم ، وهم يقسمون بالله لا يخلطون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم ، وإنما أنت من قتالهم بين أحد أمرين ، أن تجتاح قومك ، ولم نسمع برجل اجتاح أصله قبلك ، أو بين أن يخذلك من نرى معك .

ثم حاول عروة أن يضعف من ثقة النبي ﷺ في أصحابه ويدخل في روعه أنه لا يمكنه الإعتماد عليهم إذا تحول النزاع إلى حرب شاملة بينه وبين قريش ، فقال : (وأيم الله يا محمد لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك إني لا أرى معك إلا أوباشاً من الناس لا أعرف وجوههم وأنسابهم ، خليفاً بهم أن يفروا ويدعوك^(٢) .

مشادة بين الصديق وعروة بن مسعود :

وكان أبو بكر الصديق واقفاً خلف النبي ﷺ أثناء المحادثات ، فغضب غضباً شديداً لقول عروة بن مسعود الذي هدّد فيه النبي ﷺ بقوة قريش وتنقّص أصحابه ، وقال أبو بكر لعروة (غاضباً) : أعضض بظفر اللات ، (واللات صنم ثقيف) ألحن نقرّ عنه ٢٢ .

(١) الأعداد: قال في الاصحاح: جمع المد (بكسر أوله) وهو الماء الذي له مادة لا تنقطع ، كماء البشر والعيّن .

(٢) أنظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٣ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٩٤ وما بعدها ، وتاريخ الطبراني ج ٢ ص ٦٢٦ .

فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ .

فقال النبي ﷺ : هذا أبو بكر بن أبي قحافة .

فقال عروة (يخاطب أبا بكر) : أما والله لولا يد لك عندي لم أجرك بها بعد لا أجبتك ^(١) .

مفارقة رائعة :

ومن عجائب المفارقات التي يستشف منها الدليل القاطع على قدرة تعاليم الاسلام على تحويل الانسان من شيطان مريد إلى آدمي مثالي فاضل نبيل ، ان المغيرة بن شعبه ^(٢) الثقفي (ابن

(١) كانت اليد التي لأبي بكر الصديق على عروة بن مسعود أنه كانت سيداً في قومه يحمل الديات للفض المنازعات القبلية ، فحمل مرة دية فاستعان بالأشراف فأعانه بالفريضة والثلاث وأعانه أبو بكر بعشر فرائض ، فكانت هذه هي اليد التي لأبي بكر عند عروة .

(٢) هو المغيرة بن شعبه بن أبي عامر بن مسعود (الثقفي) يكنى بأبي عيسى وأبي محمد ، كان من الشباب الفاتك في الجاهلية ، طوال من الرجال ضخيم قوي ، عبل الذراعين بعيد ما بين المنكبين ، يعد من الشجعان ، وكان من قطاع الطرق والعادين على الناس في الجاهلية ، من المهاجرين ، أسلم قبل الحديبية ، وكانت أولى مشاهدته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . شهد بيعة الرضوان ، فكان من أهل الشجرة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلن الله في القرآن رضاه عنهم (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك الآية) ، وسكان من دهاة العرب المشهورين ، قال قبصة بن جابر : صحبت المغيرة فلو أن مدينة لها ثلاثة أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالسر خرج المغيرة من أبوابها كلها ، كانت من قادة الفتح الاسلامي ، ولله الحليفة عمر البصرة ، فغزا ميسان وهمدان وفتحها مع عدة بلاد أخرى ، حضر حروب =

أخي عروة بن مسعود) كان أحد الذين يتولون حراسة النبي الأعظم ﷺ أثناء محادثاته مع عروة .

وكان المغيرة (قبل أن يهديه الله للإسلام) شاباً صعلوكاً مكبراً قاطع طريق ، غير أن اعتناقه للإسلام حوَّله إلى إنسان آخر ، صار من الصفوة المختارة والشباب المؤمن القوي الذين اختيروا

= الفرس في عهد عمر ، وكان ضمن الوفد الذي أرسله القائد سعد إلى قائد الفرس الأعلى للتفاوض ودعوتهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وهو الذي خرق برعته بساط رستم ، وجلس معه على سريره تحدياً ، ولما غضب حراس رستم ، فعبذوه من الكرسي بالقوة ، قال : الآن علمت أن ملككم سيؤول ، كان أحسن من الذي صنعت لو أخبرتموني أن بعضكم أرباباً لبعض ، إننا معشر المسلمين نتسارى ، وفي صحيح البخاري أن المغيرة كان من مستشاري القسائد التقى الورع العظيم النعمان بن مقرن ، فائع نهاوند التي يسمى فتحها بفتح الفتوح ، لأنه لم تقم للفرس بعد فتحها قائمة ، عزل الخليفة عمر المغيرة بعد تلك التهمة التي وجهت إليه والتي جلد بسببها الخليفة ثلاثة من الصحابة بسبب عدم ثبوت هذه التهمة شرعاً .. كذلك ولاء الفاروق إمارة البحرين ، وكان المغيرة ، أول من سلم عليه بالإمارة .. عندما نشب الصراع الدامي المؤسف بين علي ومعاوية ، اعتزل المغيرة الفريقين والتزم الحياد ، إلا أنه في النهاية بايع معاوية عندما اجتمع عليه المسلمون بعد مقتل أمير المؤمنين علي وتنازل الحسن رضي الله عنهم أجمعين . شهد المغيرة معركة اليرموك التاريخية ، وفقد فيها إحدى عينيه ، فصار بعدها أعور ويسميه خصومه السياسيون بأعور ثقيف تنقصاً له ، ولاء الخليفة معاوية الكوفة فاستمر عليها والياً حتى مات سنة خمسين ، قال الطبري : لا يقع المغيرة في أمر إلا وجد له مخرجاً ، ولا يلتبس عليه أمران إلا ظهر الرأي في أحدهما ، اشترك المغيرة مع أبي سفيان في هدم اللات طاغية ومعبود ثقيف ، وكان قد عرف مصر حيث سافر إليها وقابل القوقس في الجماهلية وكان إسلامه عقب عودته من مصر .

للقيام بمهمة حراسة النبي ﷺ في ذلك الجو الملبد بنجوم الحرب.

يقرع عنه بقائم السيف :

وكان من عادة العرب في الجاهلية أن يمسك الزعيم بلحية الذي يراه نداءً له أثناء الحديث ، وعلى هذه القاعدة ، كان عروة ابن مسعود يمسك بلحية رسول الله ﷺ أثناء المناقشة . . الأمر الذي استهجنه المغيرة بن شعبة ، فانتهر عمه وزجره وقرع يده بقائم السيف قائلاً :

أكف يدك عن مسّ لحية رسول الله قبل أن لا تصل إليك.
فاستمظم عروة (الزعيم) هذا التهديد من الحارس المغيرة قائلاً :

ويحك ما أفظك وأغلظك .

وكان النبي ﷺ يبتسم للذي يحري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المسلم .

ولما كان المغيرة لابساً معدة الحرب ومكفراً بالدرع لم يعرفه عمه عروة ، ولذلك سأل النبي ﷺ - وهو يكاد يتميز من الفيظ - : (يا محمد ليت شعري من هذا الذي آذاني من بين أصحابك ، والله إني لأحسب فيكم الأم منه ولا شرّ منزلة .

فتبسم رسول الله ﷺ لهذه المفارقة العجيبة وقال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة .

فازداد غيظ عروة وكاد أن يخن من الغضب ، وقال : أي
 'غدر' (أي يا غادر) : والله ما غسلت غدرك بعكاظ إلا بالامس
 وقد أورتتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر (١) ؟

(١) يشير عروة بن مسعود إلى ما ارتكبه ابن أخيه المغيرة في الجاهلية من
 قتل ثلاثة عشر رجلاً من قومه بني مالك ، فقد روى الواقدي (وهو
 يتحدث عن محادثات عروة في الحديث) : ان المغيرة بن شعبة (وكان شجاعاً
 فاتكاً) خرج من نفر من بني مالك بن حطيظ بن جشم بن قسي - والمغيرة
 أحد ذوي الألباب - ومع المغيرة حليفان له يقال لأحدهما : دمون - رجل
 من كندة - والآخر الشريد ، وإنما اسمه عمرو ، فلما صنع المغيرة بأصحابه
 ما صنع شرده ، فسمي الشريد .. وخرجوا إلى القوقس صاحب الاسكندرية
 فجاء بنو مالك وآفروهم على المغيرة ، فأقبلوا راجعين ، حتى إذا كانوا ببيسان
 شربوا مخراً ، فكف المغيرة عن بعض الشراب وأمسك نفسه ، وشربت بنو
 مالك حتى سكروا ، فوثب عليهم المغيرة فقتلهم ، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً .
 فلما قتلهم ونظر إليهم دمون تغيب عنهم ، وظن أن المغيرة إنما حله على قتلهم
 السكر ، فجعل المغيرة يطلب دمون ويصبح به فلم يأت ، ويقلب القتلى فلا
 يراه فبكى .. فلما رأى ذلك دمون خرج إليه فقال المغيرة : ما غيبك ؟
 قال : خشيت أن تقتلني كما قتلت القوم . قال المغيرة : إنما قتلت بني مالك
 بما صنع بهم القوقس . قال : وأخذ المغيرة أمتعتهم وأموالهم ولحق بالنبي
 صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا أخيه (أي مال
 المقتولين) ، هذا غدر . وذلك حين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم .
 وأسلم المغيرة .

وأقبل الشريد (دمون الكندي) . فقدم مكة فأخبر أبا سفيان بن حرب
 بما صنع المغيرة ببني مالك ، فبعث معاوية بن أبي سفيان إلى عروة بن مسعود
 يخبره الخبر - فقال معاوية : خرجت حتى إذا كنت بنعمان (نعمان وادي
 لهذيل على لبتين من عرفات يقع بين مكة والطائف تقطعه اليوم السيارات وهي
 في طريقها من مكة إلى الطائف) ، قلت في نفسي : أين ؟ - إن سلكت - =

حاول عروة بن مسعود تخويف النبي ﷺ ليعود من حيث أتى ، وحاول التأثير عليه (عن طريق التلويح بعظمة قوة قريش) بأن من مصلحته ومصلحة أصحابه أن يزيلوا من أذهانهم

== ذا غفار فهي أبعد وأسهل ، وإن سلكت ذا الملق فهي أغلظ وأقرب ، فسلكت ذا غفار ، فطرت عروة بن مسعود ، قال معاوية : فخرجنا إلى مسعود بن عمر والمالك فناداه عروة ولم يكن قد كلمه من عشر سنين ، فقال : من هذا ؟ فقال : عروة . فأقبل مسعود الينا يقول : أطرت عراية أم طرقت بداهية ؟.. بل طرقت بداهية !.. أقتل ركبهم ركبنا أم قتل ركبنا ركبهم ؟.. لو قتل ركبنا ركبهم ما طرقتي عروة بن مسعود ! فقال عروة : أصبت ، قتل ربي ركبك يا مسعود ، أنظر ما أفت فاعل ، فقال مسعود : إلي عالم بعده بني مالك وسرعتهم إلى الحرب ، فهبني صمتاً ، قال : فانصرفنا عنه فلما أصبح غدا مسعود فقال : يا بني مالك ، إنه قد كان على أمر المفيرة بن شعبة أنه قتل اخوانكم بني مالك فأطيعوني وخذوا الدية ، اقبلوها من بني عمكم وقومكم . قالوا : لا يكون ذلك أبداً ، والله لا تترك الاحلاف أبداً حين تقبلها . قال : أطيعوني واقبلوا ما قلت لكم ، فوالله لكأنني بكثافة بن عبد ياليل قد أقبل لضرب درعه وروحي رجله ، لا يعانق رجلاً إلا صرعه ، والله لكأنني بعند بن عمرو وقد أقبل كالسيد (السيد بكسر السين مع التشديد : الذئب) عاضاً على سهم مفوق بأخر ، لا يسير إلى أحد بسهمه إلا وضعه حيث يريد ، فلما غلبوه أعد للقتال واصطفوا ، أقبل كثافة بن عبد ياليل يضرب درعه وروحي رجله يقول : من مصارع ؟ ثم أقبل جندب ابن عمرو عاضاً على سهم مفوقاً بأخر . قال مسعود : يا بني مالك أطيعوني ! قالوا : الأمر إليك قال : فبرز مسعود بن عمرو فقال : يا عروة بن مسعود اخرج إلي ! فخرج إليه ، فلما التقيا بين الصفيين قال : عليك ثلاث عشر دية فإن المفيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلاً فاحمل بدياتهم . قال عروة : حملت بها ، هي علي . قال : فاصططح الناس ، فذلك الذي عناء عروة بن مسعود حينما قال للمفيرة : (والله ما غسلت غدرك بمكأظ إلا بالأمس) .

فكرة الأمل في الطواف بالبيت ما دام لقريش سلطان في مكة .

ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل ، وأصر النبي ﷺ على أن من حقه ومن حق أصحابه أن يدخلوا مكة ويطوفوا متى شاءوا ، إلا أنهم لن يتمتعوا بالأمور لنيل هذا الحق عن طريق اقتحام مكة بمجد السلاح .. وذلك رغبة منهم في حقن الدماء ، وأملًا منهم في أن يصحو عقلاء قريش من فكرة طغيانهم فينتهجوا أي نهج به يحولون دون سفك الدماء ، ويفسحون الطريق للمسلمين ليباشروا حقهم الطبيعي في زيارة بيت الله الحرام شأنهم في ذلك شأن كل العرب .

وهكذا انتهت المفاوضة بين النبي ﷺ وعروة بن مسعود ، دون أن يتم التوصل إلى أي اتفاق ينهي الأزمة .. إلا أنه من خلال هذه المحادثات أكدت لعروة بن مسعود صدق نوايا المسلمين السلمية وأنهم (فعلاً) إنما جاؤوا في رحلة روحية خالصة (معتمرين لا محاربين) وأن قريشاً إنما تفتري وتكذب على المسلمين حيناً تروج بين عامة المشائر والأعراب ، أن النبي ﷺ وأصحابه إنما جاؤوا ليهتكوا حرمة مكة فيدخلوها عنوة بقصد الحرب .

ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة يا معشر قريش :

لذلك عاد الوسيط الثاني إلى حلفائه قريش (بعد أن فشل في حمل النبي على تنفيذ رغبة قريش بالانسحاب والعودة إلى

المدينة دون أن يطوف بالبيت ودونما أية ضمانات تعطى له (عاد الوسيط حاملاً إليهم نهاية مفاوضاته الفاشلة ، وحاملاً لهم التحذير ومُسنداً لهم النصح بأن يحنوا رؤوسهم للعاصفة لتمر بسلام ، بأن يخفّفوا من غلوائهم .

كما نصّحهم (في صراحة متناهية) بأن لا يورطوا أنفسهم في صدام مسلّح مع النبي ﷺ وأصحابه ، لأن الهزيمة (حسب ملاحظاته وتقديراته) ستكون من نصيب حلفائه القرشيين إن هم تسرّعوا ، وتعجلوا العدوان .

وقد بانّت له هذه الحقيقة التي لم يخفها عن حلفائه .. بانّت له على ضوء ما لمسّه ورآه من تماسك وحدة القوى الإسلامية داخل معسكر محمد بشكل لم يسبق له أن سمع أو رأى مثله ، وعلى ضوء ما رآه من حب عجيب بين المسلمين لبعضهم ، وتقانٍ أعجب في حمايته والدفاع عنه .

فقال عروة لسادات مكة : يا معشر قريش إني قد وفدت على الملوك ، على كسرى وهرقل والنجاشي ، وإني والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرائه من محمد في أصحابه ، - والله ما يشدّون إليه النظر ، وما يرفمون عنده الصوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيفعل ، وما يتنخّم وما ييبصق إلا وقعت في يدي رجل منهم يمسخ بها جلده ، وما يتوضأ إلا ازدحموا عليه أيّهم يظفر منه بشيء ، وقد حذرت القوم ، واعلموا إن أردتم السيف بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً ما يبالون

ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم ، والله لقد رأيت نسيات
(تصغير نسوة) معه ان كنّ ليسلنّه أبداً على حال فرّوا
رأيكم ، وإياكم وإضجاع الرأي (١) .

عروة بن مسعود ينصح قريشاً :

ثم فصّحهم بأن يقبلوا ما عرض عليهم النبي ﷺ من مهادنة
تنهي حالة الحرب بينهم ، وحذّروهم أن يذهب بهم الطيش إلى
الدخول في صدام مسلّح مع المسلمين ، لأنّه واثق من عدم
انتصارهم عليهم ، وكرّر مرة أخرى انتقاد قريش لإصرارها على
منع المسلمين من دخول الحرم فقال : (وقد عرض عليكم خطة
فهادّوه (٢) يا قوم ، اقبلوا ما عرض فلاني لكم ناصح ، مع أفي
أخاف ألا تنصروا عليه ، ثم قال مستنكراً فعل قريش في
تمجّبت : رجل أتى هذا البيت معظماً له معه الهدى ينحره
وينصرف (٣) .

ولدى سماع سادات مكة وزعمائها حديث حليفها عروة بن
مسعود (الذي هو أشبه بالتقرير الدقيق الصحيح يقدمه لهم عن حقيقة
الموقف) .. أسقط في أيديهم ورأوا أن لا مناص لهم من أن

(١) إضجاع الرأي قال في القاموس : (هو الوهن في الرأي) .

(٢) مادّوه : (أي اجعلوا بينكم وبينه عهد سلام لمدة من الزمن ، وكان
النبي صلى الله عليه وسلم قد عرض عليهم ذلك في رسالة شفوية اليهم مع بديل
ابن ورقاء الخزاعي كما تقدم .

(٣) أنظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٩٨ وما بعدها .

ينعنوا للمصافة فقرروا التخلي عن فكرة منع المسلمين من دخول الحرم (أبدأ) وقرروا أن يسمحوا للمسلمين بدخول مكة، ولكن بصورة تحفظ لهم شيئاً من ماء وجوههم، وهي أن يعود النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة هذا العام ثم يأتوا ليدخلوا مكة ويطوفوا ويسعوا في العام القادم .

وهو الأمر الذي ما كانت قريش لتوافق عليه مطلقاً عندما ركبت رأسها وأعلنت أنها ستمنع المسلمين من دخول مكة أبد الآبدين .

وقد أفصحوا لحليفهم (عروة) عن مشروعهم هذا، وأنهم سيعرضون الصلح على النبي ﷺ على أساس هذا المشروع، رجاء أن يقبله كحل وسط للزمة .

فقد قالوا لعروة : (راجين منهم كتمان ما صارحهم به) : لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور (وهذه كنيته) ، ولكن، نرده عامنا هذا ويرجع إلى قافل (أي ليأتي وأصحابه ليدخلوا مكة في العام التالي) ، فقال عروة (وقد بدا عليه الرضى حتى بهذا المشروع) : ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة .. ثم انصرف ومن معه من ثقيف إلى الطائف (١) .

أول الشقاق في معسكر الشرك :

كان رجوع عروة بن مسعود الثقفي بقومه إلى الطائف

(١) أنظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣٩ .

(احتجاجاً على تشدد قريش وتعنتها) أول انشقاق عملي في المعسكر القرشي ، إذ أضعف انسحاب عروة بن مسعود بقومه من معسكر قريش مركز هؤلاء القرشيين إلى حد كبير .

ومع ذلك ومع رغبتهم في الصلح وخوفهم من الصدام المسلح ظلوا على عنادهم يتظاهرون بأنهم مصممون على منع المسلمين من دخول مكة مهما كانت النتائج .. وذلك مناورة وأملاً منهم في أن يضيق المسلمون لطول المقام في الحديبية محرمين 'شعثاً غبراً' فيضطروا للعودة إلى المدينة دون أن يطوفوا بالبيت ، ودون أن يحصلوا على ضمان يضمن لهم دخول مكة معتمرين .

وزاد قريشاً طمعاً في هذا وشجّعها على الاستمرار في المناورة والتهديد ، أن النبي ﷺ أعلن عسدم رغبته في الحرب ، وأنه مستعد لقبول أية خطة تعرضها قريش يكون فيها حقن الدم وصيانة حرمة الحرم .

وبالرغم من أن الوسطاء لحل المشكلة يأتون دائماً من جانب قريش ، فكلّهم يأتي إلى النبي ﷺ وهو يحمل الطلب من قريش بأن يعود المسلمون من حيث أتوا — كما تقدم — فقد ظل الجو متوتراً وزاده توتراً طول احتباس المسلمين في الحديبية .

فقد ثقل عليهم المقام هناك ممنوعين من دخول الحرم كل هذه المدة .. الأمر الذي لا يمكن أن يظلوا صابرين عليه إلى ما لا نهاية فللصبر حدود .. لا سيما وأنهم قادرون على اقتحام مكة وموقعون

بأن القوات القرشية لن تقوى على الصمود أمامهم إذا ما أقدموا على ذلك .

الوسيط الثالث :

كان مكرز بن حفص^(١) من شياطين قريش وعلماً من أعلامها ، وكان مشهوراً بالمرأوة والقدرة والحنن .

لذلك عندما فشل وسيطها الثاني (عروة بن مسعود في وساطته لدى النبي ﷺ) بعثت قريش بمكرز هذا إلى الحديبية وسيطاً لدى النبي ﷺ لعله (بوساطته أو قل : بدهائه) يحقق كسباً لقريش في هذه الأزمة التي بدا لقريش أنها تزداد استعصاء وتعقداً ، لا سيما بعد أن فارقها أحد حلفائها الأقوياء (عروة بن مسعود) الذي انسحب بقومه من معسكرها احتجاجاً على تعنتها وعدم إصغائها لنصحه وبماطلتها في قبول خطة السلم التي عرضها النبي ﷺ عليها بواسطة سيد خزاعة ، بديل بن ورقاء .

فشل الوسيط الثالث :

وصل الوسيط الثالث ، مكرز بن حفص ، إلى الحديبية للاجتماع بالنبي ﷺ لبحث موضوع الازمة القائمة بين الفريقين .

(١) هو مكرز بن حفص بن الأخيف، قرشي من بني عامر بن لؤي، اختلف في إسلامه ، فقد ذكره ابن حبان في الصحابة ، وذكر المرزباني في معجم الشعراء انه لم يسلم ، وهو الذي حضر بعد الهجرة الى المدينة وافتدى سهيل ابن عمرو بعد أن وقع أسيراً في معركة بدر .

وعندما رآه النبي ﷺ مقبلاً ، قال : هذا رجل غادر .
إلا أن النبي ﷺ استقبل مكرزاً في مقر قيادته في الحديبية
ولم يرفض مقابلته بالرغم من علمه بأنه من النوع الفادر الذي
لا يوثق به .

وقد أجرى مكرز مع النبي ﷺ محادثات حول مجيئه ،
وكانت محادثات مكرز بن حفص تتركز - على ما يظهر - حول
إبلاغ النبي ﷺ رغبة قريش في أن يعود من حيث أتى ، وإلا
فإن قريشاً قد صممت على منع المسلمين من دخول مكة .

غير أن مكرزاً لم يسمع من النبي ﷺ جواباً على كل ما قاله
- أكثر مما أعلنه صراحة للوسيطين السابقين (بُدَيْل بن ورقاء
وعروة بن مسعود) ، وأبلغه قريشاً رسمياً ، وهو أنه لم يأت
لقتال ، وإنما أتى زائراً معظماً للبيت - إلا أنه مع ذلك مستعد
لمقاتلة من يقاتله .

فعاد مكرز إلى قريش وأبلغها تسك النبي ﷺ بموقفه
الذي أعلنه للوسيطين (عروة) و (بُدَيْل) .

الوسيط الرابع :

وعندما لم يفلح مكرز بن حفص العامري في وساطته لجأت
قريش إلى سيد الأحابيش ، الحليس بن زبثان ^(١) حليفها الأكبر ،

(١) تقدمت ترجمة الحليس في هذا الكتاب .

فطلبت منه أن يكون وسيطها الرابع لدى النبي ﷺ عسى أن يتمكن من حلّ هذا النزاع الخطير لصالحها .

فقد كان الحليّس بن زبّان ذا عقل راجح وبصيرة نافذة ، وكان سيداً مطاعاً .. وكان النبي ﷺ يعرفه ويعرف فيه التآلف الشديد والتعظيم للحرم .

لذلك كانت قريش - حينما اختارته وسيطها - تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب ، ولما يتمتع به من تقدير لدى النبي ﷺ - تأثير على الرسول ﷺ وأصحابه ، تكون نتيجة عودتهم من حيث أتوا دون أن يدخلوا مكة أو يحصلوا على ضمان يضمن السماح لهم بدخولها في وقت آخر .

أخطر انشقاق في معسكر قريش :

غير أن الذي حدث ، هو أن وساطة سيد الأحرابيش جاءت لقريش بعكس ما كانت تأمل ، حيث كانت نتيجة هذه الوساطة نقطة التحوّل الحاسم لصالح المعسكر الإسلامي ، وتأييداً للمبدأ والفكرة والتي يتمسك بها النبي ﷺ وأصحابه ، وهي أن من حقهم الطواف بالبيت وليس لأحد كائناً من كان أن يحول بينهم وبين مباشرة هذا الحق .

فقد قبل الحليّس بن زبّان أن يكون وسيط قريش إلى إبنا النبي ﷺ .. كانت قريش تزيف الحقائق وتلبس على حليفها الحليّس وأمثاله بأن محمداً ﷺ وأصحابه إنما جازوا بفناء

معتدين يريدون هتك حرمة البيت بالحرب والقتال .
فكان سيد الأحابيش - حتى وصوله معسكر المسلمين في
الحديبية - يحمل في قرارة نفسه عن المسلمين هذه الفكرة
الحساسة التي رستبتها في الأذهان دعايات المشركين وأبواق
الوثنيين القرشيين .

ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت :

توجّه الوسيط الرابع (الخليس بن زبّان) من معسكر
قريش داخل الحرم إلى حيث يعسكر النبي ﷺ بأصحابه خارج
الحرم في الحديبية .

فلما رآه النبي ﷺ مقبلاً ، قال لأصحابه : إن هذا من قوم
يتألهون (أي يتعبّدون) ويعظمون الإله ، ابعثوا الهدى
(بفتح الهاء وسكون الدال ، وهي الإبل التي تساق لنحرها في
الحرم تقرباً إلى الله) في وجهه حتى يراه ، ففعلوا .

فلما رأى الخليس الهدى يسيل عليه بقلائده من عرض
الوادي قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله (أي موضعه
الذي ينحرف فيه من الحرم) ورأى المسلمين قد استقبلوه يلبّون
وقد شعوا من طول المكوث على إحرامهم .. صاح (مستنكراً
تصرف قريش) : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا
عن البيت .

أبى الله إلا أن يحجَّ لَنَحْمِ وَجُذَامَ وَفَهْدَ ، وَحِمِيرَ وَيَمْنَعُ
إبن عبد المطلب ؟؟

ثم شدَّد نكيره على قريش قائلًا : هلكت قريش وربّ
الكمة ، إنما القوم (يعني المسلمين) أتوا عمَّاراً .

فقال له النبي ﷺ : أجل يا أخا بني كنانة ^(١) .

ودون أن يفتح سيد بني كنانة النبي ﷺ أو يفاوضه كما
كلّفته قريش ، انصرف راجعاً إعظاماً لما رأى ومقتنعاً بأن قريشاً
غير محقّة في تصرفها إزاء المسلمين .

ولما عاد إلى قريش قال لها : إني قد رأيت ما لا يحل صدّه ،
رأيت الهدني في قلائده قد أكل أوباره ، معكوفاً عن محله ،
والرجال قد تفلوا وقملوا أن يطوفوا بهذا البيت ! أما والله
ما على هذا حالنا كم ، ولا عاقدنا كم على أن تصدّوا عن بيت الله
من جاء معظماً لحرمته مؤدياً لحقه وساق الهدى معكوفاً أن
يبلغ محله ^(٢) .

ففضبت فريش لصراحتة ، ورأت في هذه الصراحة تقوية
لحجة النبي ﷺ وإسناداً لمنطقه ، لذلك قالت للحليس (ساخرة) :
إجلس إنما أنت أعرابي ولا علم لك ^(٣) .

(٢١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣٧ .

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٠ .

سيد الأحابيش ينذر قريشاً :

وهنا غضب هذا السيد الكناني لقول قريش هذا غضباً شديداً ، ثم هددها بإلغاء الحلف الذي بينه وبينها والالتحياز إلى جانب المسلمين إذا لم تقلع عن غيها ، فتفسح الطريق للنبي وأصحابه ليطوفوا بالبيت كسائر العرب ، فقال : (يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالنا كم والذي نفس الحليس بيده لتخلصن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ^(١) .

وكان هذا الإنذار من سيد الاحابيش الذي أملته عليه الرجولة ، كافياً لأن يُحدث الذعر والفرع بين صفوف المشركين في مكة ويجعلهم يفكرون ملياً في إعادة النظر في موقفهم المتعنّت المتصلف الذي وقفوه من المسلمين .

فقد كان تهديد سيد الأحابيش بنسف التحالف الذي بينه وبين قريش إذا لم يخلصوا بين النبي وأصحابه ليطوفوا بالبيت ، يعني أن أخطر انشقاق بل أخطر تمرد سيحدث في ممسكك الشرك في مكة التي كانت في حالة تأهب واستنفار للحرب .

لأن الأحابيش الذين هم تحت قيادة الحليس بن زبّان الكناني يمثلون عدة قبائل قوية غير قرشية صارت قرشية بالحلف تسالم من سالم قريشاً وتحارب من حاربها .

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٢٨ .

وهذه القبائل هي بنو الهون بن خزيمه ، وبنو الحرث بن عبد مناف بن كنانة .. وبنو المصطلق بن خزيمه .

وخروج هذه القبائل على القرشيين وإلغائها الحلف الذي بينها وبينهم يعتبر بمثابة ضربة صاعقة للمعسكر القرشي وخاصة في ذلك الظرف الحرج الذي بلغ فيه التوتر ذروته بين المسلمين ومشركي مكة .

لذلك اهتز المعسكر القرشي لتصريحات سيد الأحابيش الذي كان يمني كل كلمة قالها في إنذاره الموجه لطفاة مكة وعتاتها . فتجسد لسادات مكة ما يهددهم من خطر الإنقسام بعد الموقف المشرف الذي وقفه سيد الأحابيش ، ضد طغيانهم .

وتبين لسفهاء قريش وعقلائها على السواء أن النفوس - حتى وإن لم يكن أصحابها مسلمين - ليست كلها بالتي ترضى البغي وتقرير العدوان والظلم والتعسف .. وذلك على ضوء ما سمعته من حليفها المشرك سيد الأحابيش الذي شجب تصرفاتها التعسفية وحملها مسؤولية تأزيم الموقف الذي يهدد بانفجار حرب ليس لها من مبرر إلا المنهجية والنزق .

وعلى أثر موقف سيد الأحابيش الحازم الجاد المنبثق من جداول الخلق العربي الأصيل ، لم يعد لدى قريش أدنى شك في أن المشهورين والسفهاء ودعاة الحرب منها قد أوقعوها في ورطة كبيرة ، عندما استجابت لهم ، فركبت رأسها (بعد أن نفخ

الشیطان فی مناخر زعمائها) فأعلنوا بأنهم سیصدون النبی ﷺ وأصحابه عن البیت ، ولو استدعی ذلك امتشاق الحسام وصدّهم عن طریق الحرب . بالرغم من تأکدهم من نوايا المسلمين السلمیة واستیقانهم بأنهم لم یأتوا محاربین وإنما معتمرین زائرین للبیت .

البحث عن مخرج من الورطة :

وبعد غضبة سید الأحابیش لتصرفات قریش الرعناء ، وإنذاره الصریح الشدید الذي وجهه إلیها أحد ساداتها وزعمائها یبعثون جدّياً عن مخرج ینقذهم من الورطة التي وقعوا فیها أنفسهم ورأت أن هذا المخرج لن یكون إلا بعقد صلح یتّم بینها و بین النبی ﷺ یحفظ لها ماء وجهها ، بعد أن أقسمت أن لا یدخل محمد علیها مکة أبداً حتی تغنی عن بکرة أبیها .

وتمیّداً للظفر بهذا الصلح الذي لا سبیل لقریش إلی الخروج من ورطتها إلا بالظفر به ، أخذت فی ملاطفة حلیفها الأكبر سید الأحابیش (بعد أن أسمعها کلمات الرجولة والعدل) تلك التي أداخت باطلها وأزالت عنها کل فعالیات سکر البغی والطفیان ، حتی صحت کل الصحو لترى جريرة تعنتها وبطرها تکاد تحیق بها ویلاتها من کل جانب .

فقد طلب سادات قریش (فی رجاء) من سید الأحابیش الذي أعلن أنه سینحاز إلی جانب الحق إذا لم ترجع قریش عن غیبتها فتغلی بین المسلمين و بین البیت .. طلبوا منه أن ینمّهم الفرصة الکافیة لیبعثوا عن مخرج من ورطتهم قائلین : (مه ،

كف عنا يا حليس ، حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى ، وكان الذي يرضون هو الصلح الذي أبرموه مع النبي ﷺ كما سيأتي .

وقد أجابهم سيد الاحابيش إلى ما طلبوا ، فلم ينسحب من حلقهم بعد أن رأى أن ثمار إنذاره قد آتت أكلها بتراجع قريش عن موقفها المتصلب وسعيها للصلح مع المسلمين .

لقد أوقعت تصريحات سيد الاحابيش الشديدة قريشاً في مأزق حرج للغاية ، وزاد من موقفها حرجاً ان ارتفعت أصوات كثيرة (بعد تصريح سيد الاحابيش) داخل المعسكر القرشي تستهجن الحماقة التي أقدمت عليها قريش بمنعها المسلمين وصدتهم عن البيت بنياً وعدواناً .

إن قريشاً وجدت نفسها في نهاية المطاف في موقف لا تحسد عليه .. بين جذب وشد .. تتخبط في جو من الحيرة والتردد .

فلا شيء أثقل على نفسها من أن يدخل محمداً وأصحابه وهم على هذه الهيئة من العزة والقوة والمنعة ، وهم بالأمس القريب خرجوا من مكة ضعفاء خائفين ، يتحسسون رؤوسهم وهم يفادرون مكة في جنح الظلام خلصة .

ماذا سيكون مصير مركز قريش الروحي والسياسي המתنازين بين العرب وأكثرهم يوم ذاك لا يزال على الشرك يدين لقريش بالريادة والقيادة لمكائنها من البيت) ؟ .. ماذا سيكون مصير مركزها بين عرب الجزيرة إذا ما علموا أن محمداً وأصحابه

البالغ عددهم ألفاً وخمسمائة ، قد دخلوا مكة آمنين مطمئنين
دون أن يلقوا من سدة الشرك والوثنية أية مقاومة ؟ .

إن المصير معروف ، وهو تصدّع وانهار هذا المركز في
نفوس كل العرب الوثنيين . هكذا كانت تتصور قريش الباغية .
من هنا كانت الرغبة ملحة في نفوس سادات مكة للحيلولة
دون دخول المسلمين مكة ، ولو أدّى هذا إلى استخدام
القوة المسلحة .

غير أن المشركين مع هذه الرغبة الشريرة الملحة في نفوسهم
يشعرون شعوراً كاملاً بأنهم سيكونون الخاسرين إذا ما نشبت
الحرب بينهم وبين المسلمين المرابطين في الحديبية .. وهذا الشعور
بصدره التجارب العملية القاسية التي مرت بقريش في معارك
بدر وأحد والخندق ، حيث تلقوا على أيدي المسلمين (وهم
لمة قليلة) أشنع الهزائم والاندحارات المريعة .

فشبح انقضا ثلثمائة من المسلمين كالنمر الكاسرة على
لف من فرسان مكة وضناديدها يتفوقون عليهم في كل شيء -
لا قوة العقيدة - في بدر ، (وبعثتهم في الشعاب والوهاد كما
بعث الرياح العاصف أوراق الخريف) لا يزال كابوساً خفيفاً
يرعب سادات مكة ويشدهم إلى الوراء كلما أرادوا التفكير
(جدياً) في الدخول في حرب ضد المسلمين لصدهم عن
لبيت بالقوة .

وزاد الطين بلة موقف سيد الأحابيش الذي شجب

تصرفات قريش التعسفية وحملها مسؤولية ما قد يحدث من
صدام مسلح داخل الحرم ، بل وأنذرهما بأنه لن يلوّث يده
بالدم في هذا الصّدام إذا ما أصرت قريش على عنادها وبطرها .

ومن جهة أخرى ازداد موقف المسلمين قوة لا سيما بعد أن
وجدوا داخل المعسكر القرشي (كالحليس بن زبّان) وبين
جيران الحرم من غير القرشيين (كسيد خزاعة بديل بن ورقاء)
من يؤيدهم ويرى الحق في جانبهم ، ويلقي باللوم على قريش
ويحملها مسؤولية الأزمة الحادة القائمة والتي كادت تصل إلى
درجة اشتعال نار الحرب . ولكن الأمل الكاذب ظل يراود
سادات مكة في تحقيق أهدافهم العدوانية .

الفصل الثالث

- المشركون يهاجون المسلمين في الحديبية .
- وقوع سبعين أسيراً في أيدي المسلمين، والنبي يعفو عنهم فيطلق سراحهم .
- قريش تحتجز عثمان بن عفان في مكة ، وإشاعة تقول أنه قتل .
- التهاب الموقف بين المسلمين في الحديبية .
- النبي ﷺ يقرر مناجزة قريش ويستنفر أصحابه للحرب .
- الصحابة يبأيعون النبي على الموت تحت الشجرة بالحديبية .
- قريش تذعر لإعلان النبي حالة الإستنفار في الحديبية .
- جلسة طارئة في برلمان مكة (دار الندوة) لبحث الموقف المتفجّر .
- قريش تسعى للصلح بعد سعيها للحرب .

- النبي ﷺ يرحّب بالصلح .
- الوفد القرشي المفاوض في الحديبية .
- مباحثات الصلح بين الفريقين .
- اتفاق الفريقين على بنود الصلح .
- معارضة المسلمين العنيفة للصلح .
- عمر بن الخطاب يحادل الرسول ﷺ منتقداً بشدة بعض شروط المشركين .
- الصحابة يستجوبون النبي ﷺ حول بعض بنود الصلح .
- النبي يقنع أصحابه فيكفّون عن المعارضة .
- خزاعة تدخل في عهد المسلمين ، وبنو بكر في عهد قريش .
- توقيع اتفاقية الصلح وتبادل الوثائق .
- المسلمون يخلّون إحرامهم ويعودون إلى المدينة .

اعتقال سبعين متسللاً من المشركين :

بالرغم من الانشقاق الخطير الذي حدث في صفوف المشركين نتيجة معارضة سيد الأحابيش الحليس بن زبّان وعروة بن مسعود لتصرّف قريش المتعنّت إزاء المسلمين ، هذا التصرف الطائش الذي انسحب (احتجاجاً عليه) سيد ثقيف عروة بن مسعود من التجمع القرشي بقومه إلى الطائف ، وهدد أيضاً (احتجاجاً على هذا التصرف الأخرق) الحليس بن زبّان

بالتمرد على قريش والإنسحاب من تجمعها بقومه الأحابيش كما تقدم .. بالرغم من هذا الانشقاق الخطير في معسكر الشرك ، فإن قريشاً (بدلاً من أن تسلك سبيل الاعتدال وتخفف من تصلفها وغلوها وتحرشها بالمسلمين) أخذ سفهاؤها في تصعيد الأزمة وزيادة حدّة التوتر إلى درجة كادت تصل بالتوتر إلى حدّ انفجار الحرب .

فبينما كان النبي وأصحابه في الحديبية محافظين على ضبط النفس وعاملين - بكل الوسائل - على قفل كل باب يمكن يؤدي فتحه إلى إشعال نار الحرب بينهم وبين قريش ، وبينما كان العقلاء في المعسكر القرشي نفسه - أمثال الخليل بن زبّان وقائد الأحابيش الحلفاء - يتوقعون من سادات مكة أن يضعوا حداً لتسلط الغلاة المتطرفين في معسكرهم ، فيجنحوا للسلم ويعملوا على تجنب ما من شأنه الاقتراب بالفريقين إلى حافة الحرب ، إذا بقريش ترسل العنان لسفهاؤها ومتطرفيها ليذهبوا في تصعيد الأزمة وتعقيدها إلى درجة المدوان على المسلمين بالهجوم عليهم - عن طريق التسلل - في معسكرهم بالحديبية .

فقد ذكر جبهة المؤرخين أن سبعين من فرسان المشركين تسلّوا في جماعات أثناء الليل إلى معسكر المسلمين لعلهم ينالون منهم (بالقتل أو الأسر) غدرًا في غلس الظلام ، إلا أن رجال درويات الحراسة التي أقامها النبي ﷺ عند نزوله الحديبية كانوا لهم بالمرصاد ، حيث أحبطوا جميع مخططات هؤلاء

المتسللين ، الذين انتهى بهم التسلل إلى الوقوع في أسر دوريات المسلمين مجموعة بعد أخرى ، حتى بلغ عدد الذين ألقى عليهم الحرس الإسلامي القبض أثناء الليل سبعين فارساً ، أتى بهم الحراس مقيّدين إلى مقر قيادة النبي الأعظم ﷺ في الحديبية . وكان هؤلاء المتسللون الأشرار قد نجحوا - في غلس الظلام - من أسر بعض الصحابة حيث هاجوهم غدراً وهم عزّل آمنون ، إلا أن دوريات المسلمين استنقذت هؤلاء الأسرى المسلمين عندما ألقت القبض على السبعين من المتسللين المشركين .

النبي يعفو عن المتسللين ويطلق سراحهم :

غير أن النبي ﷺ بالرغم من هذا التصرف من قبل المشركين المتسللين الذي يحمل كل معاني البغي والاستفزاز ، قد عفى عنهم فأطلق سراحهم جميعهم ، قائلاً لأصحابه : دعوهم يكن لهم بدء الفجور (١) .

نشوب القتال في الحديبية :

فقد ذكر الواقدي في مفازيه (ج ٢ ص ٦٠٢) أن قريشاً بعثت ليلاً خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص ، وأمروهم أن يطيفوا بالنبي ﷺ رجاء أن يصيبوا منهم أحداً أو يصيبوا منهم غرة ، فاعتقلهم محمد بن مسلمة - قائد إحدى فصائل الحراسة الليلية - ، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ ، فجاء جمع

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٠ .

آخر من المسلحين القرشيين إلى النبي ﷺ وأصحابه - حين بلغهم وقوع الخمسين أسرى في أيدي المسلمين - وهاجوا المسلمين فلشب قتال بين الفريقين استخدمت فيه الحجارة والنبال ، إلا أن المسلمين تمكنوا من دحر المهاجرين بعد أن أسروا عدة منهم .

وذكر الطبري في تاريخه (ج ٢ ص ٦٣٠) عن إياس بن مسلمة عن أبيه : أنه ألقى القبض وحده على أربعة من المتسللين المشركين ، قال سلمة : فحبست بهم أقودهم إلى رسول الله ﷺ وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له مكرز يقوده محققاً^(١) حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال : دعوهم يكن لهم بدء الفجور ، فعفا عنهم ، قال : فأنزل الله : ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة ﴾^(٢) .

وذكر سلمة - فيما ذكره الطبري أيضاً - أنه وحده اعتقل ستة من المتسللين وأنقذ - بالاشتراك مع زملاء له - كل المسلمين الذين وقعوا في أسر المتسللين في الحديبية فقال : فشددنا على من في أيدي المشركين منا ، فما تركنا في أيديهم منا رجلاً إلا استنقذناه ، وغلبنا على من في أيدينا منهم ، فحبست ستة من المشركين متسلحين أسوقهم ، ما يملكون لأنفسهم نفعا ولا

(١) محققاً : أي لا بس التجفاف ، وهو آلة للحرب ، يلبسها الفرس والانسات .

• (٢) سورة الفتح الآية ٢٥ .

ضراً ، فأتيت بهم النبي ﷺ فلم يسلب ولم يقتل ، وعفا ^(١) .

قريش تقتل رجلاً من المسلمين :

بل لقد بلغ البغي بقريش إلى أن أقدمت على قتل أحد أصحاب النبي ﷺ بقصد استفزاز المسلمين ، وكان هدف السفهاء الذين أقدموا على القتل استدراج المسلمين إلى الدخول في حرب شاملة تجعل المتعطلين في المعسكر القرشي أمام الأمر الواقع ، فيخوضوا حرباً م لها كارهون .. ولكن النبي ﷺ فوت على هؤلاء المتطرفين فرصتهم ، إذ التزم جانب الحكمة والحلم والتروي ، فلم يسمح لأن يكون ذلك العدوان الطائش باعثاً للمسلمين على خوض حرب شاملة لا يرغبون فيها .

فقد روى الطبري في تاريخه — بإسناده إلى قتادة — أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له : زنيم ، اطلع الثنية من الحديدية ، فرمى المشركون فقتلوه ، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً فأثوه بإثني عشر فارساً من الكفار ، فقال لهم نبي الله : «هل لكم علي عهد ؟ هل لكم علي ذمة ؟» قالوا : لا ، قال : فأرسلهم رسول الله ﷺ .

المبعوث النبوي عثمان في مكة :

بالرغم من محاولات إحلال السلام التي بذلت جديداً — بنية صادقة — من قبل النبي الأعظم ﷺ ، ومن قبل بعض الوسطاء

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٢٩ .

الأخريخ ، فقد ظلّ الموقف في الحديبية وفي بلدح (١) متوتراً بل زاده توتراً ، أن قام سبعون من سفهاء المشركين بالتسلل - ليلاً - إلى معسكر المسلمين في الحديبية للعدوان ، وتمكنوا من قتل رجل من أصحاب النبي ﷺ .

ولكن النبي ﷺ - وهو سيد الحكماء وإمام العقلاء - لم يقفل باب الأمل في التوصل إلى حلّ سلمي لهذه الأزمة الخطيرة التي بدت مؤثراتها تشير إلى أنها ستتحول إلى حرب ضروس لا تبقي ولا تذر .. حرب أعلن النبي الأعظم ﷺ أنه سيعمل على تجنبها ما وجد إلى ذلك سبيلاً .

كان النبي ﷺ - ليؤكد لأهله وعشيرته نواياه السلمية في مجيئه هذا - قد بعث حال نزوله الحديبية بمبعوث خاص إلى قريش ، يبلغها - وهي في بلدح - هذه النوايا وينصحها بالتعقل والتغلي عن فكرة الحرب .. وكان مبعوثه الخاص هذا - كما تقدم - هو خراش بن أمية الكعبي ثم الخزاعي .

غير أن الحمية الجاهلية والعنصرية الوثنية لم تترك فرصة لسادات مكة لينظروا بتعقل في العرض السلمي النبوي الذي حمله إليهم مبعوثه الخاص ، فلم يكتفوا برفض هذا العرض السلمي وعدم النظر فيه ، بل حاول سفهاؤهم قتل حامله خراش بن أمية ، بمجرد علمهم أنه جاء يحمل هذا العرض ، فعاد المبعوث النبوي الأول دون أن يتمكن من إبلاغ قريش هذا العرض السلمي ، وقال للنبي ﷺ : يا رسول الله

(١) هو الوادي الذي كانت قريش فيه يبيوشا أثناء أزمة الحديبية .

إبعث رجلاً - أمنع مني - أي أقوى وأكثر عصبية بين قريش.
ولما كانت فكرة السلام في هذه الأزمة الخطيرة تحتلّ المقام الأول في ذهن النبي الأعظم ﷺ بين الحلول التي يمكن اتباعها فقد قام من جانبه « بالرغم مما أقدمت عليه قريش من حماقات واستفزازات طيلة البضعة عشر يوماً التي مرّت على الأزمة » قام من جانبه النبي ﷺ بمحاولة سلمية أخرى ، وكانت هذه المحاولة الجديدة عن طريق مبعوث خاص آخر بعث به إلى قريش في معسكرها بوادي بلدح وفي مكة ذاتها .

عمر بن الخطاب يعتذر عن الوساطة :

فقد رأى النبي الأعظم ﷺ أن ينتدب عمر بن الخطاب ليكون مبعوثه الخاص إلى قريش يدعوها إلى السلام ، وطرح فكرة الحرب جانباً .

فاستدعى الرسول ﷺ عمر وأبلغه بأنه يرغب في أن يكون رسوله إلى قريش ، ليعرض عليهم من جديد نفس العرض السلمي الذي حمّله اليهم خراش بن أمية ، فلم يتمكن من إبلاغهم إياه لمحاولتهم الفتك به قبل أن يفاتحهم بشأن هذا العرض .

غير أن عمر بن الخطاب اعتذر للنبي ﷺ عن القيام بهذه المهمة ، وأعطى لهذا الاعتذار مبررات معقولة جداً ، وهي شدّة العداوة التي بين عمر بن الخطاب وبين المشركين ، وضعف عصبية القبيلة بين قريش .

فقد قال ابن الخطاب (معتذراً) : يا رسول الله إني أخاف على نفسي وليس لي من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها .

ثم أشار على النبي ﷺ بأن يبعث إلى قريش رجلاً ذا عصبية ومنعة في قومه بمكة ، ليكون بآمن من القتل .. لا سيما بعد الذي حدث لخراش بن أمية الذي كاد أن يقتله المشركون لولا حماية الأحابيش له ، وإعادته سالماً إلى الحديبية .

وكان الرجل (ذا العصبية القوية في قومه) والذي أشار إلى الخطاب على النبي ﷺ أن يبعثه ، هو (عثمان بن عفان) لأنه ينتسب إلى بني عبد شمس بن عبد مناف ، وهي من أقوى القبائل القرشية ذات القوة والعدد والنفوذ في مكة .

فقد قال ابن الخطاب للنبي ﷺ - حينما اعتذر عن القيام بدور الوساطة - : ولكني أدلك على رجل أعزّ مني (يعني في قومه بمكة) : عثمان بن عفان .

فقبل النبي ﷺ اعتذار عمر بن الخطاب ، واستصوب مشورته بشأن إرسال عثمان بن عفان مبعوثاً خاصاً إلى قريش .

فقد استدعى النبي ﷺ عثمان وقال له : « إذهب إلى قريش فأخبرهم أننا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمته ، معنا الهدى ننحره ونصرف » (١) .

(١) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٩٧ .

فصدع عثمان بأمر نبيّه الكريم ، وفي ذلك الجوّ المكهرب المشحون بالتوتر الشديد توجه عثمان إلى مكة ليبلغ ساداتها حقيقة موقف النبي ﷺ ونواياه السلمية المحضة ، في رسالة (بعضهم يقول خطية ، وبعضهم يقول شفوية) حملها عثمان إلى سادات قريش وزعمائها .

محوالة الاعتداء على عثمان :

ولم يكن ابن الخطاب مخطئاً في تقديراته بأن قريش لن تتورّع عن الفتك بمن تجده من أصحاب النبي ﷺ حتى ولو كان عند أستار الكعبة .

لقد اجتاز عثمان بن عفان حدود الحرم بمفرده قاصداً مكة غير مبال بخطر الموت الذي قد يتعرض له على أيدي السفهاء من قريش الذين لا يقدّرون العواقب .

وفعلًا كاد المشركون المتهورون أن يقتلوا عثمان لولا أن أجاره أحد أفراد قبيلته (العزيزة في مكة) ، ففي ضواحي مكة وفي وادي (بلدح) ^(١) التقى عثمان بدورية مسلحة من فرسان قريش فكادوا أن يفتكوا به لولا وجود أبان بن سعيد ابن العاص بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، الذي كان ضمن رجال الدورية .

عثمان في معسكر قريش ببلدح :

ففي أطراف معسكر التجمع القرشي في وادي (بلدح)

(١) أنظر مغازي الواقدي ص ٣٠٨ .

غربي مكة ، التقت دورية مسلحة من فرسان قريش بعمثان ،
فحاولوا الفتك به (بعد أن عرفوه) لولا أن أبان بن سعيد بن
الماص^(١) الأموي كان بينهم ، فحال بين رجال الدورية وبين
الإعتداء على عثمان ، حيث أعلن حمايته لابن عمه إذ نادى :
يا معشر قريش إن عثمان بن عفان في جوارى فكفتوا عن عثمان .

قيمة الجوارى في الجاهلية :

وهذا الإعلان من أبان بن سعيد كافٍ لأن يشلّ أي يد يريد
صاحبها أن يمسّ عثمان بن عفان بسوء ، ذلك أن قانون الجوار

(١) هو أبان بن سعيد بن الماص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف
القرشي ، كان من أشرف قريش ، وأبوه كان من أكابرها ، وعندما لقي
إبن عمه عثمان أخذه في جواره وقال شعراً يطمئنه :

أسبل وأقبل ولا تخف أحداً بنو سعيد أعزة الحرم
كان لأبان أولاد نجباء هدي الله منهم إثنين للإسلام قبله ، وهما : خالد
وعمر ، اللذين كانا من السابقين الأولين ، هاجرا إلى الحبشة ، وفيها قال
أبان مستنكراً إسلامهما :

ألا ليت ميتاً بالضربة شاهد لما يفترى في الدين عمرو وخالد
غير أن أبان نفسه هاجر قبل الفتح وأسلم أيام خيبر وشهدا مع النبي صلى
الله عليه وسلم ، وجعله النبي صلى الله عليه وسلم قائداً لإحدى السرايا ، وزعم
إبن إسحاق أن أبان من هاجر إلى الحبشة ولكن الأول أصح ، وقد شهد أبان
إبن سعيد بدرًا مشركاً ، فقتل أخواه (الماص وعبيدة) مشركين ، ولاء
النبي صلى الله عليه وسلم البحرين ، وتوفي صلى الله عليه وسلم وأبان أمير عليها
قاله الواقدي .. شهد أبان بن سعيد معارك الجهاد في الشام ، واختلف
المؤرخون في تاريخ وفاته ، والراجح أنه قتل يوم أجنادين بفلسطين سنة ٨١٣ .

عند العرب في الجاهلية (وهو قانون غير مكتوب) له مكان القداسة ، يجمعون على احترامه والعمل به ، ولا يخرق هذا القانون إلا الذي لا يبالي أن يعرض نفسه وقبيلته لحرب ضروس مدمرة .

فقد كان المتعارف عليه أن من حق أي فرد في القبيلة أن يعطي جواره ويعلن حمايته لأي إنسان أراد .. وإذا ما فعل ذلك ، فإن قبيلة الحجير تصبح - تلقائياً - ملزمة بتحمل مسؤولية هذا الجوار ، وهي حماية الإنسان الذي يحيره الفرد المنتسب إليها .

وحسب قواعد قانون الجوار هذا كف رجال الدورية القرشيون عن عثمان بن عفان ، لأنهم يعرفون أن التعرض له بسوء سيعرّضهم لمناعب ومصاعب عديدة بعد أن أصبح (بإعلان هذا الجوار) في حماية بني عبد شمس جميعاً ، وهي قبيلة لها ثقلها العظيم بين القبائل القرشية .

اجتماع عثمان بسادات المشركين في بلدح :

وفي وادي (بلدح) خارج مكة حيث تعسكر قريش وحلفاؤها بقواتهم الضاربة ، اجتمع عثمان بن عفان بقيادة قريش وأبلغهم الرسالة التي كلفه النبي ﷺ أن يبلغهم إياها ، والمتضمنة تخييرهم بين أحد أمرين : إما الدخول في الاسلام ، وإما إقامة سلام بينهم وبين المسلمين ، وترك النبي ﷺ وسائر العرب ، على أن يلتزم القرشيون الحياد التام إزاء أي صراع

دامي ينسب بين النبي ﷺ وبقية مشركي العرب ، كما تضمنت الرسالة أيضاً إبلاغ - قريش رسمياً - أن النبي ﷺ لم يأت للحرب ولا رغبة له فيها ، وإنما جاء معتمراً ، وأنه فور انتهائه وأصحابه من نحر الهدي وإكمال مناسك العمرة سيغادرون مكة عائدين إلى المدينة . ولكن قريشاً رفضت كل هذه الحلول السلمية التي تضمنتها الرسالة النبوية الكريمة وأصرّوا على التثبت بموقفهم المتعنّت .

خلاصة الرسالة النبوية الى قريش :

وقد ذكر الواقدي خلاصة هذه الرسالة الهامة فقال :

(فخرج عثمان حتى أتى بلدح ، فوجد قريشاً هنالك ، فقالوا : أين تريد ؟ قال : بعثني رسول الله ﷺ إليكم يدعوكم إلى الله وإلى الاسلام ، تدخلون في الدين كافة ، فإن الله مظهر دينه ومعرّ نبيّه ، وأخرى تكفّون ، وبلي هذا منه غيركم ، فإن ظفروا بمحمد فذلك ما أردتم ، وإن ظفر محمد كنتم بالخيار ، أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامعون ، إن الحرب قد نهكتكم وذهبت بالأمائل منكم .. وأخرى إن رسول الله ﷺ يخبركم أنه لم يأت لقتال أحد ، وإنما جاء معتمراً معه الهدى عليه القلائد ينصره وينصرف ، فجعل عثمان يكلمهم فيأتيهم بما لا يريدون ، ويقولون قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا أبداً ، ولا دخلها علينا عنوة فارجع إلى صاحبك

فأخبره أنه لا يصل إلينا (١) .

عثمان في مكة :

وبعد أن أبلغ عثمان رسالة النبي ﷺ إلى كبار قادة قريش الموجودين في المعسكر بوادي (بَلَدَح) قرر أن يتوجه إلى مكة نفسها ليلبغ الرسالة النبوية من لم يكن حاضراً في بلدح من سادات قريش .

وعندما علم أبان بن سعيد (مُجِيرِ عثمان) برغبة ابن عمه في دخول مكة قرّر أن يكون في صحبته ليعرف الناس أنه في جواره فلا يعتدى عليه أحد ، فقد أحضر أبان فرسه وأردف عثمان خلفه ثم انطلق به نحو مكة ، ولما وصل مكة رأى الناس عثمان وكانوا يعرفونه ، وكانت رغبتهم جامحة في أن يفتكوا به كأحد الأركان من أصحاب محمد ، ولكنهم لما رأوه رديفاً لأبان ابن سعيد بن العاص على فرسه ، عرفوا أنه في جواره فكفّوا عن أذاه على مضض .

وفي مكة أبلغ أبان بن سعيد عثمان بن عفان بأن له مطلق الحرية أن يبقى في مكة أية مدة يشاء وأن يذهب فيها إلى حيث يشاء ، وأن يتصل بن يشاء من سادات مكة بمن لم يكن قد اجتمع بهم في بلدح .

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٠ وما بعدها .

عثمان عند أبي سفيان :

ولما كان أبو سفيان بن حرب هو سيد بني أمية وكل عبس
شمس وزعيم قريش الكبير ، فقد نزل أبا بن سعيد بعثان عليه
في داره ، فاستقبل أبو سفيان عثمان فيها .

وكان أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وزعماء قرشيون
آخرون غير حاضرين في معسكر قريش (ببلدح) حين بلغ
عثمان وجوه القوم وقادتهم رسالة النبي ﷺ .

ولذلك اجتمع عثمان بهؤلاء الزعماء (صفوان بن أمية وأبي
سفيان بن حرب وبقية الزعماء) في مكة فأبلغهم رسالة النبي ﷺ وقال
لهم : مثلما قال لزملائهم من الزعماء والقادة في وادي بلدح ..

ولكن جواب أبي سفيان وصفوان وبقية الزعماء في مكة
لم يكن يختلف عن القادة الذين في معسكرهم ببلدح ، حيث كان
جوابهم في مكة الرفض الكامل لكل ما جاء في الرسالة النبوية
جملة وتفصيلاً .

قريش تطلب من عثمان أن يطوف فيرفض :

ولما كان عثمان في ضيافة قومه بني أمية وفي جوارهم لم يحرروا
أحد من المشركين على التمرض له بأي أذى ، بل صاروا
يتوددون إليه ، فقد قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف
به ، وما كانوا ليقولوا له ذلك لولا أنه في جوار بني عبس
شمس وحماتهم .

غير أن عثمان رفض عرض القرشين فقال : ما كنت لأفعل
حتى يطوف رسول الله ﷺ (١) .

وشاع بين المسلمين في الحديبية بأن عثمان طاف بالبيت ،
فقال الصحابة : يا رسول الله وصل عثمان إلى البيت فطاف ،
فقال الرسول ﷺ : ما أظن عثمان يطوف بالبيت ونحن
محصورون ، قالوا : يا رسول الله وما يمنعه وقد وصل إلى البيت ؟
فقال ﷺ : ظني به ألا يطوف حتى نطوف (٢) .

بنس ما ظننتم :

فلما رجع عثمان إلى الحديبية قال له الصحابة : اشتفيت من
البيت يا عبد الله ؟ فقال عثمان : بنس ما ظننتم بي ، لو كنت بها
سنة والنبي ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت ، ولقد دعنتني قريش
إلى أن أطوف فأبيت ذلك عليها ، فقال المسلمون : لرسول الله
ﷺ : كان أعلم بالله تعالى وأحسننا ظناً (٣) .

مبعوث السلام يزور المستضعفين في مكة :

وقد انتهز مبعوث النبي ﷺ إلى قريش عثمان بن عفان
فرصة وجوده في مكة والحرية الكاملة التي أعطيت له في ظلّ
جوار قومه بني أمية المشركين .. انتهز فرصة وجوده هذه ،

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣١ .

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠١ وما بعدها .

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٢ .

فقام بزيارة المستضعفين المسلمين من النساء والرجال الذين ظلوا يعيشون داخل المجتمع القرشي المشرك في مكة ، لعدم تمكنهم من الهجرة واللاحاق بالمسلمين في المدينة ، إما لكونهم من النساء ، وإما لكونهم من الذين لا عصبية لهم في قريش تحميهم من الإضطهاد ، كالموالي أو كالأفراد الذين استوطنوا مكة وهم ليسوا من أهلها .

فقد قام عثمان بزيارة هؤلاء المستضعفين المسلمين في مكة (فرداً فرداً) وبشرهم بأن عهد التخلص من الظلم الوثنى قد أزف وأن اليوم الذي يكونون فيه أحراراً لا يستعجلون فيه بدينهم من أحد بمكة لقريب جداً ، وقد كان هذا التبشير ضمن رسالة خاصة حملها عثمان إلى هؤلاء المستضعفين من النبي محمد ﷺ .

فقد قال عثمان نفسه - فيما يرويهِ المحدثون عنه ضمن قصة سفارته إلى قريش - : ثم كنت أدخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين فأقول : إن رسول الله ﷺ يبشركم بالفتح ويقول : (أظلتكم حتى لا يستخفى بمكة الإيمان) ، قال عثمان : فقد كان الرجل منهم والمرأة تنتحب حتى أظن أنه يموت فرحاً بما خبرته ، فيسأل عن رسول الله ﷺ فيخفي المسألة ، ويشدد ذلك على أنفسهم ، ويقولون : اقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام ، إن الذي أنزله بالحديبية لقادر أن يدخله مكة (١) .

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠١ (نشر جامعة اكسفورد) .

اشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان :

لقد مضى على المسلمين في سهل الحديبية حوالي عشرين يوماً وهم محصورون ممنوعون من دخول الحرم .

وكانوا طيلة هذه الأيام 'محرمين' ، لا يقتسمون ظفراً ولا يقطعون شعراً ولا يمسّون طيباً ، ولا يقربون امرأة ، قد شمت واتسخ شعرهم وقمل بعضهم ، لطول بقائهم 'محرمين' ، ولا يخفى ما في طول المكث بالإحرام من مشقة نفسية وجسدية على المحرم .

ولا شك أن صحة الكثير منهم باتت معرضة للخطر، نتيجة هذا الحبس والإحصار الذي لا مبرر له ، والذي نالهم بسبب تهديد قريش باستخدام السلاح ضد المسلمين والدخول معهم في حرب ضروس إن اجتازوا حدود الحرم . . . حرب ما كان مخفف آلام البشرية ومنقذ الانسانية والداعية الأول للسلم والمحبة والسلام ، راغباً فيها بل حريصاً كل الحرص على تجنبها ، ولذلك لم تكن واردة ضمن برنامج من منذ تحرّك في رحلته الروحية السلمية من المدينة ، والتي كان شعارها الوحيد: (إننا لم نأت لقتال أحد إنما جئنا لنطوف بهذا البيت) (١) .

لقد بذل النبي ﷺ — بروحه السمحة العالية المحبة للسلام

(١) كلمة يردد النبي صلى الله عليه وسلم معناها في كل مناسبة وهو في رحلته السلمية هذه .

والكارهة للحرب - بذل كل ما وسعه لإحلال السلام بينه وبين قومه وعشيرته ، وإبعاد شبح الحرب البغيض التي بدا واضحا أن كبرياء سفهاء قريش الوثنية تنوق إلى إشعال نيرانها ، ظناً من هؤلاء السفهاء أنهم بخوضهم هذه الحرب ضد المسلمين بالقرب من مكة قد يستعيدون ما فقدوه من كرامة عسكرية في بطاح بدر وسمعة حربية وسياسية عند مشارف الحندق قرب أسوار المدينة .

بذل النبي الأعظم ﷺ كل ما في وسعه ليجنب أصحابه المؤمنين في الحديبية ، وقومه وعشيرته المشركين في مكة شرور وويلات هذه الحرب ، وذلك في مختلف العروض السلمية البناءة الهادفة ، التي تقدم بها إلى أهله وعشيرته في مختلف المواقف والمناسبات .

عرضها للوسطاء الذين بعث بهم قريش لمفاوضته ومناقشته ، بل وبعث بها (إلى زعماء قريش في مكة) سفراء من خاصته وبطائنه لعله ينجح في إقناع قريش بالجنوح إلى السلم ، والتخلي عن فكرة الحرب التي لم يكن لدى قريش من مبرر لها أو موجب ، لا سيما وأن سادات مكة قد تملقوا (بما لا يدع مجالاً للشك) أن النبي ﷺ وأصحابه لم يأتوا للحرب ولم تكن لهم أية رغبة فيها ، بدليل أن كل شيء في غيبتهم بالحديبية يدل على أنه ليس بينهم أية علامة تدل على نية للحرب ، وإنما كل شيء يشير (كما شهد بذلك رسل قريش ووسطاؤها والهاديون

الذين قاموا بزيارة المسلمين في معسكرهم) إلى السلم والسلم فقط.

تضاييق المسلمين من طول المكث :

لقد بدا واضحاً أن المسلمين باتوا متضايقين لطول مكثهم في الحديبية دونما الوصول إلى حلّ يدخلون بموجبه مكة لأداء مناسك العمرة والتحلل من إحرامهم الذي أجبرهم بنفي قريش وشططها على الإلتزام بمواجباته الشاقة حوالي عشرين يوماً .

وأخذت حدة التوتر تزايد نتيجة تضاييق المسلمين من طول الإحتباس في الحديبية ، ونتيجة استمرار قريش في تمسكها بموقفها المتعنت المتصّلف ، رغم العروض السلمية العادلة المنصفة التي عرضها النبي ﷺ على سادات مكة حقناً للدماء والمتضمنة أن توافق قريش على السماح للمسلمين بزيارة البيت على أن يغادر هؤلاء مكة إلى المدينة بمجرد تحللهم من إحرامهم المتلبسين به منذ خروجهم من المدينة .

المسلمون واقتحام مكة بالقوة :

لقد كان رأي الصحابة أن يقوموا باقتحام مكة وشقّ طريقهم إليها بحدّ السيف ، ما دام أن جميع المحاولات السلمية الصادقة ظلت تبذل من جانب النبي ﷺ طيلة حوالي عشرين يوماً دون أن تلقى من جانب القرشيين أية استجابة أو حتى تخفيف غطرستهم وشططهم .

وكان بإمكان المسلمين أن يقتحموا مكة ويحتلوها بالرغم من

الفارق الكبير بينهم وبين قريش في العدد ، حيث أن القوات القرشية وحلفاءها يفوقون عدد المسلمين عدة أضعاف ، ولكن التجارب في بدر وأحد والحنديق وكل المارك التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم أثبتت أن النصر دائماً ليس للكثرة الغامرة وإنما لمن يحمل العقيدة الصادقة .

غير أن المسلمين مع رغبتهم العارمة في دخول مكة وقدرتهم على اقتحامها بالقوة لكسر طوق الحصار الذي فرضته قريش عليهم بدافع من الكبرياء الوثنية والعنصرية الجاهلية ليس إلا ، فإن هناك شيئاً واحداً قد قيدهم تقييداً كاملاً عن الإقدام على ما يريدون ، وهو رغبة النبي الأعظم ﷺ - الذي يدرك ما لا يدركون - في تجنب القيام بأي عمل يكون من شأنه زيادة حدة التوتر والإسراع إلى إراقة الدماء .

وهكذا فإن النبي ﷺ إزاء كل ما أقدمت عليه قريش من حماقات تمثلت في استفزازاتها للمسلمين والإصرار على اللجوء إلى السلاح لمنعهم من دخول الحرم ، التزم ضبط النفس وكظم الغيظ ، ولم يتسرع في الإقدام على أية خطوة من شأنها قدح شرارة الحرب التي أعلن - على لسان مبعوثيه الخاصين إلى قريش وأمام رسلها ووسطائها الذين زاروه في معسكره بالعديبية - كرهه لها ورغبته الأكيدة الصادقة في تجنبها ، وأنها آخر ما يفكر فيه من الوسائل لإقناع قريش بالتسليم بحق النبي وأصحابه في الطواف بالبيت وتركهم يباشرون هذا الحق .

بيعة الرضوان نقطة التحول في حل الأزمة :

كان النبي ﷺ يعني كل كلمة يقولها عندما أعلن في اليوم الأول الذي نزل فيه بأصحابه الحديبية ، بأنه قد استبعد نهائياً فكرة محاربة قومه عن طريق البدء بالهجوم ، وأنه مستعد لفتح الحوار معهم ، وعلى استعداد لقبول أية خطة سلام يعرضونها يكون فيها الحفاظ على صلة الرحم وصون حرمة الحرم عن سفك الدماء ، حين قال : (لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)^(١) ، وفي رواية : (أما والله لا يسألونني اليوم خطة في تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها)^(٢) . ثم أمر أصحابه بالعودة حيث عسكروا في الحديبية ، وكان قد ترك الحديبية وأخذ في الاتجاه لاجتياز حدود الحرم ، وكان ساعته - وقبل أن يُدلي بهذا التصريح السلمي الهام - قد رسخ في أذهان أصحابه الألف والأربع مائة أنه سيستخدم السلاح لمقاتلة قريش (في اليوم الأول من وصوله) إن هي حاولت التعرض له ومنعه من دخول مكة بالقوة . ولذلك استعد أصحابه للحرب تحسباً لأي طارئ ، إلا أن تصريحه الهام هذا ، وابتعاده بأصحابه عن حدود الحرم قد جعل نشوب الحرب بينه وبين قومه أمراً بعيد الاحتمال .

وقد ظلت فكرة السلم والبعد عن الحرب والحرص على

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٢٤ .

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٨٧ .

صون دماء الفريقين من أن تراق في حرم الله ، هي السائدة لدى النبي القائد ﷺ ، ولهذا فإنه ﷺ كسبي جاء رحمة للعالمين أولاً ، وكقائد حكيم يحرص على هداية قومه وصلة أرحامهم وأن يبرئهم وان عقوبه ثانياً) ابتعد وأمر أصحابه بالابتعاد عن أية مزايدات كلامية أو تصريحات عنصرية يكون من شأنها إلهاب الموقف والإقتراب بالفريقين إلى حافة حرب لم يأت لها ولا رغبة لها فيها ، ولهذا ظل ﷺ شعاره الرئيسي دعوة قومه وعشيرته إلى السلام في كل حديث أو حوار يدور بينه وبينهم طيلة إقامته محصوراً في الحديبية .

فعل ذلك بالرغم من أن قومه من أهله وعشيرته لم يتركوا وسيلة من وسائل الإستفزاز والتحدى له ولأصحابه إلا واتبعوها ، فملأوا الدنيا بالمزايدات الكلامية والتصريحات العنصرية ، واستنفروا حلفاءهم للحرب سفهاً وبطراً ورثاء الناس ، وأخذوا فوق ذلك (في إستفزاز ملهياً للأعصاب) يستعرضون - أمام النبي وأصحابه - عضلاتهم العسكرية بإقامة استعراضات حربية لمختلف كتائب جيوشهم من خيالة ومشاة على مرمى الحجر من المسلمين ، بل ذهبوا في سفهم إلى أبعد من ذلك ، حيث تسللت عدة وحدات من فرسانهم إلى داخل معسكر المسلمين في الحديبية أثناء الظلام ، بغية إثارة المسلمين واستدراجهم إلى الحرب التي لم يأتوا لها ، ولن يكونوا خاسرين إذا ما خاضوها ، ولكنها أوامر النبي الأعظم الذي لا يصدر إلا عن أمر ربه .

تحوّل المسلمين نحو الحرب ، جعل قريشاً تطلب السلام :

وبالرغم من كل هذه الحماقات ظل النبيّ شعاره هو هو ، لم يتغيّر (الدعوة إلى السلام وحقن الدماء) وظلت قريش من جهة أخرى ممعنة في غرورها وبطورها تهدّد بالحرب وتصرّ على منع المسلمين من دخول مكة كما كانت النتائج .

غير أنه ظهر على سطح الأحداث (فجأة) حادث ، أوجد تغييراً جذرياً في موقف المسامين ، جعلهم يتحوّلون من موقف الصبر والسلم إلى موقف الحرب ، وذلك حينما اتخذ النبي ﷺ قراراً حاسماً بمحاربة قريش والدخول معها في معركة حاسمة .

الأمر الذي كان له من ناحية أخرى الأثر الحاسم في تبخير العنجهية من أدمغة سادات مكة واختفاء التصريحات العنترية والمزايدات الكلامية ، وجعل سادات مكة يبحثون عن السلم بنفس الرغبة الملحة التي كانوا بها يسعون إلى الحرب .

وذلك عندما جاءت الفكرة وذهبت السكرة (كما يقول المثل) على أثر القرار الحاسم الذي اتخذته النبي ﷺ وأعلن بموجبه الاستنفار العام بين جميع وحدات جيشه المرابطة في الحديبية لتكون على أهبة الاستعداد لمناجزة المشركين بالزحف على مكة .

فقد عمّ الذعر صفوف المشركين وانتاب قاداتهم الخوف والفرع للقرار الحاسم الذي اتخذته النبي ﷺ بمحاربة قريش ، وصار لذلك همّ سادات المشركين محصوراً في إيجاد وسيلة

لإبعاد شبح الحرب وإحلال السلام بين الفريقين ، وهو ما ظلّ النبي ﷺ يدعو إليه (صادقاً) طيلة عشرين يوماً ، وتأباه قريش وترفضه في غطرسة بغيضة .

فبعد أن كان النبي ﷺ يسعى في تحقيق السلام فيبعث بالمبعوث تلو الآخر إلى قريش لتحقيق هذه الغاية ، تغير الموقف عكساً وانقلبت قريش نفسها تسعى جاهدة طالبة لإحلال السلام ، وانتهت مساعيها (وهي لا تكاد تصدق) إلى إقامة صلح بينها وبين المسلمين تحقن بموجبه الدماء وتضع الحرب أوزارها لمدة عشر سنين ، ويُمكن المسلمين بموجبه من دخول مكة وزيارة البيت الذي حرموا زيارته طوال سبع سنوات كاملة .

سبب اتخاذ النبي القرار بإعلان الحرب :

أما سبب التحول الفجائي الحاسم في موقف المسلمين نحو الحرب ، فهو أن النبي ﷺ قد بعث كما تقدم (ضمن مساعيه السلمية) عثمان بن عفان إلى مكة لإبلاغ قريش حقيقة نوايا المسلمين السلمية ، وأنهم لا يرغبون في الحرب ، ومحاولة إقناع قريش بالتخلي عن مواقفها المتصلفة المشبعة بروح الحرب الظالمة ، كي يتاح للمسلمين أداء مناسكهم وإبلاغ الهدئي محلّه .

وبينما كان عثمان بن عفان موجوداً في مكة بلغ النبي ﷺ - وهو في الحديبية - أن قريشاً بدلاً من أن تتفهم نواياه السلمية وتجيّبه إلى ما دعا إليه من إقامة سلام بين الفريقين ،

عدت على عثمان وعشرة من الصحابة كانوا معه في مكة فقتلهم جميعاً^(١) .

ولم يسع النبي ﷺ — عندما بلغه مقتل عثمان وأصحابه على أيدي القرشيين — إلا أن يستنفر أصحابه ويدعوم إلى مقاتلة المشركين ، وذلك بأن دعاهم إلى مبايعته على الموت ، بعد أن نزل الأمر بذلك من السماء .

وقد لبى أصحابه جميعاً (وعددهم ألف وأربعمائة) نداءه فبايعوه تحت الشجرة في الحديبية ، فامتدحهم الله تعالى وأثنى عليهم وأعلن رضاه عنهم ، بقوله : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ .

وهذه هي بيعة الرضوان المشهورة .

قال الإمام الطبري في تاريخه (ج ٢ ص ٦٣٢) : أن رسول الله ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قُتل قال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة .

(١) ذكر الواقدي في مغازيه : أن عشرة من الصحابة دخلوا مكة مع عثمان لزيارة أقارب لهم ، وهؤلاء العشرة هم : (حكرز بن جابر الفهري ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو . وعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل ، وحاطب بن أبي بلتعة ، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس ، وعبد الله بن حذافة ، وأبو الروم بن عمير ، وعمير بن وهب الجهمي ، وعبد الله بن أبي أمية بن وهب . — المغازي ج ٢ ص ٦٠٣ .

وفي رواية أخرى عن سلمة بن الأكوع أنه قال : نادى منادي النبي ﷺ أيها الناس البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، قال : فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت سمرة ، قال : فبايعناه ، قال : وذلك قول الله تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ (١) .

ابن الخطّاب يمسك بيد الرسول للمبايعة :

وعن جابر بن عبد الله (٢) أنهم كانوا أربع عشرة مائة ، قال : فبايعنا رسول الله ﷺ ، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة ، وهي سمرة ، فبايعناه غبر الجد بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره (٣) .

وذكر الواقدي تفصيلاً أوسع لقصة المبايعة فقال : (وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه يتحارسون الليل ، وكان الرجل من أصحابه يبيت على الحرس حتى يصبح يطيف بالعسكر ، فكان محمد بن مسلمة على فرس النبي ﷺ - يحرس - ليلة من تلك الليالي وعثمان بمكة ، وكان عثمان قد أقام بمكة ثلاثاً يدعو قريشاً ، وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن من رسول الله ﷺ على أهلهم ، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان وأصحابه قد قتلوا ، فذلك حين دعا إلى البيعة .

(١) سورة الفتح الآية ١٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٢ .

ثم أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزّي ومكرز بن حفص، فأقبل رسول الله ﷺ يومئذ يؤمّ منازل بني مازن بن النجار، وقد نزلت في ناحية من الحديبية جميعاً، قالت أم عمارة (١) : والرسل تختلف بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فمرّ بنا رسول الله ﷺ يوماً في منزلنا . قالت : فظننت أنه يريد حاجة ، فإذا هو قد بلغه أن عثمان بن عفان قد قتل ، فجلس في رحالنا ثم قال : إن الله أمرني بالبيعة . قالت : فأقبل الناس يبايعونه في رحالنا حتى تدارك الناس فما بقي لنا متاع إلا وطيء ، فبايع رسول الله ﷺ الناس يومئذ . قالت : فكأنني أنظر إلى المسلمين قد تلبسوا السلاح - وهو معنا قليل - ، إنما خرجنا عماراً ، فأنا أنظر إلى غزوة بن عمرو (كان زوجها) وقد توسّح بالسيف ، فمتم إلى عمود كنا نستظل به فأخذته في يدي ، ومعني سكين قد شدته في وسطي ، فقلت : إن دنا مني أحد رجوت أن أقتله . فكان رسول الله ﷺ يومئذ يبايع الناس وعمر بن الخطاب أخذ بيده فبايعهم على ألا يفرّوا . وقال قائل : بايعهم على الموت . ويقال : أول الناس بايع ، سنان ابن أبي سنان بن محصن (٢) فقال : يا رسول الله ، أبايعك على

(١) أنظر ترجمة أم عمارة في كتابنا (غزوة أحد) .

(٢) هو سنان بن أبي سنان بن محصن الأسدي ، أخو عكاشة بن محصن الأسدي . قال ابن حجر في الإصابة : شهد سنان بدرأ ، كان سنان هذا أول من كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتحركات طليحة بن خويلد الأسدي المنبوهة ، مات سنان سنة ٣٢ هـ .

ما في نفسك . فكان رسول الله ﷺ يبائع الناس على بيعة
سنان بن أبي سنان (١) .

النبي يبائع عن عثمان :

ولما كان عثمان بن عفان غائباً في سفارته إلى قريش بمكة ،
بايع عنه النبي ﷺ فضرب بإحدى يديه على الأخرى (٢) .

وقال ابن برهان الدين : (أن النبي ﷺ قال حين بايع
عن عثمان : (اللهم إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله
فأنا أبايع عنه فضرب بيمينه شماله) (٣) .

وفي الترمذي : (وكانت يسرى رسول الله ﷺ خيراً من
أيمانهم) (٤) .

وفي مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٥ : (فلما رجع عثمان
أتى به رسول الله ﷺ إلى الشجرة فبايعه ، وقد كان قبل ذلك
حين بايع الناس قال : إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة
رسوله ، فأنا أبايع له ، فضرب يمينه على شماله) .

عثمان يبائع النبي تحت الشجرة :

وبعد أن أطلقت قريش سراح عثمان والعشرة من الصحابة

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٣ وما بعدها .

(٢) أنظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٦ .

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤١ .

(٤) أنظر بهجة المحافل للأشعر اليمني ص ٣٢٢ .

دعا النبي ﷺ وجاء به وبأيمه تحت الشجرة ، بعد أن بايع له في غيابه .

قال الواقدي : فلما رجع عثمان أتى به رسول الله ﷺ إلى الشجرة فبايعه ، وقد كان قبل ذلك حين بايع الناس قال : إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله ، فأنا أبائع له فضرب يمينه على شماله (١) .

قريش تسمى للصلح بعد البيعة :

وبعد أن تمت البيعة في الحديبية تأكد لدى سادات مكة أن ذلك يعني الإستنفار العام بين المسلمين ، وأن البيعة لا تعني تصميم المسلمين على خوض الحرب ضد قريش ، فخاف القرشيون خوفاً شديداً ، لأنهم يدركون (سلفاً أن نتيجة هذه الحرب إذا ما نشبت) ستكون في غير صالحهم مستمدين هذا الإدراك من التجارب العملية القاسية التي لمسوها في بدر وأحد والحنديق .

كيف نصح سهيل بن عمرو قريشاً بالجنوح إلى السلم ؟!

ولهذا فقد سارع زعماء قريش إلى طلب الصلح من المسلمين ، بناءً على مشورة ونصح سهيل بن عمرو سيّد بني عامر بن لؤي . فقد كانت قريش (عندما شعرت بحرجة الموقف وازدياد حدة التوتر إلى حد الانفجار قبل البيعة) بعثت بسهيل بن عمرو

(١) الغازي ج ٢ ص ٦٠٥ .

وحويطب بن عبد العزى^(١) وآخرين من الزعماء إلى الحديبية ليحسّوا نبض المسلمين ويطلعوا على حقيقة الموقف كما هو بين المسلمين ، ثم يقدّموا تقريراً إلى نواب دار الندوة في مكة ليتخذ هؤلاء النواب القرار النهائي بشأن هذه الأزمة التي باتت تقلق المشركين - في الواقع - أكثر مما تقلق المسلمين .

ولقد اطلع سهيل بن عمرو وباقي أعضاء وفده - الذين هم في واقعهم عيوناً وجواسيس جاءوا في صورة وفد للتفاوض - اطلعوا على حقيقة الموقف في الحديبية وأخذوا الانطباع الصحيح عن مدى الغليان الشديد بين المسلمين ومدى استعدادهم لخوض المعركة الفاصلة إن هي نشبت .

سهيل بن عمرو يشاهد بيعة الرضوان :

ولعله من حسن طالع قريش أن يكون سهيل بن عمرو وباقي أعضاء وفده حاضرين في الحديبية ساعة مبايعة المسلمين لنبيهم ﷺ على الموت .

(١) هو حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ود العامري القرشي أسلم عام الفتح ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، شهد حينئذ مع النبي صلى الله عليه وسلم كان صديقاً لأبي ذر ، وهو الذي دخل به على النبي صلى الله عليه وسلم في مكة فأسلم ، وقد سر النبي صلى الله عليه وسلم لإسلامه ، وكان غنياً موسراً ، أقرض النبي صلى الله عليه وسلم عند زحفه إلى حنين أربعين ألفاً انتقل حويطب من مكة إلى المدينة بعد الفتح ، مات في خلافة معاوية سنة أربع وخمسين هـ . وحويطب هو الذي جدد انصاب الحرم في عهد الخليفة عمر .

فقد شاهد سهيل وأصحابه إجراءات البيعة ، فرأوا مظهراً من أعظم مظاهر التفاني في خدمة العقيدة ، والإستعداد للتضحية والفداء في سبيل الله ، فثلث قلوبهم رُعباً ، وقرّ في أعماق نفوسهم أنه لا يمكن لقريش أن تنتصر على هؤلاء الذين يكاد بعضهم يطأ ظهر بعض وهم يتسابقون ليشدوا على يد نبيهم القائد مبايعينه على الموت ، والبهجة والفرح والسرور والغبطة تعمل وجوههم .

لذلك عاد سهيل بن عمرو وأصحابه إلى قريش وقدّموا إلى دار الندوة تقريراً شاملاً عما رأوا وشهدوا في الحديبية ، وقد أفصحوا لنواب دار الندوة في هذا التقرير عن مخاوفهم من نتيجة الحرب إذا ما نشبت ، وضمنوا هذا التقرير نصيح قريش بأن تسارع إلى مهادنة المسلمين وعقد صلح معهم تضع بموجبه الحرب أوزارها .

وقد استجاب نواب بزلان قريش إلى الإقتراح الداعي إلى مصالحة المسلمين ، فبيعيتوا منهم وفسدأ برئاسة سهيل بن عمرو ليتولى مفاوضة المسلمين من أجل إقامة الصلح .

قال الواقدي : ثم إن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب ابن عبد العزّي ومكرز بن حفص ، فلما نظرت قريش - سهيل ابن عمرو وحويطب بن عبد العزّي ومن كان معه وعيون قريش^(١)

(١) العيون هنا : الجواسيس .

إلى ما رأت من سرعة الناس إلى البيعة وتشهيرهم للحرب ، اشتد رعبهم وخوفهم وأسرعوا إلى القضية ، فرجع حويطب بن عبد العزى وسهيل بن عمرو ومكرز بن حفص إلى قريش ، فأخبروهم بما رأوا من سرعة أصحاب رسول الله ﷺ إلى البيعة ، وما جعلوا له .

فقال أهل الرأي منهم : ليس خيراً من أن نصلح محمداً على أن ينصرف عنا عامه هذا ويرجع قابل ، فيقيم ثلاثاً وينحر هديته وينصرف ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا . فأجمعوا على ذلك ، فلما أجمعت قريش على المصادقة والصلح بعثوا سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص وقالوا (لسهيل رئيس الوفد) : إئت محمداً فصالحه ، وليكن في صلحك : لا يدخل في عامه هذا ، فوالله لا يتحدث العرب أنك دخلت (لعله : أنه دخل علينا غنوة) ^(١) .

سهيل بن عمرو النجم اللامع :

كان سهيل بن عمرو من النجوم اللامعة بين سادات قريش في العقل والحلم والرياسة وأصالة الرأي وبعد النظر .

ولهذا كانت قريش تدخره للقضايا المعقدة وتفرغ إليه لحل المعضلات ، لذلك لما تعقدت مشكلة الحديبية ووصلت إلى

(١) مفازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٢ و ٦٠٤ و ٦٠٥ نشر جامعة اكسفورد .

انفجار الحرب على أثر استنفار النبي ﷺ أصحابه وتعبثهم
للمعركة التي بات واضحاً لدى قريش أن المسلمين سيخوضونها على
إثر ما وصلهم من خبر اعتقال المشركين عثمان والعشرة من
المهاجرين وقتلهم في مكة .. لجأت إلى هذا السيد العامري
ليكون رئيس وفدها في مفاوضات السلام التي قرّر برلمان مكة
(دار الندوة) إجرائها مع المسلمين لإنهاء الأزمة .

هيئة الوفد القرشي :

وقد تمّ تأليف وفد المفاوضة من ثلاثة أعضاء من سادات
مكة ، هم :

- ١ - سهيل بن عمرو (عامري) رئيساً .
- ٢ - حويطب بن عبد العزّي (عامري) عضواً .
- ٣ - مكرز بن حفص (عامري) عضواً .

الخطوط العريضة للمعاهدة عند قريش :

ويظهر أن قريشاً قد وضعت في برلمانها (دار الندوة)
لوفدها المفاوض الخطوط العريضة لما يجب أن تكون عليه
المفاوضة في الحديبية بين الفريقين .

ومها يكن فإنه يمكن القول : إن البيعة في الحديبية قد
كانت عامل تحول جذري في موقف قريش من العناد والتصلّب
والشطط إلى الاعتدال .

فقد كانت نقطة الخلاف الرئيسية والتي كاد الخلاف حولها بين المسلمين وقريش يؤدي إلى حرب مدمرة ، هو أن قريشاً كانت تصرّ على منع المسلمين (كلياً) من دخول مكة ما بقي لقريش فيها سلطان .

ولكن قريشاً تراجعت أخيراً عن فكرة منع المسلمين من دخول مكة ، ولكن بأسلوب يحفظ لها شيئاً من ماء الوجه بين العرب الذين شاع بينهم أن قريشاً لن تسمح للمسلمين بدخول مكة أبداً .

فقد وافقت - في قرارها الأخير في دار الندوة - على السماح للمسلمين بدخول مكة لأداء مناسك العمرة ، ولكن ليس في هذا العام ، وإنما في العام القادم ، وهو قرار ما كانت قريش لتتخذه لولا ذلك القرار الحازم الذي اتخذته النبي القائد ﷺ والذي بموجبه أعلن أنه لن ينصرف إلى المدينة حتى يناجز قريشاً .

لذلك ، - ولخوف قريش الشديد من الحرب التي لم يعد أمرها مجرد كلام في الهواء ، ترسله قريشاً للمزايدة - ، أعطت قريش رئيس وفدها إلى الحديبية سهيل بن عمرو صلاحيات مطلقة لإحلال السلام ، على أن يركز أثناء المفاوضات على التمسك بطلب واحد لا يحميه عنه ، وهو أن قريشاً لا تمنع في أن يدخل المسلمون مكة ، ولكن شريطة أن يكون ذلك في العام القادم .

فقد قالوا سهيل بن عمرو : (صالح محمدأ ولا يكن في

صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا (١) .

وتركت باقي التفاصيل والإجراءات في صيغة معاهدة الصلح
لسهيل بن عمرو يصوغها كيف شاء ، وكان سهيل رجلاً صريحاً
شهماً عفاً للسان (دبلوماسياً) لبقاً في محادثاته ، مع منزلة
عالية في دنيا الفصاحة ، حيث كان يعدّ في مقدمة خطباء قريش
المفوهين (وقد أسلم فيما بعد ، وحسن إسلامه ، فاستشهد في
معركة اليرموك الشهيرة في الشام) .

سهل الله لكم من أمركم :

توجه سهيل بن عمرو والوفد المرافق له إلى الحديبية ، وقد
استبشر النبي ﷺ وبشر أصحابه بالفرج عندما رأى سهيلاً
مقبلاً ، فقال : قد سهل الله لكم من أمركم (٢) ، وقال : قد
أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل (٣) .

وفي رواية أن النبي ﷺ قال : (سهل الله أمركم ، القوم
ماتون اليكم بأرحامكم وسائلوكم الصلح فابعثوا الهدى وأظهروا
التلبية ، لعل الله يلين قلوبهم ، ففعلوا ذلك فارتفعت أصواتهم
بالتلبية من نواحي العسكر تشق عنان السماء (٤) .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٦ .

(٢) بهجة المحافل ج ١ ص ٣٦١ .

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٣ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٢ .

رغبة النبي في السلام :

ولا شك أن هذا التصرف من النبي ﷺ يدل على أنه - بالرغم من اتخاذه القرار الحاسم بمحاربة قريش - لا يزال يأمل في الوصول إلى حل عادل للمشكلة يضمن حقن الدماء ويضمن للمسلمين مباشرة حقهم في دخول مكة للطواف بالبيت وهو الحق الذي أصرت قريش علي إهداره بقوة السلاح حين أعلنت أنها ستحول (بحدّ السيف) دون دخول المسلمين مكة حتى وإن كانوا جاءوا للعمرة فقط .

بدء المفاوضات :

كان الجو أكثر صفاءً والحالة أكثر هدوءاً في محيط الفريقين أكثر من أي وقت مضى ، عندما وصل وفد قريش إلى الحديبية .

فقد كانت قريش جادة هذه المرة في المفاوضة ، بل ورغبة كل الرغبة في حل المشكلة لتتجنب الصدام المسلح الذي أزعجها وشوك وقوعه ، والذي لم يكن لدى سادات مكة وقادة ألويتها المؤلفة من أكثر من ثمانية آلاف مقاتل أن قريشاً ستكون هي الخاسرة إذا ما نشب الصدام ، بالرغم من أن قوات قريش تقدر بثمانية آلاف مقاتل ، بينما قوة المسلمين لا تزيد على ألف وأربعمائة .

وقد استمد زعماء قريش وقادتها المسكريون إعتقادهم بأنهم

— مع هذا التفوق — سيخسرون المعركة ، استمدوا هذا الاعتقاد من التجارب العملية التي لمسوها في المعارك التي خاضوها ضد المسلمين ، والتي خرجوا منها بدرس لن ينسوه أثناء بحث أي نزاع بينهم وبين المسلمين ، وهو أن التفوق البشري وكثرة السلاح وجودة التسليح ليس كافياً لإحراز النصر في المعارك ، إذ أن هذا التفوق الكبير يكون في حساب النتائج للمعارك — أمام زخم وصلابة العقيدة السليمة — كصفر من اليسار في علم الحساب لا وزن له ولا قيمة .

لهذا سارعت قريش — عندما جد الجد — إلى التفاوض مع المسلمين لتتجنب الدخول معهم في صدام حقيقي مسلح .

اعتذار رئيس الوفد القرشي للنبي واطلاق سراح عثمان وأصحابه :

كانت التحريات الأخيرة أثبتت أن المشركين في مكة احتجزوا سفير النبي ﷺ إليهم ، عثمان والعشرة المهاجرين الذين دخلوا معه مكة فعلاً ، ولكن لم يثبت أن قريشاً قد قامت بقتل هؤلاء الأحد عشر كما أشيع وأحدث غليظاً في صفوف المسلمين بالحديبية ، وأدّى إلى إعلان الاستنفار العام بين المسلمين في الحديبية .

ولقد كان سهيل بن عمرو — كما قلنا — لبقاً ورجل سياسة ودولة ، وكان أكثر القرشين بُعداً عن العنجهية والعناد والتهور .

ولهذا فإن أول ما افتتح به رئيس وفد قريش إلى الحديبية للمفاوضة هو الاعتذار للنبي ﷺ عن عمليات التسلل التي قامت بها بعض وحدات من جيش قريش إلى داخل المعسكر الإسلامي في الحديبية^(١) بقصد الإعتداء على المسلمين غدرًا . كما اعتذر سهيل بن عمرو عن عملية احتجاز عثمان والمهاجرين العشرة في مكة ، ووصف كل هذه العمليات بأنها من عمل السفهاء ولكي يبرهن على قوله هذا وكبداية طيبة من جانبه ، أرسل إلى قريش في مكة بأن تسارع (فوراً) إلى إطلاق سراح عثمان ابن عفان وأصحابه العشرة ، وأن تبعث بهم مكرمين إلى الحديبية ، وقد فعلت قريش ذلك في الحال ، فوصل عثمان وأصحابه المحتجزين إلى الحديبية ففرح المسلمون بعودتهم سالمين .

النبي يطلق سراح المشركين المحتجزين ،

كما أن النبي ﷺ من جانبه قام بإطلاق سراح المشركين الذين ألقى عليهم الحرس الإسلامي في الحديبية القبض أثناء محاولتهم التسلل إلى داخل المعسكر للإغتيال والتخريب ، وكان من بين هؤلاء المعتقلين عمرو بن أبي سفيان بن حرب^(٢) .

فقد ذكر الواقدي أن سهيل بن عمرو قال للنبي ﷺ لدى اجتماعه به للمفاوضة في الحديبية : (إن من قاتلك لم يكن من

(١) تقدمت تفاصيل عملية التسلل فيما مضى من هذا الكتاب .

(٢) مغازي الواقدي ج. ٢ ص ٦٠٤ .

رأي ذوي رأينا ولا ذوي الأحلام منّا ، بل كنتا له كارهين
حين بلغنا ولم نعم به ، وكان من سفهائنا .

تقدم سهيل بن عمرو بهذا الإعتذار إلى النبي ﷺ وعثمان بن
عفّان والمهاجرون العشرة لا يزالون محتجزين في مكة لدى
المشركين .

ولذلك فإن سهيل بن عمرو ، لما طلب من النبي ﷺ (عقب
هذا الإعتذار) أن يطلق سراح سفهاء قريش المتسلّين ، وافق
على طلبه ولكن بشرط أن تقوم قريش بإطلاق سراح عثمان
وأصحابه ، فوافق سهيل في الحال بعد أن صرّح بأن المطلب
النبوي مطلب عادل يجب تحقيقه .

فقد قال سهيل بن عمرو للنبي ﷺ : إبعث إلينا بأصحابنا
الذين أسرت ، فقال النبي ﷺ : إنني غير مرسلهم حتى ترسل
أصحابي . فقال سهيل : أنصفنا ، ثم بعث سهيل بن عمرو :
الشتيم بن عبد مناف التيمي إلى قريش يطلب منهم إطلاق
سراح عثمان وأصحابه قائلًا : إنكم حبستم رجالًا ، من أصحاب
محمد بينكم وبينهم أرحام ، لم تقتلوه ، وقد كنتا لذلك كارهين ،
وقد أبى محمد أن يرسل من أسر من أصحابكم حتى ترسلوا
أصحابه ، وقد أنصفنا ، وقد عرفتم أن محمدًا يطلق لكم أصحابكم
فبعثت قريش إلى النبي ﷺ بن كان عندهم وكانوا أحد عشر
جلا ، وأرسل رسول الله ﷺ إليهم أصحابهم الذين أسروا ،

أول مرة وآخر مرة^(١) .

بحث بنود الصلح :

بعد عملية تبادل الأسرى بين الفريقين (إن صحَّ هذا التعبير)
 شرع النبي ﷺ وسهيل بن عمرو في التفاوض حول البنود التي
 يجب أن تتضمنها معاهدة الصلح التي وافق الفريقان على إقامتها
 من حيث المبدأ .

وقد طال البحث والجدل والأخذ والرد والشد والجذب
 حول الإتفاق على بنود الصلح ، كل فريق - دوماً شك - يريد
 بنوداً تكون لمصلحة قومه .

النبي في حراسة أصحابه :

وقد تعثرت المفاوضات في كثير من مراحلها ، إذ تحول
 النقاش في بعض الأحيان إلى صخب ولغط حيث كان رئيس
 الوفد القرشي كلما فشل في إتمام شرط على النبي لا يرضاه ،
 رفع صوته غاضباً ، إلى حد جعل قائدي حرس المسلمين
 (عبّاد بن بشر وسلمة بن سلمة) القائمين على رأس رسول الله
 يلفتان نظر سهيل بن عمرو ، بأن يلتزم حدود اللياقة في مخاطبة
 الرسول ﷺ فلا يرفع صوته أكثر من اللازم .

قالت أم عمارة تصف جانباً من المفاوضات في الحديبية : إني

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٤

لأنظر إلى رسول الله ﷺ جالسا يومئذ متربعاً ، وإن عباد بن بشر وسلمة بن سلمة بن حريش مقننعا بالحديد ، قائمان على رأس النبي ﷺ إذ رفع سهيل بن عمرو صوته قالا : إخفض من صوتك عند رسول الله ﷺ ، وسهيل يارك على ركبتيه ، رافع صوته كأني أنظر إلى علم^(١) في شفته وإلى أنيابه ، وإن المسلمين لحول رسول الله ﷺ جلوس^(٢) .

بنود الصلح التاريخية :

وبعد طول الأخذ والرد بين المتفاوضين تقاربت وجهات النظر ، وتم الإتفاق بين النبي ﷺ ورئيس وفد قريش سهيل ابن عمرو على حل وسط ، بشأن النقطة الرئيسية التي كانت مثار الخلاف والتوتر الذي كاد يؤدي إلى الحرب .

فقد كانت قريش تصرّ على أن لا يدخل المسلمون مكة أبداً ما بقي لقريش فيها سلطان ، ومن أجل ذلك حشدت حوالي ثمانية آلاف مقاتل وعسكرت بهم في وادي بلدح خارج مكة لتصدّ المسلمين بالقوة إن هم اجتازوا حدود الحرم .

ومن جهة أخرى فقد حشم النبي ﷺ على أن يدخل بأصحابه مكة لأداء مناسك العمرة ، ومقاتلة القرشيين إن تعرّضت قواتهم المسلحة للمسلمين وحاولت صدهم عن البيت .. وبالرغم

(١) العلم : الشق في الشفة العليا (قاله في الصحاح) .

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٥ .

من التزام النبي ﷺ سبيل التريث والتأني في انتظار حل مرض يكفل للمسلمين حقهم المشروع في زيارة البيت (دون إراقة دماء) فقد عمدت قريش إلى تصعيد الأزمة وتأزيم الموقف الذي بلغ حد الانفجار ، عندما أقدمت قريش على احتجاز سفير النبي ﷺ اليها عثمان بن عفان وعشرة من المهاجرين في مكة ، وزاد الحالة توتراً أن صاحب عملية الإحتجاز التعسفية هذه إشاعة بأن القرشيين قتلوا المسلمين الأحد عشر ، فقرر النبي ﷺ على أثر ذلك مناجزة المشركين واقتحام مكة عليهم بقوة السلاح ، الأمر الذي أفرع قريشاً وأرعبها وجعلها تسارع إلى طلب الصلح من المسلمين .

الحل الوسط :

وكان الحل الوسط بشأن فقط النزاع الرئيسية هذه هو اتفاق النبي وقريش في هذه المفاوضات على أن يدخل المسلمون مكة للعمرة ، ولكن ليس في هذه السنة ، وإنما في العام القادم ، وذلك كحل وسط رأت قريش أنها به خرجت من الورطة التي أوقعت نفسها فيها ، مع شيء من حفظ ماء الوجه .

كما أن النبي ﷺ قد رأى أنه - بهذا الحل - قد حقق للمسلمين نصراً عظيماً دون أن يضطر إلى إراقة قطرة دم واحدة .. وهذا النصر هو ضمان اتفاقية الصلح حق المسلمين المشروع في دخول مكة لزيارة البيت ، وهو ما كانت قريش تعارض فيه كل المعارضة ، وقصرت على عدم الاعتراف للمسلمين به .

أما مسألة إرجاء مباشرة المسلمين حق دخول مكة سنة واحدة ، فلا تؤثر في جوهر الإنتصار الذي حققه النبي ﷺ للمسلمين ، لأن هذا التأخير أمر سطحي بالنسبة لجوهر القضية ، ما دام أن المسلمين سيصلون إلى غايتهم التي جاءوا من أجلها وهو الطواف بالبيت .

ويمكن القول : إن قبول النبي ﷺ الرجوع من الحديبية ليدخل مكة في العام القادم ، هو ثمن لمكاسب أممها حصول المسلمين على حقهم المشروع - وهو دخول مكة - دون أن يخسروا قطرة دم واحدة ، لأن النبي ﷺ كان حريصاً كل الحرص على حقن الدماء وصونها عن الضياع ^(١) .

أهم بنود الصلح :

وبتوصل الفريقين إلى الاتفاق على حل أعظم مشكلة ، كانت مصدر التوتر ومبعث الخلاف ، تم إبرام الصلح التاريخي في الحديبية .

وقد تضمنت معاهدة الصلح هذه بنوداً أخرى غير البند الرئيسي المتعلق بدخول المسلمين مكة ، وفيما يلي ملخص للبنود التي تضمنتها معاهدة هذا الصلح :

١ - على المسلمين أن يرجعوا إلى المدينة دون أن يدخلوا

(١) سيأتي ذكر هذه المكاسب في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله .

مكة ذلك العام .

٢ - من حق المسلمين أن يأتوا في العام القادم فيدخلوا مكة
ليقضوا مناسكهم .

٣ - تلتزم قريش بعدم التعرّض للمسلمين حين يدخلون
مكة ، بأيّ نوع من أنواع التعرّض .

٤ - على المسلمين لدى دخولهم مكة أن لا يحملوا من
السلاح إلاّ سلاح الراكب وهو السيف .

٥ - يلتزم المسلمون بأن لا يشهروا سلاحهم وهم بمكة ، بل
عليهم أن يتركوا السيوف في أغمارها ما داموا في مكة .

٦ - المدة المحددة التي ليس للمسلمين أن يقيموا أكثر منها
في مكة ، هي ثلاثة أيام فقط ، عليهم أن يغادروا مكة بعد
انقضائها فوراً .

٧ - إنهاء حالة الحرب القائمة بين المسلمين وقريش ، بقيام
هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات ، يأمن الناس فيها على
أنفسهم .

٨ - يلتزم النبي ﷺ بأن يردّ إلى قريش كل من جاء إليه
من أبنائها بعد إبرام هذه المعاهدة ، إذا كان قد جاء بغير إذن
أهله ، وعلى النبيّ الإلتزام بذلك حتى ولو كان اللاجئ مسلماً .

٩ - ليس على قريش أن تردّ إلى النبي ﷺ من جاء إليها
من المسلمين حتى ولو كان مرتدّاً عن دينه .

١٠ - تترك الحرّية المطلقة للقبائل المجاورة للحرم لينضموا إلى أيّ المعسكرين شاءوا ، ويدخلوا في عهد أيّ الفريقين أرادوا ..

١١ - تعتبر القبيلة التي تنضم إلى أيّ من المعسكرين جزءاً من المعسكر الذي تدخل في عهده ، له ما لها ، وعليه ما عليها ، وعليها الإلتزام بما جاء في بنود المعاهدة .

١٢ - أيّ عدوان تتعرّض له أيّ من هذه القبائل يعتبر عدواناً على المعسكر الداخلة في عهده كما يعتبر هذا العدوان مبطلاً للمعاهدة .

هذا الملخص هو ما يمكن تسميته بالخطوط العريضة للصلح التاريخي ، هذا الذي أقرّه وافق عليه كل من محمد بن عبد الله نبي المسلمين ، وسهيل بن عمرو ممثل قريش في المفاوضة .

المعارضة الشديدة للاتفاقية :

وبعد الإتفاق على القواعد الكاملة لمعاهدة الصلح هذه ، وقبل تسجيل وثائقها ظهرت بين المسلمين معارضة شديدة وقوية لهذه الاتفاقية ، وخاصة البند الثامن والتاسع اللذين بمرجعهما يلتزم النبي ﷺ برّد من جاءه من المسلمين لاجئاً ، ولا يلتزم قريش برّد من جاءها من المسلمين مرتدّاً ، والبند الأول الذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ذلك العام .

وقد كان أشدّ الناس معارضة لهذه الإتفاقية وانتقاداً لها ،
عمر بن الخطاب ، وأسير بن حضير سيّد الأوس ، وسعيد بن
عبادة سيّد الخزرج .

احتجاج ابن الخطاب ومجادلته النبي ﷺ :

فقد ذكر المؤرخون أنه بينما كانت الإجراءات تتخذ لتسجيل
المعاهدة التي تمّ الاتفاق عليها نهائياً ، إذا بعمر بن الخطاب يأتي
إلى رسول الله ﷺ معلناً معارضته لهذه الاتفاقية ، وهو في حالة
من الكرب والإنفعال يشاركه في هذه المعارضة جمهور المسلمين
الموجودين في الحديبية .

ألسنا بالمسلمين وأليسوا بالمشرّكين ؟

فقد قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ - معارضاً الإتفاقية -
يا رسول الله ، ألسنت برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا
بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشرّكين ؟ قال : بلى ،
قال : فعلامٌ نعطِي الدّينة في ديننا ؟. فردّ النبي ﷺ على
استجابات ابن الخطاب الشديدة ، ردّ عليه فقال له : (في
يقين النبيّ وحلم السيد وحكمة القائد) : أنا عبد الله ورسوله
لن أخالف أمره ، ولن يضيّعني (١) .

ويظهر أن غضب ابن الخطاب ومعارضته للإتفاقية وقوة

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٤ .

اعتقاده الغبن فيها ، كانت أشدّ من أن تترك له الفرصة ليتفتّمها ما قاله ، له النبي ﷺ ردّاً على استجواباته ، فذهب الفاروق — وهو على ذلك المستوى من الإنفعال — إلى وزير النبيّ الأكبر أبي بكر الصديق ، فاحتجّ لديه وأبلغه معارضته للإتفاقية التي وصفها بأنها تشتمل على الدنيّة للمسلمين ، فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشرّكين ؟ قال : بلى ، قال : فعلامَ نُعطي الدنيّة في ديننا ؟ فقال أبو بكر — ناصحاً الفاروق بأن يترك الإحتجاج والمعارضة — : إلزم عرزه ، غلّني أشهد أنه رسول الله ، وأن الحق ما أمر به ، ولن نخالف أمر الله ولن يضيّعه الله ^(١) .

اشتداد الكرب على المسلمين :

ولم يكن إبن الخطاب وحده مكروباً من شروط القرشيين في هذا الصلح ، بل كان أكثر الصحابة متألمين من هذه الشروط وغير مرتاحين للموافقة عليها ، ولكن ليس كلّهم كلّبن الخطاب جرأة في الإفصاح عن ما يريدون الإفصاح عنه في مثل هذه المواقف ، لقد كان الصحابة كارهين للصلح ومشارّكين لابن الخطاب في الشعور

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٤ وسيرة إبن هشام ج ٢ ص ٣١٦ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٦ ، وفي تاريخ الطبري (وهو الأنسب) ، أن عمر بدأ في احتجاجه بأبي بكر الصديق ، ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

بالإمتعاض والغم* والهم* نتيجة قيام هذا الصلح الذي لم يدركوا أبعاده كما أدركها النبي الأعظم ﷺ .

فقد كانوا لا يشكّون في أنهم سيدخلون مكة للرؤيا التي رأى رسول الله ﷺ وهو في المدينة بأنه سيدخل مكة ويأخذ مفتاح الكعبة .

ولذلك صُدموا صدمة شديدة عندما قام الصلح بين النبي ﷺ وبين قريش على أساس أن يعود المسلمون دون أن يدخلوا مكة ، فكادوا يهلكون لهذه الصدمة النفسية العنيفة . وقد باحثوا النبي ﷺ حول ما يختلج في صدورهم حول هذا الأمر المزعج بالنسبة لهم وتقدموا إليه بمعدة أسئلة ، ولكن بغير الأسلوب الشديد الذي عبّر به عمر بن الخطاب في معارضته .

قال أبو سعيد الخدري - يصف امتعاض الصحابة وكرههم للصلح - : وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصلح ، لأنهم لا يشكّون في الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ أنه حلق رأسه ، وأنه دخل البيت ، فأخذ مفتاح الكعبة ، وعرف مع المعرفين ، فلما رأوا الصلح دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون .

وقال عمر ورجال معه من أصحاب النبي ﷺ : يا رسول الله ألم تكن حدثتنا أنك ستدخل المسجد الحرام ، وتأخذ مفتاح الكعبة وتعرف مع المعرفين ؟ وهدّينا لم يصل إلى البيت

ولا نحن ! فقال رسول الله ﷺ : قلت لكم في سفركم هذا ؟
قال عمر : لا .

فقال رسول الله ﷺ : أمّا إنكم ستدخلونه وأخذ مفتاح
الكعبة ، وأحلق رأسي ورؤوسكم ببطن مكة ^(١) .

حادثة أبي جهل المؤثرة :

وبينا كان المسلمون في حالة من الضيق والكرب يراجعون رسول
الله ﷺ لإعادة النظر في بنود الصلح التي اعتبروها ماسة
بكرامتهم وخيبة لآمالهم - كما صرّح بذلك كبير معارضهم
عمر بن الخطاب أمام الرسول الأعظم ﷺ - وبينا كان النبي
الحكيم الحليم يحاول تهدئتهم وإقناعهم بأن لا حيف ولا غلط في
اتفاقية الصلح التي تم الوصول إليها بينه وبين سهيل بن عمرو ،
وبينا أخذ البعض من الصحابة في تفهّم أبعاد هذه الاتفاقية
ومدى مكاسبها بالنسبة للمعسكر الإسلامي .. إذا بحادث مؤثر
يحدث فجأة ، يلهب الموقف من جديد ويضاعف من ألم المسلمين
ويزيد من كربهم ، ويعتق في نفوسهم من الكره للصلح الذي
كلوا في الأصل كارهين له ، ومستعدين لإبطاله وعدم الإلتزام
به ، لولا احترامهم الشديد المطلق لنبيتهم الذي رغب في هذا
الصلح ووافق عليه .

(١) مفازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٧ - ٦٠٩ ، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٨

فَعِنْدَمَا انْتَهَى النَّبِيُّ ﷺ وَمَنْدُوبُ قَرِيْشٍ سَهِيْلُ بَنِ عَمْرُو ،
 مِنْ الْمَفَاوِضَاتِ الَّتِي انْتَهَتْ بِالإِتْفَاقِ عَلَى بِنُودِ الصَّلَاحِ ، وَلَمْ يَبْقَ
 سِوَى تَسْجِيْلِ وَثَائِقِهِ لِلتَّوْقِيعِ عَلَيْهَا ، إِذَا بِأَحَدِ الشَّبَابِ الْمُسْلِمِ
 مِنَ الْمُضْطَهْدِيْنَ فِي مَكَّةَ ، يَطْلُعُ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ يَرْسِفُ فِي قِيَّوَدِهِ
 وَالسِّيفُ فِي يَدِهِ طَالِباً مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ فِي الْحَدِيْبِيَّةِ حَقَّ اللُّجُوءِ لِيَفِرَّ
 بِدِينِهِ مِنَ الْمَنَاخِ الشَّرِكِيِّ الْخَائِفِ ، وَقَدْ تَمَكَّنَ هَذَا الشَّبَابُ الْمُؤْمِنُ
 الصَّابِرُ مِنَ الْإِحْتِمَاءِ بِمَعْسَكِ الْمُسْلِمِيْنَ حَيْثُ وَصَلَ إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ الْوَفْدِ الْقُرَشِيِّ الْمَفَاوِضِ .

وَقَدْ زَادَ الْأَمْرَ تَعْقِيْدًا ، وَكَادَ يُوْدِّيْ إِلَى نَسْفِ إِتْفَاقِيَّةِ
 الصَّلَاحِ وَالْعُودَةِ بِالْأَزْمَةِ الْخَطِيْرَةِ إِلَى أَشَدِّ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ
 الْإِتْفَاقِ ، هُوَ أَنَّ هَذَا الشَّبَابَ اللَّاجِئَ الْمُسْلِمَ ، هُوَ ابْنُ رَئِيسِ وَفْدِ
 قَرِيْشٍ الْمَفَاوِضِ ، سَهِيْلُ بَنِ عَمْرُو ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَرَى ابْنَهُ
 الْمُسْلِمَ (أَبَا جَنْدَلٍ) حَتَّى اسْتَشَاطَ غَضَبًا ، وَنَهَضَ مِنْ مَجْلِسِ
 النَّبِيِّ ﷺ - فِي عَصَبِيَّةٍ جَاهِلِيَّةٍ - إِلَى ابْنِهِ الَّذِي فَرَّ مِنْ سَجْنِهِ
 بِمَكَّةَ ، فَضْرَبَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَجْرُّهُ بِتَلَابِيْهِهِ وَيُدْفَعُ بِهِ
 أَمَامَهُ لِيُعِيْدَهُ إِلَى مَعْسَكِ الْمُشْرِكِيْنَ تَهْمِيْدًا لِإِعَادَتِهِ إِلَى
 سَجْنِهِ بِمَكَّةَ .

وَعِنْدَمَا اعْتَدَى سَهِيْلُ بَنِ عَمْرُو الْمُشْرِكَ عَلَى ابْنِهِ الْمُسْلِمِ
 بِالضَّرْبِ ، وَأَخَذَ يَدْفَعُهُ بِعَنْفٍ لِإِعَادَتِهِ إِلَى الْمَعْتَقْلِ صَاحِ
 أَبُو جَنْدَلٍ مُسْتَفِئًا بِالْمُسْلِمِيْنَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِيْنَ أَرَدْتُ إِلَى

المشركين فيفتنونني في ديني (١) ؟ .

فالتفت عواطف المسلمين من جديد ضد إتفاقية الصلح ،
وساد الموقف توتر جديد ، كاد ينسف الإتفاقية ، بعد أن
تدخل المسلمون لحماية أبي جندل المسلم من أبيه المشرك ، إذ
انتزعوه منه (على ما يظهر) ل يبقى معهم ، لأن تلك رغبته
الخاصة ، ولأنه أصبح منهم ، عضواً في الأسرة الإسلامية
الكبرى .

ولم يحاول سهيل بن عمرو إنتزاع ابنه بالقوة من أيدي
المسلمين ، بل لجأ إلى الإحتجاج لدى النبي ﷺ وطالب بتسليم
إبنه المسلم تطبيقاً للبند الثامن من الإتفاقية الذي ينص على التزام
النبي ﷺ بإعادة كل من جاءه مسلماً من أبناء المشركين
إلى أمه .

فقد قال سهيل بن عمرو في احتجاجه : هذا أول ما قاضيتك
عليه ، ردّوه (٢) (أي إبنه أبا جندل) . وقد حاول
النبي ﷺ الإعتذار عن تسليم أبي جندل لأبيه ، بأن المعاهدة
لم يجر تسجيلها . والتوقيع عليها قائلاً : « إننا لم نقض
الكتاب بعد » (٣) .

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٥ .

(٢) مغازي الراقي ج ٢ ص ٦٠٨ .

(٣) مغازي الراقي ج ٢ ص ٦٠٨ .

ولكن سهيل بن عمرو أصر على تسليم ابنه محتجاً بأن الاتفاقية تعتبر في حكم المنتهية ، وهدّد بأنه سيلغي الاتفاقية إذا لم يتسلم ابنه أبا جندل ، حيث قال : « هذا أول ما أقاضيك عليه ، لقد لجّعت^(١) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا - يعني ابنه - والله لا أكتبك على شيء حتى تردّه إليّ »^(٢) .

تسليم أبي جندل للمشركين :

ولم يسع محمد بن عبد الله - وهو أبرّ من أوفى بالعهد - إلا أن يقف عند كلمته ، ويطبق الاتفاقية نصاً وروحاً ويسلم أبا جندل المسلم إلى أبيه المشرك ، فسلّمه على ما في ذلك من إيلاام للنفوس المؤمنة ، لأن الوفاء بالعهد - عند من هو في منزلة رسول الله - أسمى من العواطف .

النبي يعتذر لأبي جندل :

وقد اعتذر النبي ﷺ للشاب المسلم أبي جندل بأنه لا يمكنه القيام بأي عمل يحول بين أبيه وبين اعتقاله ، لأن ذلك لو فعله ، يعتبر نقضاً للعهد الذي أعطاه لقريش ، وغدراً لا يرضى أبوه جندل نفسه أن يقدم عليه لأحد من المسلمين العاديين فضلاً عن سيدهم وقائدهم ، فقد قال النبي ﷺ لأبي جندل : « يا أبا جندل

(١) لجّت : تمت .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٥ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٨ .

أصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك (أي من المستضعفين) فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطينا على ذلك عهداً ، وإنا لا نفدر^(١) . »

أبو جندل يستسلم ويعطيه امر الرسول :

وقد اقتنع أبو جندل كل الإقتناع بما قاله النبي ﷺ فأطاع أمر الرسول ﷺ فاستسلم لأبيه المشرك وكله ثقة وأطمئنان بأن الله سيجعل له وإخوته المستضعفين من الشباب المسلم في مكة مخرجاً ، لأن النبي ﷺ بشره بذلك ، والمؤمن الثابت لا يمكن أن يكون لديه أدنى ريب في صدق ما يقوله الرسول ﷺ ، ولذلك عاد أبو جندل يرسف في قيوده إلى سجنه الرهيب بمكة وهو قرير العين هادئ البال للبشرى التي بشره بها نبيّه . « فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً » ، وفعلًا لم تمض سنة على مأساة أبي جندل المؤلمة في الحديدية حتى كتب الخلاص له ولسبعين من إخوته الشباب في مكة ، إذ تمكّنوا (وبصورة لا يدري أحد كيف تمت) من الهرب من سجون الشرك في مكة ، وكونوا لهم تجمّعاً ثورياً إسلامياً في الساحل على طريق قوافل المشركين بين مكة والشام ، كما سيأتي تفصيله في هذا الكتاب إن شاء الله .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٨ ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٦ ، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٨ .

ازدياد الكرب على المسلمين :

وبعد أن أعاد النبي ﷺ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو
تزايد ضغط الكرب والهَمّ والقَمّ على نفوس المسلمين حتى
كادوا يهلكون .

وقد بلغ الألم النفسي بالمسلمين (للحالة المؤلمة التي عاد عليها
أبو جندل إلى معتقل الشرك ومناخ الكفر) إلى درجة أنهم
صاروا يَبْكون تَوَجُّعاً لما حلَّ بأبي جندل ، الشاب الطيب المثالي
المسلم ، الذي أخذه أبوه المشرك الفظَّ يجره في وحشية وقسوة
أمامهم دون أن يقوموا بأيّ عمل لإنقاذه ، مع قدرتهم التامة
على ذلك .

سهيل بن عمرو يرفض شفاعة الرسول في ابنه :

وكان الرسول الأعظم ﷺ - بعد أن سلّم بحق سهيل بن
عمرو في اعتقال ابنه ووافق على تسليمه - طلب من سهيل أن
يتركه له ، ويتنازل عن حقه في اعتقاله ، لا سيما أنه جاء بمحض
اختياره راعباً في الإلتحاق بالمسلمين ، ولكن سهيلاً رفض
هذا الطلب ، وأصرّ على استعادته فكان له ما أراد لأن ذلك
حق له كفلته شروط الصلح .

عضوا الوفد القرشي يجيران أبا جندل :

غير أن العضوين في وفد قريش وهما (حويطب بن عبد

العزّي ، ومكرز بن حفص) لما رأيا إلهام النبي ﷺ على سهيل بن عمرو في أن يترك إبنه ويعفيه خوفاً عليه من التعذيب ورأيا سهيلاً يرفض شفاعة النبي ﷺ استنجيا ، فأبلغا النبي ﷺ بأن أبا جندل سيكون في حمايتهما من شرّ أبيه ، فقالا : يا محمد نحن نجيّره لك ، وفعلنا أبلغا سهيل بن عمرو بأن إبنه أصبح في جوارهما ، ثم أدخلاه فسطاطاً ، فكف أبوه عن إيذائه (١) . وكان هذا أول فرج ينال أبا جندل مصداقاً لقول النبي ﷺ له : « فإن الله جاعل لك ولن معك فرجاً وفرجاً » .

وقد روى الإمام الواقدي قصة أبي جندل المؤثرة هذه فقال : « فبينما الناس على ذلك قد اصطلحوا ، والكتاب لم يكتب ، أقبل أبو جندل بن سهيل ، قد أفلت يرسف في القيد متوشحاً بالسيف ، خلا له أسفل مكة ، فخرج من أسفلها ، حتى أتى رسول الله ﷺ وهو يكاتب سهيلاً ، فرفع سهيل رأسه ، فإذا بإبنه أبي جندل ، فقام إليه سهيل فضرب وجهه بغصن شوك ، وأخذ بلبنته وصاح أبو جندل بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أريد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ فزاد المسلمين ذلك شرّاً إلى ما بهم ، وجعلوا ييكون لكلام أبي جندل . فقال حويطب ابن عبد العزّي لمكرز بن حفص : ما رأيت قوماً قطّ أشدّ حياءً ممن دخل معهم من أصحاب محمد لهمد وبعضهم لبعض ! أما اني أقول لك لا تأخذ من محمد نصفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى

(١) أنظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٦

يدخلها عنوة ! فقال مكرز : أنا أرى ذلك . قال الراقيدي :
وقال سهيل للنبي ﷺ : هذا أول ما قاضيتك عليه ، ورتوه ،
فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد . فقال سهيل :
والله لا أكاتبك على شيء حتى تردّه إليّ ، فردّه رسول
الله ﷺ ، فكلّم رسول الله ﷺ سهيلاً أن يتركه فأبى .

فقال مكرز بن حفص وحويطب : يا محمد نحن نجيره لك .
فأدخلاه فسطاطاً فأجاره ، وكفّ أبوه عنه . ثم رفع رسول
الله ﷺ صوته فقال : يا أبا جندل ، أصبر واحتسب فإنّ الله
جاعل لك ولن معك فرجاً ومخرجاً ! إنا قد عقدنا بيننا وبين
القوم صلحاً ، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً ،
وإنا لا نفسد .

تفجير المعارضة بين المسلمين من جديد :

وكان استحكام حلقات عنة أبي جندل وتماظم مآساة
بإعادته إلى أبيه رغماً عن إرادته سبباً في تفجير المعارضة للصلح
من جديد داخل المعسكر الإسلامي ، فقد طغى الحزن والأسى
على نفوس المسلمين واعتبروا ما نال أبا جندل من إهانة على يد
أبيه المشرك دون أن يستطيع المسلمون حمايته ، بسبب التزامات
نبيهم في الصلح . . اعتبروا ذلك أول القطاف المرّ لثمار صلح
الحديبية ، فعادوا إلى المعارضة من جديد ، وذهبت مجموعة منهم
إلى رسول الله ﷺ وعادوا مناقشته واستجوابه مبدين أهم

ومعارضتهم للصلح ، ومتسائلين : كيف ولماذا يعودون إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ، وقد وعدهم رسول الله ﷺ ذلك وهم بالمدينة ؟

التفكير في التمرد ولكن !

بل لقد فكّر بعضهم - لشدة ما ناله من الحزن والأسى - في التمرد والخروج لمقاتلة المشركين في الحديبية رغم اتفاقية الصلح ، لولا أن عصمه الله من الإقدام على هذا التمرد .

فقد روي عن كبير المعارضين للصلح (الفاروق عمر بن الخطاب) أنه قال في خلافته - فيما رواه عنه ابن عباس وكان يتحدث عن صلح الحديبية - إرتبت ارتياباً لم أرتبه منذ أسلمت إلاّ يومئذ ، ولو وجدت ذلك اليوم (يوم الصلح) شعبة تخرج عنهم رغبة عن القضية لخرجت ثم جعل الله تبارك وتعالى عاقبتها خيراً ورشداً ، وكان رسول الله ﷺ أعلم^(١) وفي رواية أخرى أن عمر قال : ما زلت أصوم وأتصدق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت يومئذ .

وقال أبو سعيد الخدري : جلست إلى عمر بن الخطاب يوماً ، فذكر القضية (أي صلح الحديبية) فقال : لقد دخلني يومئذ من الشك ، وراجعت النبي ﷺ يومئذ مراجعة ما راجعته

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٧ .

مثلها قط ؛ ولقد أعتقت فيما دخلني يومئذ رقاباً ، وصمت
دهراً ، وإني لأذكر ما صنعت خالياً فيكون أكبر همّي ، ثم
جعل الله عاقبة القضية خيراً ، فنبني للعباد أن يتسهموا الرأي ،
والله لقد دخلني يومئذ من الشك حتى قلت في نفسي : لو كنت
مائة رجل على مثل رأيي ما دخلنا فيه أبداً ، فلما وقعت القضية
أسلم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ
إلى يوم الحديبية وما كان في الإسلام فتح أعظم من الحديبية .
وروى البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين ^(١) قال :
قال أبو وائل : لما قدم سهل بن حنيف ^(٢) من صفين أتياه

(١) هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي ، أسلم عام خيبر
وغزا عدة غزوات ، كان حامل راية خراعة يوم الفتح ، كان أحد رواة
الحديث المشهورين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مبعوث الخليفة
عمر إلى أهل البصرة لتفقيهم في الدين ، كان أحد العباد الزهاد المشهورين ،
اعتزل الفتنة ولم يشارك أيّاً من المعسكرين القتال في صفين والجل قال
أبو نعم : كان مجاب الدعوة ، توفي سنة اثنتين وخمسين من الهجرة .

(٢) هو سهل بن حنيف بن واهب بن الحكم الأنصاري الأوسمي شهيد
بدرًا والمشهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت أحد الأبطال
الأفذاذ الذين ثبتوا إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ساعة
الهزيمة ، فدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفاعاً مجيداً ، وكان من
رماة الأنصار المشهورين ، فأوقفت سهامه الحادة هجمات المشركين عن النبي
صلى الله عليه وسلم ، وكانت الرسول صلى الله عليه وسلم ساعة تكالب
المشركين عليه يقول (وسهل ينافع عنه) ، (نبأوا سهلاً فإنه سهل) ، أغنى
النبي صلى الله عليه وسلم بين سهل وبين علي بن أبي طالب ، شهد صفين إلى
جانب أمير المؤمنين علي ، توفي سهل بالكوفة سنة ثمان وثلاثين هـ .

نستخبره ، فقال : إلتهموا الرأي ، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو
أستطيع أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددت ، والله
ورسوله أعلم ، وما وضعنا أسياقنا على عواتقنا لأمر يفظعنا إلا
سئلن بنا إلى أمر نعرفه قبل هذا الأمر ، ما نسد منها خصماً
إلا انفجر علينا خصم ، ما ندري فائي له ^(١) .

ابن الخطاب يفري أبا جندل بقتل أبيه المشرك :

وبالرغم من تفكير بعض الصحابة - وعلى رأسهم الفاروق
عمر - في التمرّد بمقاتلة المشركين رغم الاتفاق على الصلح بين
النبي ﷺ وسهيل بن عمرو - كما صرح بذلك ابن الخطاب
وعمران بن حصين - فقد عصمهم الله من هذا الأمر الخطير ،
فكلموا غيظهم وابتلعوا آلامهم ، فظلوا عند أوامر النبي
ﷺ القاضية بعدم محاربة المشركين .. والتزموا بها .

غير أن عمر بن الخطاب قام بمحاولة لقتل رئيس الوفد
القرشي سهيل بن عمرو المشرك ، دون أن يكون ذلك مُجيباً
بالتزامات النبي ﷺ المنصوص عليها في معاهدة الصلح ، وذلك
بأن لجأ عمر إلى أبي جندل وأخذ يشجعه على قتل أبيه المشرك ،
ولكن أبا جندل مع رغبته في ذلك أبلغ عمر بأنه كسمل يلتزم
بما التزم به نبيّه محمد ﷺ ، لا يمكنه قتل سهيل ، لأن ذلك

(١) صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٧٠ ، الطبعة المنيرية المصرية .

يُعدّ خروجاً على أوامر النبي ﷺ ، وهذا ما لا يرغب فيه أبو جندل .

فقد ذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب — حين كان في شدة الإنفعال — مشى إلى جنب أبي جندل ، وأبوه يترّده ويدفعه ، فقال : إصبر يا أبا جندل ، فإنما هم مشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، وإنما هو رجل وأنت رجل ومعك السيف ، قال عمر : فرجوت أن يأخذ السيف ويضرب أباه ، فضنّ الرجل بأبيه . فقال عمر : يا أبا جندل : إن الرجل يقتل أباه في الله ، والله لو أدر كنا آباءنا لقتلناهم في الله ^(١) ، فرجل برجل ! قال : وأقبل أبو جندل على عمر فقال : ما لك لا تقتله أنت ؟ قال عمر : نهاني رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره ، قال عمر : فقال لي أبو جندل : ما أنت بأحق بطاعة رسول مني ^(٢) .

يا عمر لعله يقوم مقاماً يحمد عليه :

وعندما بلغ النبي ﷺ أن عمر بن الخطاب أغرى أبا جندل بأبيه سهيل بن عمرو ليقتله قال ﷺ : يا عمر لعله أن يقوم في الله مقاماً يحمد عليه ^(٣) .

(١) ييدر بالذكر هنا أن أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر ، كما قتل عمر بن الخطاب معه كذلك .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٨ ، ومغازي الراقي ج ٢ ص ٦٠٨ و ٦٠٩ .

(٣) جامع الأصول من أحاديث الرسول ج ٩ ص ٢٢٢ .

عودة المعارضة الى مناقشة النبي ﷺ :

وبعد حادثة أبي جندل المؤلة المؤثرة عاد الصحابة إلى تجديد المعارضة للصلح ، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله ﷺ بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته ، وإعلان معارضتهم مجدداً للصلح ، إلا أن النبي الأعظم ﷺ استطاع هذه المرة - بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة - أقنع المعارضين بوجاهة الصلح ، وأنه في صالح المسلمين وأنه نصر لهم ، لا نصراً لأعدائهم كما يتوهمون ، فسلموا نهائياً بوجهة نظر الرسول ﷺ وأتوا الحق والصواب ، بمن فيهم كبير المعارضين عمر بن الخطاب ، الذي - بعد أن أفاق من الصدمة النفسية - ندم ندماً شديداً على ما بدر منه من معارضة ومجادلة شديدة للنبي ﷺ حتى صار (كما قال) : يتصدق ويُعتق الرقاب تكفيراً عن ما ردّ به على رسول الله ﷺ بهذا الصدد .

فقد قال الواقدي في مغازيه : إن عمر بن الخطاب ورجال معه من الصحابة . قالوا (في استجوابهم) : يا رسول الله ، ألم تكن حدثتنا أنك ستدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة وتعرف مع المعرفين ؟ وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن ! .

فقال رسول الله ﷺ : قلت لكم في سفركم هذا ؟

قال عمر : لا .

فقال رسول الله ﷺ : أما إنكم ستدخلونه وأخذ مفتاح الكعبة ، وأحلق رأسي ورؤوسكم ببطن مكة وأعرف مع

المعرفين ، ثم أقبل على عمر فقال : أنسيتم يوم أحد إذ
تُصنعيدون ولا تلون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ؟ .
أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم
وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ؟ . أنسيتم يوم
كذا ؟ . وجعل رسول الله ﷺ يذكرهم أموراً - أنسيتم يوم
كذا ؟ ، فقال المسلمون : صدق الله ورسوله يا نبي الله ، ما
فكرنا فيما فكرت فيه لأنك أعلم بالله وبأمره ، قال الواقدي :
فلما دخل رسول الله ﷺ عام القضية وحلق رأسه قال :

هذا الذي وعدتكم . فلما كان يوم الفتح أخذ مفتاح
الكعبة فقال : أدعوا لي عمر بن الخطاب ! فقال : هذا الذي
قلت لكم . فلما كان في حجة الوداع بعرفة قال لعمر : أي
عمر هذا الذي قلت لكم ؟ قال عمر : أي رسول الله ما كان
في الإسلام فتح أعظم من صلح الحديبية (١) .

أبو عبيدة ينصح ابن الخطاب بالكف عن المعارضة :

نعود إلى موضوع المعارضة .. واستمر ابن الخطاب في
المعارضة ، وعاد يقول للنبي ﷺ : علام نعطي الدنية
في ديننا ؟ .

قال الواقدي : ولقي عمر من القضية أمراً كبيراً ، وجعل
يرد على رسول الله ﷺ الكلام ويقول : علام نعطي الدنية

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٩ .

في ديننا ؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول : أنا رسول الله ولن يضيئني ! فقال : فجعل (عمر) يرد على النبي ﷺ الكلام حتى قال : يقول أبو عبيدة بن الجراح : ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله ﷺ يقول ما يقول ؟ تموذ بالله من الشيطان واتهم وأهلك .

عمر يرجع عن المعارضة ويستم أهد النسم :

قال عمر : فجعلت أتموذ بالله من الشيطان الرجيم حياة ، لما أصابني قطيء مثل ذلك اليوم ، ما زلت أصوم وأتصدق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت يومئذ .

فكان ابن عباس يقول : قال لي عمر في خلافته - وذكر قضية الحديبية - : ارتببت ارتياباً لم أرتبه منذ أسلمت ، ولو وجدت ذلك اليوم شبعة تخرج عنهم رغبة عن القضية لخرجت ، ثم جعل الله تبارك وتعالى عاقبتها خيراً ورشداً ، وكان رسول الله ﷺ أعلم ^(١) .

وقال عمر (في رواية أخرى) : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأهتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً ^(٢) .

(١) مغازي الراقي ج ٢ ص ٦٠٦ وما بعدها .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٧ .

تسجيل المعاهدة وتبادل الوثائق :

وبعد أن انتهت عاصفة المعارضة في صفوف الجانب الإسلامي للصلح ، واقتنع المعارضون بأنهم كانوا على خطأ في معارضتهم - بعد ما شرح لهم الرسول ﷺ أبعاد المكاسب العظيمة التي سيظفر بها المعسكر الإسلامي فنتيجة إبرام هذا الصلح - عاد الوفدان - الإسلامي برئاسة الرسول الأعظم ، والقرشي برئاسة سهيل بن عمرو - عادا إلى الاجتماع ، لوضع الصيغة النهائية المفصلة للصلح الذي اتفق الوفدان من حيث المبدأ على وضع خطوطه العريضة وقواعده الرئيسية .

الخلافا حول صيغة المعاهدة :

ولدى الشروع في وضع الصيغة النهائية للمعاهدة وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسمياً ، حدث خلاف بين الوفدين حول بعض النقاط ، كاد يعود بالأزمة إلى ما كانت عليه ، فعندما شرع النبي ﷺ في إملاء الصيغة للمعاهدة المتفق على جوهرها أمر الكاتب بأن يبدأ المعاهدة بكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم) وهنا اعترض رئيس الوفد القرشي سهيل بن عمرو وقال : لا أعرف الرحمن ، اكتب (باسمك اللهم) ، وعندها ثارت ثائرة الصحابة فضجّوا محتجين على اعتراض سهيل ، وأصروا على رفض اعتراض سهيل بن عمرو ، وقالوا : هو الرحمن ، ولا تكتب إلا الرحمن ، ولكن النبي ﷺ - تمشياً مع سياسة الحكمة والمرونة والحلم - أجاب سهيل بن عمرو وقال للكاتب :

(اكتب باسمك اللهم) (١) ، واستمر في الإملاء فأمر الكاتب أن يكتب : (هذا ما اصطلح عليه رسول الله) وقبل أن يكمل الجملة نهض سهيل بن عمرو مرة أخرى واعترض على كلمة (رسول الله) وطلب شطبها من الوثيقة قائلاً : - لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك أفترغب عن إسمك وإسم أبيك محمد بن عبد الله ، فقد ظلمناك إن كنت رسول ، وما منمنالك أن تطوف بييت الله . لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن أكتب إسمك واسم أبيك (٢) .

سيّد الأنصار يتدخلون :

وعندما عارض سهيل بن عمرو وطالب بشطب كلمة (رسول الله) من صلب الوثيقة ، هاج المسلمون هياجاً شديداً لهذا التصلف القرشي ، وارتفعت أصواتهم بالإحتجاج الشديد وأصرّوا على أن لا تُنحى كلمة (رسول الله) وقالوا للكاتب : لا تكتب إلاّ بمحمد أو رسول الله .

بل ذهب الغضب والإمتعاض بسيّد الأوس أسيد بن حضير وسيّد الخزرج سعد بن عبادَة إلى أن يتدخلوا (عملياً) في الأمر

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٤ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٧
والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٣ ومنازي الواقدي ج ٢ ص ٦١٠ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٧ وجوامع السيرة ص ٢٠٩ . تاريخ
الطبري ج ٢ ص ٦٣٤ .

فياخذوا بيد الكاتب ليكف عن الكتابة ، إلا إذا كتب في المعاهدة كلمة (رسول الله) وهدد المعارضون باستخدام السلاح واللجوء إلى الحرب لتأديب قريش المتعجرفة ، لأنهم اعتبروا ذلك إهانة لكرامة المسلمين حيث قالوا للكاتب - بعد أن أمسكوا بيده ومنعوه من الكتابة - : لا تكتب إلا محمداً رسول الله ، وإلا فالسيف بيننا ! غلامٌ نعطي الدنية في ديننا .

وهكذا تلبّد الجو بالغيوم وبسدت نذُر الحرب تظهر في الأفق من جديد ، بعد أن عاد المسلمون إلى التهديد باستخدام القوة ، وأصرّت قريش من جانبها - ممثلة في سهيل بن عمرو - على التمسك بموقفها من ضرورة شطب كلمة (رسول الله) من الوثيقة ، لأنها تعتبر توقيعها عليها وهي تحمل كلمة رسول الله - إقراراً رسمياً بأنه رسول الله - لا سيما وأن هذه الوثيقة وثيقة رسمية دولية .

الرسول يحسم الخلاف :

غير أن الرسول الأعظم ﷺ - بحكمته وتسامحه وبعده نظره وعدم اهتمامه بالشكليات في مثل هذه المواقف المصيرية الخطيرة - حسم الخلاف وأنهى الأزمة حين أمر أصحابه بالسكوت والتزام الهدوء ليتصرف هو حسب ما تقتضيه مصلحة الإسلام والمسلمين ، فأطاع الصحابة أمره فسكتوا ، ثم أمر الكاتب - تحقيقاً لرغبة رئيس الوفد القرشي - أن يمحو كلمة

(رسول الله) ويكتب بدلاً منها كلمة (باسمك اللهم)
وبهذا انتهت آخر مرحلة من مراحل النزاع الخطير وكتبت
المعاهدة من نسختين وتم التوقيع والإشهاد عليها من الجانبين .

قال الواقدي يروي هذا القصة : فلما حضرت الدواة والصحيفة
بعد طول الكلام والمراجعة فيما بين رسول الله ﷺ وسهيل
ابن عمرو ، ولما التأم الأمر وتقارب ، دعا رسول الله ﷺ رجلاً
يكتب الكتاب بينهم ، ودعا أوس بن خولي يكتب ، فقال
سهيل : لا يكتب إلا أحد الرجلين ، ابن عمك علي أو عثمان
ابن عفان ، فأمر النبي ﷺ علياً يكتب ، فقال رسول
الله ﷺ : أكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن
عمرو : لا أعرف الرحمن ، أكتب كما كنا نكتب باسمك اللهم .
فضاق المسلمون من ذلك وقالوا : هو الرحمن . وقالوا : لا
نكتب إلا الرحمن . قال سهيل : إذا لا أقاضيه على شيء . فقال
رسول الله ﷺ : أكتب باسمك اللهم ! هذا ما اصطلى عليه
رسول الله . فقال سهيل : لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك ،
واتبعتك أفرغب عن اسم أبيك محمد بن عبد الله ؟ .

فضج المسلمون منها ضجة هي أشد من الأولى حتى ارتفعت
الأصوات ، وقام رجال من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون :
لا نكتب إلا محمداً رسول الله .

وقال : فحدثني ابن أبي سبرة ، عن إسحاق بن عبد الله ،
عن أبي فروة عن واقد بن عمر ، قال : حدثني من نظر إلى أسيد

ابن حُضَيْر وسعد بن عبادة أخذوا بيد الكاتب فأمسكها وقالوا :
لا تكتب إلا محمداً رسول الله وإلا فالسيف بيننا ! علامَ نعطي
هذه الدنيّة في ديننا ؟ فجعل رسول الله ﷺ يخفضهم ويومي
بيده إليهم : اسكتوا ، وجعل حُوَيْطِب بن عبد العزّي يتمعّب
مما يصنمون ، ويقبل على مِكرَز بن حفص ويقول : ما رأيت
قوماً أحوط لدينهم من هؤلاء القوم ! .

فقال رسول الله ﷺ أكتب باسمك اللهم . فنزلت هذه
الآية في سهل حين أبى أن يقرّ بالرحمن : (قل ادعوا الله أو
ادعوا الرحمن أياً ما تدعون فله الأسماء الحسنى) (١) فقال رسول
الله ﷺ : أنا محمد بن عبد الله فاكُتِب ا فاكُتِب باسمك
اللهم (٢) .

الصيغة النهائية لوثيقة الصلح :

وبعد أن تغلبت حكمة الرسول الأعظم ﷺ على كل
العقبات التي اعترضت طريق إكمال المعاهدة وتوقيعها - سواء
من جانب الصعابة أو من جانب قريش - وبعد أن اختفت
المعارضة نهائياً بين المسلمين ، ولم يعد للمشركين ما يعترضون
به على نصوص المعاهدة بعد أن قبل النبي الحكيم كل
اعتراضاتهم ، وُضِعَت الصيغة النهائية لهذه المعاهدة التاريخية

(١) سورة الإسراء الآية ١١٠ ؛

(٢) المغازي ج ٢ ص ٦١١ .

ثم تمت كتابتها في نسختين ، نسخة أخذها النبي ﷺ ونسخة أخذها سهيل بن عمرو ، وهذه هي الصيغة الحرفية لهذه المعاهدة الدولية التاريخية :

(باسمك اللهم ؛ هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل ابن عمرو. إصطلحا على وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه لا إسلال ولا إغلال^(١) وأن بيننا عيبة مكفوفة^(٢) ، وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده دخل ، وأنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل ، وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه رده إليه ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم ترده ، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ، ويدخل علينا قابل^(٣) في أصحابه فيقيم ثلاثاً ، لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر ، السيوف في القرب^(٤) .

(١) قال أبو ذر في شرحه ص ٣٤١ : الإسلال السرقة الخفية ، والإغلال الخيانة .

(٢) العيبة (بفتح العين) ، قال في الروض الأنف ، وأن بيننا وبينكم عيبة مكفوفة ، أي صدور منطوية على ما فيها ، لا تبدي عداوة .

(٣) قابل . أي العام القادم .

(٤) أنظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٧ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠١ وجوامع السيرة ص ٢٠٨ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦١١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٤ - ١٤٥ .

شهود الصلح من الجانبين :

وبعد الإنتهاء من كتابة وثيقة الصلح ، وكانت نسخة واحدة فقط ، قال سهيل بن عمرو : تكون عندي ، وقال النبي ﷺ : بل عندي ، وقد 'حل' هذا الخلاف ، بأن أمر النبي ﷺ أن يكتب نسخة طبق الأصل ، ففعل ، فأعطاهما سهيلاً .

وهنا استدعي تسعة شهود ليضعوا شهادتهم على وثيقة الصلح ، سبعة من المسلمين هم :

- ١ - أبو بكر الصديق .
- ٢ - عمر بن الخطاب .
- ٣ - عثمان بن عفّان .
- ٤ - عبد الرحمن بن عوف .
- ٥ - سعد بن أبي وقاص .
- ٦ - أبو عبيدة بن الجراح .
- ٧ - محمد بن مسلمة الأنصاري .

واثنين من المشركين وهما :

- ١ - حويّطب بن عبد العزّي .
- ٢ - مكرز بن حفص بن الأخيف .

وبالتوقيع على معاهدة صلح الحديبية تقشّعت غيوم الحرب

التي كانت تغطي جوف المنطقة نتيجة الأزمة الحادة الخطيرة التي افتعلتها قريش والتي كادت تؤدي إلى مصادمات دامية .

كما أن هذا الصلح لم يمهز أزمة الحديبية ، بل تناول النزاع الجوهري القائم بين قريش والمسلمين منذ بزغت شمس الدعوة الإسلامية ، أو منذ بدأت حالة الحرب بين المعسكرين خمس سنوات مضت ، حيث كان من أهم بنود الصلح إقامة هدنة بين الفريقين وإنهاء حالة الحرب لمدة عشر سنوات ، يأمن فيها الناس بعضهم من بعض .

إنهاء حالة الحرب بين خزاعة وكنانة أيضاً :

كما لم تنحصر نتائج الصلح الإيجابية على المعسكرين ، الإسلامي والقرشي ، بل انعكست نتائج هذا الصلح على قبيلتين من أعظم القبائل العربية المجاورة للحرم ، ومما (خزاعة وكنانة) فأنهى هذا الصلح حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين لمدة عشر سنوات ، وذلك لالتزامها بمقررات هذا الصلح ، بعد أن رضي كل منها الدخول في أحد المعسكرين ، كنانة في عهد قريش ، وخزاعة في عهد المسلمين . . وذلك نتيجة التخيير الذي تضمنه البند العاشر والحادي عشر من هذه المعاهدة التاريخية .

عداوة الاسلام جمعت بين كنانة وقريش :

فقد كانت قريش وبنو كنانة (ومنهم بنو بكر) ^(١) على

(١) (مسم (بكر) يطلق على قبائل كثيرة قحطانية وعدنانية .. (وبنو =

نزاع دام مع قريش ، فكانت بينهم معارك في الجاهلية ، وبقيت بينهم الثارات حتى ظهور الإسلام .. وقد عرفنا — كما فصلناه في كتابنا الأول غزوة بدر الكبرى — ، كيف خافت قريش كنانة من أن تضربها من الحلف ، عندما تتحرك بقواتها من مكة لملاقاة المسلمين في بدر ، لأن القبيلتين كانتا في حالة حرب يوم ذاك ، حتى تعهد سراقه بن مالك بن جعشم الكناني لقريش بأن كنانة ستتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضد قريش عندما تكون غائبة في حرب مع المسلمين .

وقد ظلت العداوة قائمة بين قريش وكنانة بالرغم من العهد المؤقت الذي أعطاه سراقه بن مالك لقريش ، بعدم التعرض لها عندما تشبك مع المسلمين في بدر .

خزاعة لم تكن عدوة لقريش :

أما خزاعة فلم تكن عدوة لقريش ، ومنذ عصور طويلة لم يكن بينها وبين قريش أي نزاع مسلح ، بل كانت خزاعة على وئام مع قريش قبل الإسلام وبعده حتى صلح الحديبية .

فقد كانت خزاعة أحوال قريش ، وكان يُبدل بن ورقاء .. سيّد خزاعة نفسه يقيم في مكة وله بها دار وعائلة .

= بكر هنا) هم بنو بكر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن نزار
إبن عدات .

إلا أن 'خزاعة منذ أن ظهر الإسلام كانت تبدي الولاء للنبي ﷺ بالرغم من عدم اعتناقها للإسلام .. وقد رأينا (كما في حلة حمراء الأسد المدرجة ضمن كتابنا الثاني - غزوة أحد) كيف أخلص معبد بن أبي معبد الخزاعي للمسلمين - بالرغم من بقاءه على شركه يومها - (١) .

كيف انقلب العدو صديقاً :

وبالرغم من أن خزاعة في جمهورها صديقة للمسلمين أو بالأحرى على غدا عدااء معهم ، فإنها لم تكن عدوة لقريش كذلك . أما بنو بكر (من سنانة) فقد كانوا أعداء محاربين تقليديين لقريش ، ولكن يظهر أن عداوة الفريقين للإسلام قد جعلتهما يجمدان نزاعاتهما المسلحة ، بدليل اشتراك فصيلة من قبائل كنانة في معركة أحد إلى جانب قريش بقيادة الحليس بن زبأن الكناني ، وبدليل وجود عدة كتائب من كنانة أيضاً في التجمع القرشي المسلح أثناء أزمة الحديبية ، بقيادة الحليس بن زبأن أيضاً .

خزاعة في عهد المسلمين ؛ وكنانة في عهد قريش :

ولهذا لم يكن مفاجأة أن تدخل بنو بكر بن كنانة في عهد

(١) أنظر تفاصيل موقف معبد بن أبي معبد في الصفحة ٢٥٥ من كتابنا (غزوة أحد) .

قريش ، ويدخل بنو خزاعة في عهد النبي ﷺ .

ويظهر أن بني بكر وخزاعة ، كلاهما يعتبر نفسه ذا علاقة بالمفاوضات التي كانت جارية بين المسلمين والقرشيين في الحديبية .

ولذلك كان هناك في الحديبية مندوبون من كل من خزاعة وبني بكر حاضرين أثناء المفاوضة الجارية بين النبي ﷺ وقريش ، كمرقبين فقط .

ويظهر أن هؤلاء المندوبين المراقبين . البكرين والخزاعيين ، قد كان لديهم التفويض الكامل كل من قبيلته ، ليتخذ الإجراء الذي يراه مناسباً حيال نتائج المفاوضات الدائرة بصفة رئيسية بين قريش والمسلمين .

وبناءً على ذلك قرر مندوبو خزاعة الدخول في عهد المسلمين .

وبناءً على ذلك قرر مندوبو خزاعة أن تدخل خزاعة (مسلمها وكافرها) في عهد المسلمين ، وأن تلتزم بمقررات الصلح كجزء من المعسكر الإسلامي .

كما قرر مندوبو بني بكر أن يدخل بنو بكر بن كنانة في عهد قريش وأن يلتزموا بما التزمت به قريش في هذه المعاهدة .

وبدخول كل من القبيلتين في هذا الصلح أصبح كل منهما ملتزماً بما يلتزم به المعسكر الذي دخل في عهده ، كما صار هذا

المعسكر مسؤولاً عن كل مخالفة ترتكبها القبيلة التي دخلت في عهده .

غضب قريش على خزاعة لدخولها في عهد المسلمين :
وقد غضبت قريش على خزاعة وأضمرت لها الشر لدخولها في عهد المسلمين الذين يفصلهم عن منازلها عدة مئات من الأميال ، بينما قريش تختلط منازلها بمنازل خزاعة لقرب تجاوزهما الشديد .

وقد تجسّد هذا الغضب القرشي في تصريح أدلى به أحد أركان المفاوضة في الحديبية ، وهو (حويطب بن عبد العزّي) الذي قال — مخاطباً رئيس الوفد سهيل بن عمرو الذي خزاعة أخواله — : بادأنا أخوالك بالعداوة وقد كانوا يستترون منا ، قد دخلوا في عهد محمد وعقده .

فقال له سهيل : ما هم إلا كفيرهم ، هؤلاء أقاربنا ولحمنا قد دخلوا مع محمد ، قوم اختاروا لأنفسهم أمراً فما نصنع بهم ؟
قال حويطب : نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بني بكر .
قال سهيل : إياك أن تسمع هذا منك بنو بكر فإنهم أهل شؤم ، فيقموا بخزاعة فيغضب محمد لحلفائه ، فينقض العهد بيننا وبينه . قال حويطب : حظوت والله أخوالك بكل وجه .

فقال سهيل : ترى أخوالي أعزّ عليّ من بني بكر ؟ ولكن والله لا تفعل قريش شيئاً إلا فعلته ، فإذا أعانت بني بكر على

خزاعة فلما أنا رجل من قريش ، وبنو بكر أقرب إليّ في قدم
التسب ، وإن كان هؤلاء الخوولة ، وبنو بكر من قد عرفت
لنا منهم مواطن كلّها ليست بحسنة منها يوم عكاظ ^(١) .

النبي يرفض تسليم لاجئين من العبيد والشباب القرشي :

وقد واجهت النبي ﷺ مشكلة بعد توقيع الصلح ، وهي
أن بعضاً من عبيد المشركين وبعضاً من المستضعفين من أبناء
قريش جاءوا إلى النبي ﷺ وطلبوا حق اللجوء وذلك قبل أن
يتم عقد الصلح بين الفريقين .

وقد كتب موالي هؤلاء العبيد وآباء الشباب القرشين
اللاجئين .. كتبوا إلى النبي ﷺ يطلبون إعادتهم إلى مكة ،
كما أن رئيس الوفد القرشي المفاوض طالب النبي ﷺ بتسليم
هؤلاء اللاجئين ، ولكن النبي ﷺ أبى أن يعيدهم إليهم لأنه
غير ملائم بإعادتهم ، ذلك أنهم قد أعطوا حق اللجوء في
الحديبية قبل عقد الصلح ، ولذلك رفض النبي ﷺ تسليمهم
إلى قريش قائلاً : (هم عتقاء الله) .

فقد قال سهيل بن عمرو للنبي ﷺ : قد خرج إليك ناس
من أبنائنا وأرقائنا وليس بهم فقه في الدين ، وإنما خرجوا
فراراً من أموالنا وضياعنا فأرددهم إلينا .. وفي رواية أخرى

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦١٢ .

كتب أهل مكة : يا محمد ، والله ما خرجوا إليك رغبة في دينك وإنما خرجوا هرباً من الرق . فقال ناس : صدقوا يا رسول الله ردّهم إليهم ، فغضب رسول الله ﷺ من ذلك وقال : ما أراكم تلتهون يا معشر قريش حتى يبعث الله عليكم من يضرب رقابكم على هذا وأبى أن يردهم ، قال : هم عتقاء الله ^(١) .

من فيول أزمة الحديبية :

وبالرغم من إبرام الصلح بالتوقيع على وثيقته وتبادل الوثائق بين الفريقين ، فإن عناصر من القرشيين ذات مصلحة خاصة حاولت تكبير الجو من جديد بغية إعادة الأزمة إلى سابق عهدها . حيث أخذت هذه العناصر (بعد الصلح) تتحرش بالمسلمين وتشتّم النبي ﷺ بغية استفزاز المسلمين لهم يقومون من جانبهم بنقض الصلح وهم لما يزالوا في الحديبية .

فقد جاء في جامع الأصول (ج ٩ ص ٣٢٥) أن سلمة بن الأكوع قال : لما اصطلمنا نحن وأهل مكة واختلط بعضهم ببعض ، أتيت شجرة فكسحت شوكة فاضطجعت في أصلها فأثانا أربعة من المشركين من أهل مكة ، فجمعوا يقومون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم ، فتحولت إلى شجرة أخرى ، وعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي : يا للمهاجرين ، قتل ابن زنيم ، قال : فاخترطت

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول ج ٩ ص ٢٢٣ .

سيفي ، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذت سلاحهم ، فجعلته ضغناً^(١) في يدي ، قال : قلت : والذي كرم وجه محمد ﷺ ، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه . قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال : وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له : مكرز ، يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف في سبعين من المشركين فنظر إليهم رسول الله ﷺ ، فقال : دعوهم ، يكن لهم بدء الفجور وثناه ، فعفى عنهم رسول الله ﷺ .^(٢)

النبى يحلّ الاحرام في الحديبية :

كان النبي ﷺ منذ قرر تحاشي الصدام المسلّح مع قومه وسلوك كل السبل المؤدية إلى تجنّب الحرب ، وهو يختم في الحديبية خارج حدود الحرم ، إلا أنه كان طيلة إقامته بالحديبية (عشرين يوماً) وهو يؤدّي وأصحابه الصلوات المفروضة داخل الحرم^(٣) ، لأنه كان مُعسّكراً بأصحابه على أطراف الحرم .

من روايب المعارضة للصلح :

وبعد أن تمت إجراءات الصلح النهائية ، فأخذ كل من الفريقين نسخة من وثيقة الصلح التاريخية ، وانصرف الوفود القرشيّة

(١) الضغث : الحزمة : ومعناه الحزمة في يده .

(٢) سبقت إشارة إلى هذا في ذكر عدوان المتسللين من قريش .

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦١٤ .

راجعاً إلى مكة ، قرر النبي ﷺ الإنصراف إلى المدينة بأصحابه ، لذلك أمر أصحابه بأن يحلّوا إحرامهم فينحروا بُدْنُهم ويحلقوا رؤوسهم .

غير أن رواسب من المعارضة الشديدة للصالح بقيت في نفوسهم ، فمزّ عليهم أن يعودوا دون أن يقضوا مناسكهم فيطوفوا بالبيت وينحروا هَدْْيهم ويحلقوا رؤوسهم داخل مكة ، ولذلك عصوا الرسول ﷺ أول الأمر ، فلم يمثّلوا أمره حيث التزموا الصمت فلم يجبه أحد إلى ما أمر به من نحر البُدن وحلق الرؤوس .

النبي يعمل بمشورة امرأة :

وقد اغتم النبي ﷺ لموقف الصحابة من أوامره التي لم ينفذوها ، فدخل خيمته غاضباً ، وكانت زوجته أم سلمة موجودة معه في خيمته ، فرأت عليه علامات الإستياء والغضب عندما دخل عليها ، وكزوجة يهملها أن تشارك زوجها همومه وأخزائه ، سأله عن سبب ما هو عليه من الغضب ، فأخبرها بعدم استجابة أصحابه حين أمرهم بأن يحلّوا إحرامهم فينحروا ويحلقوا .

وهنا تجلّت مشاركة المرأة المسلمة بعقلها الراجح ورأيها الدّقيق في إبداء المشورة لحل المشكلات الكبيرة ... هذه المشورة التي لم يتردد حتى من هو في مقام النبوة من قبولها والعمل بها ، الأمر الذي يثبت إلى أي مدى من العمق والبعد كانت روح الشورى تضرب يحدورها في أصول التعاليم

الإسلامية ، وكيف كانت روح تعاليم هذا الدين العظيم عندما تكون لها السيادة تجعل القائد — حق وإن كان في أعلى مراتب القيادة والسيادة — يلتزم العمل بالمشورة الصائبة حتى وإن كانت هذه المشورة قد جاءت من امرأة . بل لا فرق في نظر الإسلام بين أن تأتي هذه المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة .. وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء الإسلام أنه قد غمطها حقها وتجاهل وجودها .. وهل هناك اعتراف بوجود المرأة واحترام لرأيها أكثر من أن يستصوب نبي مرسل مشورتها ويعمل بتوجيهها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبه نشؤها ، وهو الذي قل " أن يفضب ؟ .

أم سلمة تشير على النبي ، فتنجح في المشورة :

فقد روى المؤرخون وأصحاب الحديث والمفسرون ، أن النبي ﷺ لما دخل على زوجته أم سلمة غاضباً مفتعماً ، وعرفت أن مصدر غضبه وغمه هو إضراب أصحابه وامتناعهم عن النحر والحلق ، وهو الأمر الذي به يخلّون من إحرامهم في الحديبية ، أشارت عليه بأن لا يقاتحهم مرة أخرى بهذا الشأن وإنما يسلك طريقاً آخر باتباعه يجدون أنفسهم مضطرين لتنفيذ أمره .. وهو أن يبدأ نفسه (عملياً) بنحر هديته ، حيث قالت له : يا رسول الله إنطلق أنت إلى هديك فأنحره ، فإنهم سيقفون بك

وقد استحسّن النبي ﷺ فكرة أم سلمة هذه فعمل بمشورتها

فشرع (فعلاً) في نحر هذيه بيده الكريمة ، وقد كانت لعمل النبي ﷺ بشورة أم سلمة أحسن الثمار ، حيث — كما توقعت أم سلمة — لم يكذب بشرع في نحر هذيه بيده حتى أخذ أصحابه يتسابقون كل إلى نحر هذيه لينحروه اقتداءً بالنبي ﷺ .

قال الطبري — بسنده إلى المسور بن مخرمة — : فلما فرغ رسول الله ﷺ من قضيته (أي الصلح) قال لأصحابه : قوموا فانحروا ، ثم احلقوا . قال : فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقيم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا نبي الله ، أتحب ذلك ! أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بُدُنُكَ ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى فعل ذلك ، نحر بُدُنَه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا . وكان الذي حلقه خراش بن أمية ابن الفضل الخزاعي .

وقال الواقدي : إن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة زوجته مغضباً شديد الغضب ، — وكانت معه في سفره ذلك — فاضطجع فقالت : مالك يا رسول الله ؟ مراراً لا تجيبني . فقال : عجباً يا أم سلمة ! إني قلت للناس انحروا واحلقوا وحلّوا مراراً ، فلم يجيبني أحد من الناس إلى ذلك ، وهم يسمعون كلامي وينظرون في وجهي !!

قالت ، فقلت : يا رسول الله انطلق أنت إلى هديك فانحمره
فإنهم سيققدون بك . قالت : فاضطبع ^(١) رسول الله ﷺ
بشوبه ، ثم خرج وأخذ الحربة ينسهم ^(٢) هديه . قالت أم سلمة ،
فكأنني أنظر إليه حين يهوي بالحربة إلى البدقة رافعاً صوته :
بسم الله والله أكبر . قالت : فما هذا إلا أن رأوه نحر ، فتواثبوا
إلى الهدي ، فازدحموا حتى خشيت أن يغمر بعضهم بعضاً .

وفي الحديثية قال النبي ﷺ - عند التحلل من الإحرام - :
رحم الله الملققين ، وقالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : يرحم
الله الملققين ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : يرحم الله
الملققين ، قالوا يا رسول الله : والمقصرين ؟ قال : والمقصرين .
ولما سأل الصحابة : يا رسول الله ، فلم تظاهرت الترحم
للملققين دون المقصرين ؟ أجاب قائلاً : لأنهم لم يشكوا ^(٣)

قصة جمل أبي جهل :

وكان لأبي جهل بن هشام جل مهري ^(٤) نجيب كان معه في

(١) اضطبع : أخذ ثوبه فجعل وسطه تحت إبطه الأيمن ، وألقى طرفيه
على كتفه الأيسر من جهتي صدره .. كذا قال في النهاية غريب الحديث ج ٣ ،
ص ١٢ .

(٢) نهم الرجل دابته ، إذا زجرها .

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٧ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦١٢ .

(٤) مهري : نسبة إلى المهرة ، وهم يلبسون إلى مهرة بن حيدان من قضاة
يسكنون أقصى جنوب الجزيرة العربية شرقي حضرموت ، اشتهرت بلادهم
بالحجاب أجود أنواع الجمال .

معركة بدر الكبرى ، وقصد غنمه المسلمون فيما غنموا عقب انتصارهم الحاسم في تلك المعركة التاريخية

وقد بقي هذا الجمل النجيب ضمن السلاح العام للدولة يفتزو عليه المسلمون المغازي ، كما كان هذا الجمل الفعل يضرب في لقاح رسول الله ﷺ ، فاستاقه (معها) عينة بن حصن الفزاري حينما أغارت غطفان على الغابة في غزوة ذات قرد (١) .

وإغاطة لمشركي مكة .. ساق النبي ﷺ جمل أبي جهل هذا ضمن الهدني الذي تقرر نحره في مكة في عمرة الحديبية .

وفي الحديبية ، وبينما كان هذا الجمل المهري النجيب يرعى مع الهدني المحصور خارج الحرم ، قاده الشوق إلى موطنه الأصلي مكة ، فهرب من الحديبية ، وبالرغم من أن المسافة بين الحديبية ومكة لا تقل عن خمسة عشر ميلاً ، وبالرغم من مضي خمس سنوات على غيابه عن دار مالكة أبي جهل في مكة ، فقد اهتدى تماماً إلى دار أبي جهل حيث لم يشمر أهل مكة إلا وهو بارك أمام هذه الدار فعرفوه فتمسكوا به .. وكان شروده من الحديبية قبل عقد الضلع .

مائة ناقة ثمنا لجمل أبي جهل :

إلا أن هذا الجمل ذا الذكري المؤلفة جداً لمشركي مكة ، لم

(١) أنظر تفاصيل غزوة «ذات قرد» في هذا الكتاب (الفصل الأول) .

يقع في أيدي أهل مكة إلا بعد أن تم عقد الصلح في الحديبية ،
وبعد وصول الوفد القرشي المفاوض عائداً إلى مكة .

وقد خرج في أثر الجمل عمرو بن عزمة السلمي^(١) يطلبه
ليعيده إلى الحديبية لأنه من جملة الهدني المطلوب نحره في
الحديبية .

إلا أن المتعصبين من سفهاء المشركين رفضوا تسليم الجمل لابن
عزمة ، فاتصل الأخير بسهيل بن عمرو - بصفته المسؤول عن
تنفيذ شروط صلح الحديبية - وطلب منه إعادة الجمل ، فلم
يتردد سهيل في إصدار الأوامر إلى المتعصبين بإعادة الجمل إلى
المسلمين تنفيذاً لاتفاقية صلح الحديبية .

فلم يجد هؤلاء السفهاء المتعصبون بداً من إطاعة أوامر قطب
قريش في مفاوضة الصلح سهيل بن عمرو ، غير أنهم عرضوا على
المسلمين مائة ناقة مقابل التخلي عن هذا الجمل لقيمته المعنوية
(في نظرهم) لأنه يعود لقائد عام جيشهم في معركة بدر الكبرى
أبي جهل بن هشام .

وقد أبلغ النبي ﷺ بهذا العرض القرشي السخي ، فأبلغهم
أنه يمكنه قبول هذا العرض لولا أن الجمل المذكور قد سبق

(٢) قال في الإصابة : هو عمرو بن عزمة بن عدي بن ناهي بن عمرو ، من
بني صفة (الأنصار) ذكره موسى بن عقبة فيمن شهد بدرأ ، وفي البكائين
وكذا ذكره ابن إسحاق .

وُسَمِّي فِي الْهَدْيِ فَقَالَ ﷺ : لَوْلَا أَنَا سَمَّيْنَاهُ فِي الْهَدْيِ فَعَلْنَا ،
فَأَعِيدَ الْجَمَلَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فَتَجَرَّ هُنَاكَ عَنْ سَبْعَةٍ ، أَحَدُهُمْ أَبُو
بَكْرٍ وَعُمَرُ (١) .

نَحْرُ عَشْرِينَ بَدَنَةً عِنْدَ الْمَرُوءَةِ :

وَلَمَّا كَانَتْ الْحَرْبُ قَدْ انْتَهَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ نَتِيجَةً صُلِحَ
الْحُدَيْبِيَّةِ ، بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَشْرِينَ بَدَنَةً مِنَ الْهَدْيِ لَتَنْحَرَّ
فِي مَكَّةَ لِإِطْعَامِ أَهْلِهَا مِنْهَا .

وَكَانَ الَّذِي دَخَلَ بِهَا مَكَّةَ رَجُلٌ مِنْ أَسْلَمَ ، نَحَرَهَا عِنْدَ الْمَرُوءَةِ
وَقَسَمَ لَهَا هُنَاكَ حَسَبَ تَعْلِيمَاتِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ .

مَدَّةُ الْإِقَامَةِ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ :

وَقَدْ أَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مُحْصُورًا فِي الْحُدَيْبِيَّةِ عَشْرِينَ يَوْمًا
وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : إِنَّهَا خَمْسَةُ عَشَرَ يَوْمًا ، بَعْدَهَا حَلَّ النَّبِيُّ ﷺ
وَأَصْحَابُهُ إِحْرَامَهُمْ خَارِجَ الْحَرَمِ ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ .

الْعُودَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ :

وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ مُشْكَلَةُ الْحُدَيْبِيَّةِ بِعَقْدِ الصُّلْحِ التَّارِيخِيِّ بَيْنَ
الْمُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ ، قَفَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ .

(١) مَفَازِي الْوَاقِدِيِّ ج ٢ ص ٦١٤ وَزَادَ الْمَعَادُ ج ٢ ص ٣١١ وَتَارِيخُ
الطَّبْرِيِّ ج ٢ ص ٦٣٨ .

وقد سلك النبي ﷺ في عودته إلى المدينة نفس الطريق الذي سلكه في مجيئه إلى الحديبية ، ما عدا الطريق الفرعي الذي اضطر إلى سلوكه عندما قرر تحاشي الصدام المسلح مع فرسان خالد بن الوليد .

فقد مرّ بممرّ الظهران (المسمّى اليوم : وادي فاطمة) ثم عُسْفان حتى وصل المدينة سالكاً الطريق الرئيسي المعتاد وهو الطريق الغربي .

المجاعة في طريق العودة :

وكان المسلمون - نتيجة طول احتباسهم بالحديبية - قد نفدت أزوادهم ، فلم يصله عُسْفان حتى فشت المجاعة بينهم ، وكانوا ألفاً وأربعمائة .

فشكوا حالهم إلى رسول الله ﷺ من الذي هم عليه من الجوع ، وكان معهم ظهر (أي جمال للركوب والنقل) فاستأذنوا رسول الله ﷺ في نحرها ليدفعوا بلحمها الجوع فأذن لهم .

النبي يعمل بمشورة ابن الخطاب :

وقد بلغ عمر بن الخطاب إذن النبي ﷺ بنحر ظهر القوم ، فجاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله لا تفعل ، فإن يك في الناس بقية ظهر يكن أمثل ، ولكن أدعهم بأزوادهم ثم أدع الله فيها .

فأمر رسول الله ﷺ بالانقطاع فبسطت ، ثم نادى مناديه :
 من كان عنده بقية من زاد فليزله على الانقطاع . قال أبو شريح
 الكمبي ^(١) : فلقد رأيت من يأتي بالتمر الواحد وأكثره
 لا يأتي بشيء ، ويأتي بالكف من الدقيق ، والكف من السويق ،
 وذلك كله قليل . فلما اجتمعت أزوادهم وانقطعت موادهم
 مشى رسول الله ﷺ إليها فدعا فيها بالبركة ، ثم قال : قربوا
 أوعيتكم فجاءوا بأوعيتهم . قال أبو شريح : فأنا حاضر ، فيأتي
 الرجل فيأخذ ما شاء من الزاد حتى أن الرجل ليأخذ ما لا يجد
 له محملاً ، فلما ارتحلوا مطروا ما شاؤوا وهم صائفون ، فنزل
 رسول الله ﷺ ونزلوا معه ، فشربوا من الماء ، فقام رسول الله
 ﷺ فخطبهم ، فجاء ثلاثة نفر ، فجلس إثنان مع النبي ﷺ ،
 وذهب واحد معرضاً ، فاستحيا ، فاستحيا الله منه ، وأما الآخر
 فتاب الله عليه ، وأما الثالث فأعرض الله عنه .

(١) أبو شريح : اسمه خويلد بن عمرو بن صخر الخزاعي ثم الكمبي ،
 قال ابن حجر في الإصابة : أسلم قبل الفتح ، كان يحمل لواء خزاعة يوم
 الفتح ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم وله أحاديث ، وروى أيضاً عن
 ابن مسعود ، وهو الذي نصح عمرو بن سعيد الأشدق بأن لا يسفك دماً في
 الحرم ، لأنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يحل لأحد أن
 يسفك بها دماً - يعني مكة - فقال له عمرو : إن الحرم لا يعيد عاصياً ،
 رواه البخاري في صحيحه . . مات أبو شريح بالدينة سنة ثمان وستين .

الفصل الرابع

- القرآن يتحدث عن صلح الحديبية ويصفه بالفتح المبين .
- القرآن يبشر أهل الحديبية بفتح خيبر .
- فضل أصحاب بيعة الرضوان في القرآن والحديث .
- الدروس المستفادة من صلح الحديبية .
- مكاسب الصلح العظيمة للمسلمين .
- كيف اعترفت قريش بكيان المسلمين رسمياً .
- كيف وضع النبي أسس احترام المعارضة النزيهة .
- قصة أبي جندل المؤثرة .
- ثوار الميصر ضد قريش .
- حكومة المستضعفين في الساحل .
- قريش تطلب إلغاء أهم شرط فرضته في المعاهدة .

القرآن وصلاح الحديبية :

وقد تحدث القرآن الكريم عن صلاح الحديبية فأشاد بهذا الصلح التاريخي ، وأشار إلى مكاسبه العظيمة ، والتي لم يدركها عامة الصحابة على حقيقتها كما أدركها النبي ﷺ ، فعارضوا الصلح (لذلك) معارضة شديدة ^(١).

كما أن القرآن الكريم أعلن أن صلاح الحديبية ، هو أعظم نصر يحققه المسلمون ، لذلك وصفه تعالى بالفتح المبين وذلك في سورة الفتح التي نزلت على النبي ﷺ وهو في طريقه عائد من الحديبية فقال تعالى مشيداً بصلاح الحديبية وواصفاً إياه بالفتح المبين :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُمْتَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ ^(٢) . وعامة المفسرين والمحدثين - كما في صحيح البخاري على أن سورة الفتح نزلت في صلاح الحديبية ، وأن المراد بالفتح في هذه السورة هو صلاح الحديبية التاريخي ^(٣) .

ثناء الله على أهل الحديبية :

وفي هذه السورة أثنى الله تعالى على أصحاب الشجرة الذين

(١) أنظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦١٦ نشر جسامنة أكسفورد ، وطبعة دار المعارف المصرية ١٩٦٥ م .

(٢) سورة الفتح الآية ١ .

(٣) أنظر صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٦٥ وما بعدها .

بایعوا النبی فی الحدیبیة علی الموت وأعلن رضائه عنهم ، فقال
تعالی : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنین إذ یبایعونک تحت الشجرة
فعلم ما فی قلوبهم فأنزل السکينة علیهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ (١) .

السکينة هنا (کما قاله المفسرون) : الطمأنينة وهي بیعة
الرضوان .. والفتح القريب : الصلح .

وأشاد تعالی بعظمة عمل المبایعين فی الحدیبیة ، معتبراً
مبایعتهم لرسوله ، مبایعة لذاته تعالی وهذا أعلى مراتب التکريم
فقال تعالی : ﴿ إنَّ الذین یبایعونک تحت الشجرة إثمًا یبایعون
الله ، یدُ الله فوق أیدیهم فمن نکث فإنما ینکث علی نفسه ومن
أوفی بما عاهد علیه الله فسیؤتیہ الله أجراً عظیماً ﴾ (٢) .

وفی سورة الفتح ندّد القرآن بالمنافقین والمشرکین من
الأعراب الذین مرّ علیهم النبی ﷺ بین مكة والمدینة ،
فدعاهم إلی مصاحبتہ فی رحلته التاریخیة تلك ، فتشاققوا ثم
امتنعوا ظانّین أن النبی ﷺ وأصحابه ینهزمون أمام قریش ،
قائلین : إنما خرج محمد وأکلة رأس (٣) یقدم علی قوم موقورین
فأبوا أن ینفروا معه لذلك فقال تعالی مندداً بهؤلاء المنافقین
والمشرکین : ﴿ ویعذب المنافقین والمنافقات والمشرکین

(١) سورة الفتح الآیة ١٨ .

(٢) سورة الفتح الآیة ١٠ .

(٣) أکلة رأس : تمییر عن قتلهم .

والمشركات الظانين بالله ظنّ السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً ﴿١١﴾ .

كما فضح فئة أخرى من المنافقين الذين أغرقوا في النفاق إذ طلبوا من الرسول أن يستغفر لهم بعد أن رأوه يعود منتصراً وأصحابه معافين ، وهم (أي المنافقون) قد خذلوه وتخلّوا عنه حين استعان بهم واستنفرهم فاعتذروا بانشغالهم بأموالهم وأولادهم ، بينما هم في الحقيقة يظنون أن النبي وأصحابه ستكون قبورهم هناك في الحرم على أيدي قريش ، لذلك امتنعوا عن مرافقتهم في هذه الرحلة التاريخية التي انتهت بهذا الصلح العظيم . . فقد فضح الله النوايا الخبيثة وكشفها لرسوله ليكون على حذر منهم ومن دسائسهم فقال تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبير ﴾ ﴿٢١﴾ : بل ظننتم أن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وُزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوماً بوراً ﴿٣١﴾ .

كما أشار القرآن في سورة الفتح إلى تعنت قريش وتمصّبها

(١) سورة الفتح الآية ٦ .

(٢) سورة الفتح الآية ١١ .

(٣) سورة الفتح الآية ١٢ .

الجاهلي في صدها المسلمين عن الحرم وإلى الحكمة الخفية التي غابت عن البعض في صلح الحديبية فعارضوه ، كما أشار إلى أن من أسباب اتباع نبية طريق الصلح بدلاً من الحرب ، هو أن هناك مسلمين بين المشركين في مكة ، لو سلك النبي ﷺ طريق الحرب فانتصر لأبىد كثير من هؤلاء المسلمين المستضعفين على أيدي الجيش النبوي دوئما علم منه فيصيبهم من ذلك بلاء عظيم ، فقال تعالى : ﴿ هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام ، والهتدي معكوفاً أن يبلغ محلته (أي محبوساً بالحديبية) ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيّنوا - يقول : لو خرجوا من عند المشركين - لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ (١) أي لسلطناكم عليهم فاقنعتهم عليهم مكة بالسيف ولكن الحكمة لا تعلمونها جعلنا القضية تسوّى عن طريق الصلح بدلاً من الحرب التي لو خضتموها لانتصرتم فيها على قريش ، ومن هذه الحكمة ، حماية المستضعفين المسلمين من معرة الجيش الإسلامي المنتصر الذي لا يمكنه التمييز (ساعات الإلتعام) بين المسلم والمشرک . كما أشار القرآن إلى نجاح هذا الصلح بحقن دماء الفريقين وكف بعضهم عن بعض فقال تعالى :

﴿ وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة

(١) سورة الفتح الآية ٢٥ .

من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً ﴿١١﴾ .

كما أكد القرآن في هذه السورة للمسلمين بأنهم لو قاتلوا أهل مكة عام الحديبية هزموهم ولتغلبوا عليهم ، ولكن لحكمة يجعلها المسلمون - وبانت لهم فيما بعد - حال الله تعالى دون نشوب القتال بين الفريقين فقال تعالى :

﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولتوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ ﴿١٢﴾ .

كما ندّد القرآن بتعنّث قريش واستفزازها للمسلمين ، وتصلف مندوبها في المفاوضة سهيل بن عمرو وسيده في المفاوضة بروج جاهلية وحمية وثنية حين رفض كتابة اسم (الرحمن الرحيم) في افتتاحية وثيقة الصلح ، كما أشاد القرآن في الوقت نفسه بحكمة النبي ﷺ وصبره أمام استفزازات قريش وتحدياتها الجاهلية . وأثنى على المسلمين لكبتهم لمواطنيهم الفوارة والتزامهم السكينة وإطاعتهم أمر نبيهم رغم كرههم للصلح ، فقال تعالى :

﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليم﴾ ﴿١٣﴾ .

(١) سورة الفتح الآية ٢٤ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٢ .

(٣) سورة الفتح الآية ٢٦ .

وكذلك أكد القرآن الكريم للمسلمين وهم عائدون من
الحديبية .. أكد لهم أن ما أخبرهم به نبيهم من أنهم سيدخلون
مكة حق ولا شك في وقوعه .. وأنهم لا بد وأن يدخلوا مكة
معتمرين رافعي رؤوسهم (تماماً) كما أخبرهم نبيهم ،
فقال تعالى :

﴿ لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد
الحرام إن شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم ومقصرين لا
تخافون ﴾ (١) .

كما لفت نظر الذين لم يُدركوا الحكمة من هذا الصلح
فكرهوه وعارضوه .. لفت نظرهم إلى أن هذا الذي كرهوا
حدوثه له مكاسب عظيمة وأنه فتح وانتصار للجماعة الإسلامية
فقال تعالى :

﴿ فعمل ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ (٢) .

تبشير المسلمين بفتح خيبر :

كذلك أنزل الله تعالى قرآناً يبشر فيه المسلمين بفتح خيبر
وأنهم سيظفرون بغنائم عظيمة في خيبر .
وأشار القرآن إلى أن الخلفين من المنافقين والأعراب

(١) سورة الفتح الآية ٢٧ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٧ .

سيحاولون الإنخراط في سلك الجيش النبوي الذي سيتحرك (ولا بد) لفتح خيبر ، وذلك محاولة منهم للمشاركة في المغنام لا في الأجر والثواب وتثبيت دعائم الإسلام ، وحذر القرآن النبي ﷺ أن يسمح لهؤلاء الخلفين بالإشتراك في غزوة خيبر ، وأن لا يسمح إلا لمن خاطر بحياته واتبع النبي ﷺ وخرج معه إلى الحديبية غير هيتاب ولا وجل .

فقال تعالى مبشراً بفتح خيبر وكاشفاً وقع المنساقين المشركين : ﴿ وعلم الله مغنم كثيرة تأخذونها فمبجل لكم هذه (أي خيبر) ﴾^(١) وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ﴿^(٢) .

وقال تعالى مشيراً إلى الذين سيحاولون (من الذين تخلفوا عن الحديبية) الإشتراك في حملة خيبر من أجل الحصول على الغنمة فقط : ﴿ سيقول الخلفون إذا انطلقتم إلى مغنم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل : لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل فسيقولون : بل تحسدوننا بل كلوا لا يفقهون إلا قليلاً ﴾^(٣) . قال ابن كثير في تفسيره :

هذه الآية خاصة بالأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ

(١) أنظر بهجة المحافل ص ٣٢٤ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٠ .

(٣) سورة الفتح الآية ١٥ .

في عمرة الحديبية أخبر الله فيها نبيّه بأن هؤلاء المخلفين عند ذهاب المسلمين لفتح خيبر سيسألون أن يخرجوا معهم إلى المقاتمة وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم فأمر الله تعالى رسوله أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحثهم لا شاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين فلا يقع ذلك شرعاً ولا قدراً .

وبعد أن أمر الله تعالى نبيّه بأن يمنع المخلفين من الأعراب عن الحديبية من المشاركة في غزو خيبر ، وأن لا يسمح بالإشتراك في غزو خيبر إلا للذين استجابوا له وخرجوا معه إلى الحديبية - على ما في ذلك الخروج من مخاطرة - أمره أن يدعو هؤلاء الأعراب المخلفين بأن يستعدوا لمعارك شديدة ليشاركوا فيها (غير خيبر) إن كانوا صادقين في الجهاد ، فقال تعالى : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم أجراً حسناً وإن تنولوا كما من قبل - أي أيام الحديبية التي تناقستم وتخلفتم عنها - يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ (١) .

وفي هذه الآية الكريمة تصريح بأن معارك حديبية ستدور (بعد خيبر) بين المسلمين وبين أقوام شداد البأس .. ومد

(١) سورة الفتح الآية ١٦ .

حدثت هذه المعارك الرهيبة في مُحنين واليامة وفارس والروم
وقد فاز فوزاً عظيماً من خاضها من المسلمين إيماناً واحتساباً .

فضل أصحاب الشجرة :

لا شك أن الصحابة الذين رافقوا النبي ﷺ في رحلته
التاريخية هذه قد أثبتوا بفعلهم هذا أنهم على أعلى مستويات
الإيمان واليقين ، وأنهم أصحاب إيمان لا تشوبه أية شائبة ،
وأنهم على درجة من الشجاعة لم يبلغها غيرهم ممن يعاصروهم .

ذلك أنهم رافقوا نبيهم في هذه الرحلة وهم على يقين بأنهم
سيلاقون متاعب شديدة ومصاعب عديدة ، وأن رحلتهم هذه
قد تقودهم إلى حرب ضروس يخوضونها مع قريش ، بل كانوا
- وهم يتأهبون للخروج من المدينة على ما يشبه اليقين بأن هذه الحرب
سيندلع لها بينهم وبين قريش التي هي في حالة حرب معهم ..
تتحين الفرص للانتقام منهم لما أصابها في بدر على أيديهم .

ولكن ذلك لم يفتّ في عضدهم ولم يكن - بأي حال من
الأحوال - باعث تردد في نفوسهم يجعلهم (كغيرهم من ضعاف
الإيمان) يفكرون في القعود عن مرافقة رسول الله ﷺ في هذه
الرحلة المحفوفة بالأخطار جداً .

بذلك استحقوا أن يوصفوا بأنهم خير أمة وأشجع عصابة ،
وزاد هؤلاء الأصحاب شرفاً ورفعة عند الله ورسوله أن تسابقوا
وهم في الهدى إلى مبايعة الرسول ﷺ على الموت تحت

الشجرة عندما بلغ طغيان قريش وتصلفها حداً لم يترك للنبي ﷺ اختياراً في استنفار أصحابه وإعلان عزمه على خوض الحرب ضد قريش لوضع حد لبغيها وطغيانها .

ثناء الله على أصحاب الشجرة :

وقد نزلت آيات وجاءت أحاديث نبوية كلها تشيد بمواقف هؤلاء الأصحاب المشرفة وتبشرهم بالسعادة الأبدية جزاء أعمالهم الحميدة التي بها أثبتوا (في ساعة العسرة) عمق إيمانهم وصدق إسلامهم وشدة إخلاصهم ووفائهم في وقت تحاذت فيه فئات منتسبة إلى الإسلام تحت تأثير خوفها من أن يدخل المسلمون في حرب مع قريش في هذه الرحلة التي كانت (فعلاً) مخوفة بأخطار هذه الحرب .

ففي القرآن الكريم قال الله تعالى مشيداً بهذه الصفوة المختارة من أهل الحديبية - : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ (١) .

وقال تعالى - وصفاً مبايعة أهل الحديبية بأنها مبايعة له تعالى - : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله

(١) سورة الفتح الآية ١٨ .

فسيؤتبه أجراً عظيماً ﴿١﴾ .

وفي صحيح البخاري قال جابر بن عبد الله : قال لنا رسول الله ﷺ : أنتم خير أهل الأرض وكنا - أي يوم الحديبية - ألفاً وأربعمائة ، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة (٢) .
وعن جابر أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة ؛ رواه الشعبي مسنداً .

أهل الحديبية مثل أهل بدر :

وفي حديث آخر قال النبي ﷺ : يا أيها الناس إن الله غفر لأهل بدر والحديبية . وقال ابن عبد البر في غزواته : ما يعدل بدرأً أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية .

وقال الشعبي في قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ : هم الذين شهدوابيعة الرضوان .

دروس في قضية الحديبية :

وقبل اختتام الحديث عن صلح الحديبية ولما لهذه القضية التاريخية من أثر مصيري في تاريخ الإسلام ، فإنه يجدر بنا أن

(١) سورة الفتح الآية ١٠ .

(٢) ذكر الامام ابن سعد في طبقاته الكبرى أن الخليفة الفاروق عمر قطع هذه الشجرة وأزالها في خلافته .

نشير إلى ما يمكن أن يكون دروساً يستفيد منها في دينه ودنياه كل من ينظر فيها ويعيها كما يجب .

فقد تلقى الصحابة عن الرسول الأعظم ﷺ - ضمن تصرفاته في قضية الحديبية المعقدة - دروساً في الحكمة والحلم والصبر وضبط النفس والسياسة الصائبة وبعده النظر ، والوفاء بالعهد والخطة والحزم والحذر والتسامح والشورى وعدم الاستبداد مع احترام المعارضة .

إنها دروس لعمر والله جديرة بأن يتدبرها ويعيها ويسير على ضوئها الرادة والقادة من أمة الإسلام ، في معالجة المشاكل ومواجهة الأزمات وحل المشكلات .

١ - الخيطة والحذر :

ولعل أول درس تعلمه الصحابة من النبي ﷺ في هذه القضية هو الخيطة والحذر ، وبالرغم من أنه ﷺ قد خرج معتمراً لا يريد حرباً ، وبالرغم من إعلانه ذلك لثلاث تظن قريش أنه يريد غزوها ، وبالرغم من أنه وعامة أصحابه قد تجردوا من كل غيظ وارتدوا لباس الإحرام بالعمرة ، فقد قدم بين يديه طلائع من الفرسان بقيادة عتابة بن بشر حسباً للطوارئ ، والقيام بأعمال الاستكشاف ؛ كما زود أصحابه بكافة الأسلحة اللازمة .

كما أنه بعث له عيناً - رجلاً استخبارات - إلى مكة ليوافيه أثناء الطريق بمدى تأثير خروجه بين القرشيين ، ورد الفعل بينهم ليتخذ لكل أمر عدته ويرسم لكل شيء خطته .
و فعلاً لم يكذب بأصحابه منطقة أشطاط بعُسفان قرب مكة حتى عرف - عن طريق استخباراته - كل ما يجب أن يعرف عن أهل مكة الذين هو معهم في حالة حرب منذ معركة بدر الكبرى .

وقد استفاد ﷺ من المعلومات الهامة التي تلقاها من رجل استخباراته ، فاستطاع (كما تقدم) تجنب الإصطدام المسلح مع طلائع فرسان قريش بقيادة خالد بن الوليد في كراع الغميم بعد أن غير وجهته ناحية اليمين ، وبهذا تفادى إشعال نار حرب لم يكن راغباً في إشعالها .

٢ - ضبط النفس ساعة الاستفزاز :

والدرس الثاني الذي ألقاه النبي ﷺ على أصحابه عملياً فوعوه ، والذي يجب أن يعيه كل من هو في مركز المسؤولية ومرتبة القيادة والريادة ، هو خلق ضبط النفس والسيطرة على الأعصاب والصبر والتحمل عند تحدي الجهلاء واستفزاز السفهاء هذا الخلق الذي تحلى به النبي القائد والتزمه في أشد الساعات حرجاً وتجنسياً على المسلمين ، مع أنه كان قادراً على أن يكيل

الصاع صاعين للمستفزين المتهورين ؛ ولكنه لم يفعل لأن ذلك لم يكن ضرورياً .

لقد خرج النبي ﷺ من المدينة (خروجه ذاك) وهدفه الأول والأخير هو زيارة البيت الحرام وهو هدف سلمي محض عَليمته قريش وتبلغته من المسلمين رسمياً للإعذار .

ولكن قريشاً التي كانت كلمة الفصل في كل أمورها (يوم ذاك) للعقلية الوثنية الحمقى ، أبت إلا أن تصدّ النبي ﷺ وأصحابه عن زيارة البيت .

فبمجرد علمها بخروج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة نفخ الشيطان في مناخر زعمائها المشركين ، فأعلنوا التعبئة العامة واستنفروا كل ما لديهم من قوات عسكرية ثم خرجوا بها إلى ما وراء حدود مكة استعداداً لمحاربة المسلمين ومنهم (بحدّ السيف) من زيارة البيت .

فعلوا ذلك بالرغم من أن المعلومات التي حصلت عليها استخباراتهم ، أكدت لهم أن النبي ﷺ وأصحابه لم يحيثوا لحربهم وإنما جاؤوا زائرين ومعظمين للبيت العتيق يسوقون الهدى بين أيديهم قد ارتدوا ملابس الإحرام .. ولكنها الجاهلية العمياء حادت بالمشركين عن جادة الصواب .

لقد كان خروج قريش يحيوشها ومرابطة خالدة بن الوليد بفرسانها على الطريق الرئيسي في كراع الغميم تحدياً مثيراً واستفزازاً خطيراً في الإمكان أن يتسبب بسهولة في إشعال

نار حرب ضروس بين المسلمين والمشرّكين على حدود أو داخل الحرم ، تسفك فيها دماء غزيرة لا يرغب النبي ﷺ في سفكها وتزهق فيها أرواح كثيرة كان ﷺ حريصاً كل الحرص على أن لا يزهق شيء منها .

لقد كان باستطاعة النبي القائد ﷺ أن يتخذ من طغيان قريش وتحدّيها واستفزازها مبرراً للدخول معها في صدام مسلح فيمر حيث يعسكر فرسان خالد بن الوليد، ويقتحم عليه حدود الحرم بحدّ السيف لا سيما وأن قريشاً تعرف (سلفاً) أن قواتها ستكون هي الخاسرة إذا ما هاجها النبي ﷺ ليشق طريقه نحو مكة بالقوة .

لأن وراءه ألفاً وأربعمائة من نوع أولئك المغاوير الأشاوس الذين عرفهم مشركو مكة في ساحات الوغى حق المعرفة ، حيث حطم ثلاثمائة منهم يوم بدر جيش مكة الضخم المؤلف من ألف مقاتل يمثلون صفوة فرسان وصناديد قريش ومحاربيها . . كما أنزل سبعمائة منهم (يوم أحد) تلك الهزيمة المخجلة بثلاثة آلاف مقاتل أعدّتهم قريش لاجتثاث الإسلام ومحو كيانه من الوجود .

غير أن النبي ﷺ - مع قدرته على كل ذلك - قابل استفزاز قريش وتحدّيها بالحلم والصبر، ورد على سفها وشططها بالورانة والتعقل حتى أنه عندما بلغه أن قريشاً قد ركبت رأسها وأبت إلا محاربتة قال في أسف بالغ كلمته التاريخية

الخالدة تلك : « يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو غلبوا بني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن يفعلوا قاتلوا وبهم قوة » .

ثم أمر أصحابه بأن يسلكوا طريقاً لا يمر على عسكر قريش المرابطين في كراع الغميم ، لا جنباً ولا خوفاً من الحرب ، ولكن ضناً بالأرواح من أن تزهق وحراً على الدماء من أن تواق في غير ما ضرورة موجبة .

وفعلوا ، كم - بهذا التصرف النبوي الحكيم - أرواح حفظت كان يمكن أن تزهق المئات منها ، لو لم يتصرف النبي القائد هذا التصرف الذي به تحاشى الإصطدام مع عسكر قريش . . أرواح كان الكثير من أصحابها على رأس جيش المشركين ، ثم صاروا فيما بعد قادة لجيوش الإسلام دكثوا عروش كسرى وعصفوا بكراسي قيصر مثل : خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وعمرو بن العاص وسهيل بن عمرو ، الذين - وأمثالهم من صناديد قريش - كان يمكن أن يخربوا صرعى في المعركة لو لم يغير النبي ﷺ اتجاهه بأصحابه وينزل بهم على الحديبية .

وهكذا فإن كل قائد مسؤول يجب عليه أن يقف عند هذا التصرف النبوي ليستخلص منه الدروس في ضبط النفس وعدم التسرع في مثل هذه المواقف ووزن الأمور بموازين مصلحة الأمة

والدين لا بموازن العاطفة والعنجهية والهوى والعنتربات الفارغة .

٣ - احترام المعارضة النزيهة :

والدرس الثالث المستخلص من قضية الحديدية هو أن النبي ﷺ وضع قواعد احترام المعارضة ، وعدم التعرض للمعارض بأي أذى مهما كانت منزلة هذا المعارض .. شريطة أن تتوفر سلامة النية لدى هذا المعارض ، وأن يكون باعث معارضته الحروض على مصلحة الإسلام والمسلمين .

أما إذا كانت المعارضة باعثها الهوى أو المصلحة الشخصية أو العمل على ترسيخ قواعد مبدأ يخالف الإسلام ومصلحة الأمة فإنها معارضة يجب قمعها فليست جديرة بأي احترام .

والدرس المستفاد هنا بصفة رئيسية هو في قصة معارضة الفاروق عمر الصريحة بل القوية لبعض بنود معاهدة الصلح التي أبرمها النبي الأعظم ﷺ بينه وبين المشركين .

لقد كان ابن الخطاب يرى - في قرارة نفسه ساعة عقد الصلح - أن بعض الشروط التي اشترطها المندوب القرشي سهيل ابن عمرو في المعاهدة ، وقبل بها النبي ﷺ فيها مساس بكرامة الأمة الإسلامية تسجل عليها شيئاً من الدنية .. كان ذلك مبلغ فهمه وإحساسه وشعوره كإنسان عادي - بالنسبة للنبي ﷺ - لم يكن (بالتأكيد) على مستواه في إصابة الرأي وبعده النظر

والإحاطة بغوامض الأمور .. وبالتالي ، تلقّيه الوحي من السماء وعدم صدوره إلا عن أمر الله تعالى .

لذلك فإن ابن الخطاب لم يكذب على بنود وشروط المعاهدة - التي اتفق عليها ولم يبقَ غير التوقيع والإشهاد عليها - حتى نهض معلناً عن معارضته الشديدة وذهب إلى النبي ﷺ ، وبصراحته المعهودة أفصح لسيّد الحكماء وإمام العلماء ﷺ عن هذه المعارضة ، مستنكراً بعض الشروط التي تضمنتها هذه المعاهدة ، وخاصة المتعلقة باشتراط قريش رجوع المسلمين عن مكة ذلك العام دون أداء مناسك العمرة .. وتعهد النبي ﷺ بردّ كل من جاءه من أبناء قريش إليهم حتى ولو كان مسلماً .. وعدم تعهد قريش (مقابل ذلك) بأن يردوا من جاء إليهم مفارقاً جماعة المسلمين مرتدّاً عن الإسلام .

فرأينا كيف أن عمر بن الخطاب جاء إلى النبي ﷺ معلناً معارضته لهذه الشروط قائلاً : أأست رسول الله حقاً ؟ قال : بلى ، فقال ابن الخطاب : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال النبي ﷺ : بلى .

فقال عمر : فلم نعطِ الدنية في ديننا إذن ؟

فلم ينكر النبي الأعظم ﷺ على ابن الخطاب معارضته القوية الصريحة ولم يعتقه على هذه المعارضة بل حاول إقناعه بسلامة تصرفه ﷺ حينما وافق على هذه الشروط التي تراءى للفاروق أنها مجحفة بالمسلمين ، فقد أبلغ النبي ﷺ عمر بأنه لا يفعل إلا

ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين وبالتالي لا يتصرف إلا بأمر من الله حيث قال ﷺ جواباً على معارضة الفاروق : « إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري » .

وحتى بعد ذلك الجواب النبوي الرفيع المقتضب ، على تلك المعارضة الفاروقية العنيفة ، لم يضق صدر سيد البشر لاستمرار ابن الخطاب في المعارضة ومناقشة الرسول واستجوابه ، حيث واصل المناقشة حول الموضوع نفسه قائلاً ؛ وبذلك الصراحة التي كان النبي ﷺ يكبرها في عمر لنزاهة الدافع لها في كل مناسبة : « أوليس يا رسول الله كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت ونطوف به ؟ .. »

فقال النبي ﷺ - في هدوئه المعروف - : بلى .. أفأخبرتك أننا نأتيه هذا العام ؟ .

فقال عمر : لا .

فقال ﷺ : فإنك آتيه ومطوف به .

وكان الفاروق قد اتصل بوزير النبي الأول أبي بكر الصديق وأعرب له عن معارضته لتلك الشروط وعدم استساغته لها حيث قال لأبي بكر كما تقدم : أليس هذا نبي الله حقاً ؟ .

قال : بلى .

فقال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ .

قال : بلى .

قال : فلم نُعطِ الدنيّة في ديننا ؟

وهنا قال الصديق للفاروق (ملفتاً نظره إلى وجوب التسليم بكل ما يقوله أو يفعله النبي ﷺ) : أيها الرجل إنه لرسول الله وليس يعصي الله ربه ، وهو ناصره ، فقال عمر : وأنا أعلم أنه رسول الله .

فقال أبو بكر : فاستمسك بفرزه فوالله إنه على الحق .

ندم الفاروق على المعارضة :

وقد أعلن الفاروق - وبالصرحة المعروفة عنه - ندمه على تلك المعارضة التي أبدأها ، وحدثت عمر عن نفسه .. أنه كان يصوم ويتصدق ويعتق ، تكفيراً عما صدر منه من تلك المعارضة التي صرح بها النبي الأعظم ﷺ .

٤ - إيضاح أهم نقطة إشكالية :

لقد كان البند الذي يتضمن تمهيد النبي ﷺ بأن يرد إلى المشركين من جاءه من أبنائهم حتى ولو كان مسلماً ، ولا تتعهد قريش برد من جاءها من المسلمين إليهم .

كان هذا البند - على وجه الخصوص - مصدر تضاييق للمسلمين لأنهم لم يهضموه ولم يستسيغوه كبشر ، حتى قال

قائلهم - عندما سمعوا موافقة النبي ﷺ - : سبحان الله كيف
يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟؟

وقد أصاب المسلمون (لقبول هذا الشرط) هم "عظيم .

غير أن النبي ﷺ بأسلوبه الحكيم وبمنطق واقعي سليم بدّد
كل غيوم الهمّ تلك التي خيّمّت على نفوس المسلمين فأجابهم
بصدّد هذا الشرط الذي استنكروا قبوله بقوله ﷺ :

«أما من أراد أن يلحق بنا منهم (أي مسلماً وتمهدنا بعدم
السماح له بالإقامة بيننا) فسيجعل الله تعالى له مخرجاً ولنا ..
ومن أتاهم منا فأبعده الله (أي مرتدّاً) وهم أولى بمن كفر » .
وكان التفسير النبوي تفسيراً واقعياً ومعقولاً أعاد للنفس
القلقة طمأنينتها .. حتى أن عمر بن الخطاب - وهو أشدّ
الصحابه معارضة لقبول هذا الشرط - اقتنع بهذا القول النبوي
وأدرك أن فعل الرسول ﷺ هو الصواب .

وهذا درس مهمّ ألقاه النبي ﷺ على أصحابه يجب
الإستضاءة بنوره في التأمّني وعدم التسرّع في تفسير الأمور
واستخراج النتائج أثناء الإنفعال وفورة العاطفة ، لأن
استخلاص النتائج (حينئذ) يكون مفلوطاً كما حدث حينما
تسرّع بعض المسلمين في تفسير قبول النبي ﷺ بهذا الشرط ،
بأنه يحمل المساس بكرامة المسلمين ودينهم .. ثم بان لهم خطأ
هذا التفسير عندما أكد لهم النبي ﷺ بلغة العقل (لا العاطفة)
عدم وجود أية دنيّة عليهم في قبول هذا الشرط الذي كادوا

يهلكون غمًا لدى سماعهم موافقة النبي ﷺ على قبوله .

٥ - الوفاء بالمعهد :

ولعل من أبلغ الدروس في صلح الحديبية درس ألقاء النبي القائد والحاكم في الوفاء بالمعهد والتقيد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يعطيها المسؤول الشريف في كلمته مها ترتب على هذا الوفاء من خسائر وآلام تصيب الموفي بالمعهد . هذا الدرس الرائع نستخرجه من حادثة أبي جندل التاريخية المؤثرة .

لقد كان لرئيس وفد الشرك في مفاوضة الحديبية (سهيل بن عمرو) ابن شاب كان قد هداه الله للإسلام في مكة فاعتقله أبوه وأودعه السجن وقام بتعذيبه لملحه على المودة إلى دين الوثنية ، ولكنه صبر وتحمل وظل على دينه الصحيح مسلماً .

وصادف أن أبا جندل هذا (كما تقدم) تمكن من الفرار من سجن أبيه ووصل إلى معسكر المسلمين وهو يرسف في قيوده فرمى بنفسه فارتأ بدينه بين أظهرهم طالباً حمايتهم لأنه أصبح مسلماً منهم وإليهم .

فرحّب به المسلمون وهنأوه ، غير أن أباه سهيل بن عمرو لم يكد يراه بين المسلمين حتى صرخ في وجهه وانهال ضرباً على وجهه ثم أخذ يجره بتلابيبه ويدفع به أمامه ليعود به إلى

معسكر الشرك ، حتى صاح أبو جندل (مستغيثاً بالمسلمين) :
يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني عن ديني ألا ترون
ما لقيت ؟ .

ويظهر أن المسلمين سارعوا بالتدخل لحماية أبي جندل
وانتزعوه من يد أبيه المشرك ليبقى معهم لأن تلك هي رغبته ،
ولأنه أصبح منهم ، عضواً في أسرة الإسلام .

لم يَلْجَ سهيل بن عمرو إلى القوة لإلقاء القبض على ابنه المسلم ،
بل لجأ إلى الإحتجاج لدى النبي القائد ﷺ وطالبه بأن يسلم
إليه ابنه أبا جندل وفقاً لاتفاقية الصلح التي ينص البند الثامن
منها على التزام النبي ﷺ بأن يرد من جاء إليه من قريش بغير
إذن أهله .

فقد قال سهيل في احتجاجة هذا — أي موضوع ابنه —
أول ما أقاضيك عليه ، لقد لجت القضية بيني وبينك قبل أن
يأتي هذا — يعني ابنه — .

ولم يسع النبي القائد — وهو أبرّ من أوفى بالعهد — إلا أن
يقف عند كلمته ويطبق الاتفاقية نصاً وروحاً ، فقال لسهيل بن
تمرو : صدقت ، وسمح لسهيل بن عمرو ، المشرك باعتقال ابنه
المسلم وإعادته إلى مكة ، رغم علمه بما في هذا التصرف من إيذاء
شديد لمواطني المسلمين .

إلا أن النبي ﷺ — مع ذلك — طلب من سهيل بن عمرو
أن يسمح لابنه بالبقاء مع المسلمين قائلاً : فأجره لي ، أي أكرمه

في جوارري وأماني وهي عادة متبعة عند العرب .

فقال سهيل : ما أنا بجير لك ذلك .

فكرر النبي الطلب قائلاً : بلى ، فافعل .

فكرر سهيل الرفض قائلاً : ما أنا بفاعل .

وهنا تدخل عضوا الوفد القرشي (حويطب بن عبد العزّي ومكروز بن عمرو) فأجارا أبا جندل ، وتمهدا بأن لا يمسّه العذاب في مكة ، حيث قالوا للنبي ﷺ : قد أجرناه لك (يا محمد) لا نعدّ .

وقد استلم سهيل بن عمرو إبنة الشاب المسلم ليزجّ به في السجن مع أمثاله من شباب قريش المسلمين الذين حال طفيان أهلهم بينهم وبين اللحاق بالنبي ﷺ مهاجرين .

النبي يعتذر لأبي جندل :

وقد اعتذر النبي الأعظم ﷺ لأبي جندل عندما صاح بأعلى صوته - وأبوه يجرّاه بتلابيبه - يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟. اعتذر النبي ﷺ لهذا الشاب المسلم بأنه لا يستطيع أن يقوم بأيّ عمل يخلصه من أسر أبيه المشرك لأن ذلك يعني النقص للعهد الذي أعطاه النبي ﷺ لقريش قبل قليل .

فقد قال ﷺ لأبي جندل : إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم

صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهداً وإتانا لا نغدر بهم .

غير أن النبي ﷺ إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصلح بينه وبين أن يحد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم ، ظمأن أبا جندل وبشره بقرب الفرج له ولمن على شاكلته من الشباب المسلم الذين تضيق بهم سجون أهاليهم المشركين في مكة فقد قال ﷺ لأبي جندل - وهو يواسيه - : يا أبا جندل إصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً .

فاقتنع أبو جندل بالبيان النبوي واطمأن إلى البشري التي بشره بها ، فاستسلم لأبيه المشرك الذي عاد به إلى مكة ، حتى جعل الله له فرجاً ومخرجاً - كما بشره الرسول ﷺ - بعد أقل من سنة ، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله .

درس رائع واختبار قاس :

حقاً انه لاختبار قاس وامتحان شديد .. شاب مسلم فرّ بدينه إلى المسلمين ثم ينتزع انتزاعاً ليرمى به مرة أخرى في جحيم الشرك بعد أن خرج منه والتجأ إلى أسرة الإسلام في الحديبية .

لقد تأذت المسلمون لهذا المنظر وتألموا أشد الألم حتى أن الكثير منهم بكى إشفاقاً على هذا الشاب الطيب المسلم وهم يرون أباه المشرك يسجبه في جلافة الوثني الفظ .

لقد كانت الرغبة ملحة في نفوسهم - بل وفي مقدورهم - أن يخلصوا هذا الشاب الصادق الإيمان من وحشية أبيه الوثني اللفظ .. فقد كانت قلوبهم وكأنها تتمزق وهم يرون سهيل بن عمرو المشرك يسحب - في وحشية وقسوة من بين أيديهم - ابنه المؤمن والدعاء تسيل من شدة ضغط مقابض السلاسل على قدميه .
حقاً لقد كان منظراً تبكي له القلوب قبل العيون .. ولكن ماذا عسى أن يصنع المسلمون القادرون على تخليص هذا الفتى المسلم .. ماذا عسى أن يصنعوا ؟

إنهم أمام هذا المنظر الذي بكت له قلوبهم قبل عيونهم يشعرون وكأن أيديهم مشدودة إلى وراء .. شداها الوفاء بالعهد الذي أعطاه النبي ﷺ قريشاً ، وشرف الكلمة التي التزم تنفيذها ضمن نصوص معاهدة الصلح ، الذي جعلهم يقفون مكتوفي الأيدي لا يجرأون على التعرض لسهيل بن عمرو الذي صادر حرية ابنه الشاب المسلم وأجبره على العودة ليعيش في مجتمع الوثنية الذي لا يريد العيش فيه .

وقد أشار ابن إسحاق إلى أن ما حدث لأبي جندل قد ثقل على المسلمين ودخل عليهم منه أمر عظيم ، حتى كادوا أن يهلكوا غماً ، حتى بلغ الأمر بالكثير منهم إلى أن يستفسروا في ألم وحرقة - لعدم إحاطتهم بما أحاط به علم النبي ﷺ ولقصر إدراكهم للأبعاد والمرامي العميقة التي يدركها النبي ﷺ وهو يقبل ذلك الشرط الذي أملاه سهيل بن عمرو أثناء كتابة المعاهدة والذي

بوجه أعاد النبي ﷺ إلى سهيل المشرك إبنه اللاجئ المسلم -
استفسروا : لماذا يردون إلى قريش من جاء إليهم مسلماً ولا ترد
قريش إليهم من هرب إليها منهم مرتدأ ؟.

وجاء الجواب من الذات النبوية على هذا الإستفسار ..
حكيماً منطقياً وواقعياً ، فلامس القلوب المؤمنة فصار لها
كالبلسم .. شفاها من الهم الذي ألمّ بها وخاصة بعد الذي حدث
لأبي جندل .. جاء الجواب من النبي الحكيم الحليم بأن من ذهب من
المسلمين إلى قريش مرتدأ ، فلا رده الله .. إذ لا خير فيه ..
وماذا يستفيد المسلمون من إنسان فارق دينهم ؟.

أما المستضعفين من المسلمين الذين قد يطلبون حق اللجوء
عند المسلمين فيعبدونهم النبي ﷺ إلى كفار مكة ، فسيجعل الله
لهم مخرجاً - ما في ذاك شك - ما داموا ثابتين على دينهم .

وماذا عليهم لو دفعوا ضريبة الإيمان في سجون مكة ؟ لقد
سبق لهم إخوة اقوا - في سبيل التمسك بعقيدتهم - أشد مما
يذوقون هم ، من التدب ، حتى أن بعضهم مات تحت التعذيب
الوحشي الرهيب فصاروا في الذروة بين السابقين الأولين ،
أمثال: عمار و أم عمار ، وبلال ، ومصعب بن عمير الذين لم يكن
ما تعرضوا له من قسوة الإرهاب والتجويع ووحشية التعذيب
في سجون المشركين بمكة إلا أوسمة - إن صح هذا التعبير -
جعاتهم حديث الدنيا وملء سمعها وبصرها ، يلجج التاريخ
بذكراهم العطرة في التضحية والفداء في سبيل العقيدة

أبد الآبدين .

فكانَ لسان حال النبي الأعظم - وهو يعيد أبا جندل إلى أبيه المشرك وفاءً بالعهد - يقول : فليثبت إذن أبو جندل وإخوة أبي جندل وليحتسبوا ما ينالهم في سجون مكة من بلاء وتشكيل في سبيل الإستفاظ بعقيدتهم ، فالله منجيهم وجاسل لهم من محنتهم مخرجاً .

أليس الله سبحانه هو القائل في حق المؤمنين الصادقين المتقين : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ (١) ٢٢ .

ولقد صدق الله وعده فقد جعل لأبي جندل وإخوته من المسلمين المستضعفين في سجون أهاليهم بمكة مخرجاً ، فلم تمرّ أقلّ من سنة حتى تمكنوا من الإفلات من سجون مكة وأصبحوا قوة صار كفار مكة يخشونها بعد أن سيطرت على طرق قوافل المشركين الآية من الشام ، كما سيأتي تفصيله فيما يلي من هذا الفصل إن شاء الله .

مكاسب الصلح العظيمة :

بالرغم من تضاييق عامة المسلمين لما تحمله (في الظاهر) شروط صلح الحديبية التي قبلها النبي ﷺ واغتم لها عامة

(١) سورة الطلاق الآية ٢ - ٣ .

المسلمين ، فإن هذا الصلح نتج عنه مكاسب عظيمة للمسلمين بل نصر كبير لدعوة الإسلام ظهرت جليلة واضحة فيما بعد للذين تضايقوا من شروط هذا الصلح .

وقد تساءل البعض في حينه — عن حسن نية — أين هي المكاسب الملموسة التي حققها صلح الحديبية بشروطه القاسية على المسلمين وقد أقرّ النبي ﷺ صد المسلمين عن الحرم فحلتوا لإحرامهم خارجه ، وعادوا من حيث أتوا دون أن يطوفوا بالبيت ، وهو الهدف الرئيسي الذي لم يخرجوا من المدينة بقضهم وقضيتهم إلا من أجل تحقيقه ؟؟ .

والجواب على هذا التساؤل ، هو أن النبي الأعظم ﷺ لم يقرّ في هذا الصلح ويوافق سهيل بن عمرو على صد المسلمين عن الحرم ومنعهم من الطواف أبد الآبدين .

وإنما وافق فقط ، على أن يؤجل المسلمون دخولهم الحرم معتمرين من عامهم ذاك إلى العام الذي يليه مباشرة . وهو ما أشار إليه النبي ﷺ وهو يحاول إقناع المعارضين للصلح من أصحابه .

وهذا يدل على (دبلوماسية) رفيعة وسياسة عسكرية غاية في الحصافة — إن صح هذا التعبير — (دبلوماسية) حقق باتباعها النبي ﷺ حقن دماء كثيرة لم تكن له أية رغبة في إراقتها بل يكره كل الكره أن تراق داخل الحرم .. وكان يمكن أن تراق بسهولة وبغزارة ، لولا أن النبي ﷺ فعل كما يفعل القادة المتجبرون

القادرون على تحقيق أهدافهم بجدّ السيف .. وقد كان قادراً على اقتحام مكة بجدّ السيف .

ولكنه - وهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين - فضّل أن يحلّ محلّ هذا الاقتحام الدامي ، عودة سليمة للمسلمين لزيارة البيت بعد عام واحد فقط .. فقبل (لذلك) الشرط الذي أملاه المندوب القرشي والذي يقضي بأن يرجع المسلمون هذا العام دون أن يدخلوا مكة ، على أن يكون من حقهم دخولها في العام القادم .

وأياً إجحاف بحق المسلمين في الموافقة على هذا التأجيل ، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا التأجيل البسيط كان سبباً رئيسياً في حفظ مئات - بل آلاف الأرواح - يمكن أن تُزهق من الفريقين لو لم يوافق النبي ﷺ على هذا التأجيل وأصرّ على اقتحام مكة بالقوة .

ثم ما هو الفرق بين أن يحصل الإنسان على حقه اليوم أو غداً ، ما دام أنه قد ضمن الحصول على هذا الحق ؟ .

وقد تضمنت معاهدة صلح الحديبية وجوب حصول المسلمين على حقهم وهو الطواف بالبيت في العام القادم .

فهل من الحكمة أو هل من مصلحة الإسلام والمسلمين أن يخاطر النبي ﷺ بأرواح المئات من أصحابه الذين هو في أمسّ الحاجة إليهم - وخاصة في تلك المرحلة المصيرية من بناء الدولة الإسلامية الوليدة التي هي أحوج ما تكون إلى الرجال لحماية

الدعوة التي أخذت جذورها في الرسوخ والإنسياب في الأعماق هل من الحكمة أو من المصلحة أن يقدم على مخاطرة قد لا تكون مأمونة الجانب فيعرض أصحابه للموت في حرب ستكون لا شك ضروساً طاحنة ، من أجل التعميل بمطلب هو قادر على تحقيقه بعد عام واحد ، دون أن يضطر إلى إراقه قطرة دم واحدة من دم أصحابه ؟؟ .

إنه كنيي أرسله الله رحمة للعالمين، وكرسول جاء يحمل شعار الحب والتسامح ، وكرائد ومصلح جاء لحقن الدماء وحيانتها ، لا لسفكها وإضاعتهما ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، حتى ولو كانت هذه الدماء غير دماء المسلمين .. لهذا كله ولأنه — كقائد مسؤول عن سلامة أرواح أصحابه — لا يمكن أن يقدم على تلك المخاطرة فيخوض حرباً مدمرة ضروساً لا ضرورة لها إلا الاستجابة لمواطف بعض الأصحاب التي عند جيشانها قصرت مداركهم عن فهم وإدراك ما فهمه وأدركه القائد الفذ المهنيك المسؤول ، والرسول الموحى إليه من عند الله والذي لا يصدر إلا عن أمره تعالى .

شرط سطحي :

لقد قبل النبي ﷺ ذلك الشرط الذي اشترطته قريش في المعاهدة والذي بموجبه قبل النبي ﷺ الإمتناع عن دخول مكة ذلك العام على أن يدخلها وأصحابه في العام القادم .

لقد تظاهرت قريش أنها بإملاء هذا الشرط قد انتصرت على المسلمين .. بينما ذلك الشرط (في حقيقته) ليس أكثر من غطاء رقيق شفاف ، حاولت قريش - أمام السطحين العاطفين - أن تغطي به هزيمتها الكبيرة في هذا النزاع الخطير الذي أثاره تصلفها الوثني وكبرياؤها الجاهلي .. هذه الهزيمة المتمثلة في إنحنائها للعاصفة بقبولها مبدأ دخول المسلمين مكة واعترافها بحقهم في الطواف بالبيت ، الأمر الذي كانت ترفضه وتمانع في الاعتراف به حتى توقيع مندوبها على معاهدة الصلح التي اعترفت فيها بهذا الحق .

إن كل ما كسبته قريش من هذا الشرط - الذي استعظم عامة الأصحاب الموافقة عليه - هو أن النبي - قبل أن يؤجل دخول مكة للعمرة عاماً واحداً .

وهذا أبرز ما ظن قادة قريش ، أو هموا السطحين من مشركي العرب أن فيه نصراً عظيماً لقريش على المسلمين .

بينما هو في الحقيقة لا يعدو أكثر من موافقة الرسول القائد على تأجيل مباشرة حق سنة واحدة .. حق كانت قريش - إلى ما قبل إبرام هذا الصلح - ترفض الاعتراف به .

فكان قريشاً بإبرامها هذا الصلح قد وقعت على الاعتراف بحق المسلمين كانت ترفض الاعتراف به وتقسم الأيمان الغليظة بأنها لن تكسبهم من مباشرته أبد الآبدين .

ولهذا خرجت من مكة إلى منطقة الحديبية بكل ما لديها

من قوة لتبرئ بهذا القسم الآثم وتجبر المسلمين على العودة من حيث أتوا دونما أي قيد أو شرط أو دخول في أية مفاوضة .

ولكنها عندما رأت تصميم المسلمين على البقاء في الحديبية وأن ذلك قد يؤدي إلى صدام مسلح قد يكون فيه تحطيم كيائها إلى الأبد ، وخاصة بعد المباينة تحت الشجرة والتي لا تعني سوى الاستنفار العام واستعداد المسلمين لخوض المعركة إذا لم يكن منها بد . ورأت قريش - كما هو في قرارة نفسها - أن لا طاقة لها بمقاومة المسلمين إذا ما اضطروا للهجوم ، لذلك انحنت للعاصفة ، فرجعت عن يمينها ، فوافقت على أن يدخل المسلمون مكة للعمرة ، ولكنها - كستار لتراجعها الذي هو عين الإندحار - طلبت أن يكون ذلك في العام القادم .

فصح بهذا يقيناً أن الذي حصل على الكسب الحقيقي والنصر المؤزر في هذه القضية الخطيرة التاريخية المعقدة إنما هم المسلمون لا المشركين .

ولقد اعتبر الخبراء العسكريون والسياسيون القدامى والمعاصرون .. اعتبروا رجوع النبي ﷺ بأصحابه على تلك الصورة وبعد الظفر بتلك المعاهدة هو من أحكم وأقوم ما يمكن أن يُقدم عليه قائد مسؤول عن الأمة ، يقدر النتائج ويحسب حسابها قبل الإقدام على العمل .

كما أن الباحثين وفلاسفة التاريخ اعتبروا صلح الحديبية نصراً عظيماً أحرزه النبي ﷺ للإسلام والمسلمين .

بل إن الناظر بتفهّم وإمعان في قضية الحديبية والصلح التاريخي الذي كان خاتمة المطاف فيها ، يجد أنه قد نتج عن هذه القضية مكاسب عقائدية وسياسية وأدبية وإعلامية عادت بالنفع العظيم على الإسلام ودعوة الإسلام .. ويمكننا الإشارة إلى بعض هذه المكاسب :

١ - إعراف قريش بحكيان المسلمين :

لقد كانت قريش - منذ ظهور دعوة الإسلام في مكة ومنذ خمس عشرة سنة وحتى يوم صلح الحديبية - تعتبر النبي وأصحابه المسلمين شرذمة لا كيان لها .. لا تنظر إليهم إلا كما تنظر إلى الصعاليك من قطّاع الطرق والخارجين على القانون الذين يجب إخضاعهم لسلطانها وإعادتهم إلى حظيرة ضاعة كهنوتها الوثني أو التخلص منهم بأية وسيلة من الوسائل .. وما كانت قريش تفكّر أنها في يوم من الأيام ستقعد معهم على مائدة واحدة لتفاوضهم بمفاوضة الند للند وتعترف بهم في معاهدة مسجلة كأمة لها كيانها بل كدولة لها هيبتها ونفوذها ، الأمر الذي ترفض قريش الإعتراف (رسمياً) بشيء منه كل الرفض حتى جاء يوم الحديبية فاعترفت فيه للمسلمين بكل ذلك ووقع مندوبها على وثيقة تاريخية دولية ؛ تتضمن هذا الإعتراف .

وهكذا تكون أولى مكاسب صلح الحديبية السياسية - بل أهمّها - إعراف قريش رسمياً بأن النبي ﷺ وأصحابه أصبحوا

أمة لها كيائها ، بل دولة لها خطرها .

وقد جاء هذا الاعتراف مجسداً في وثيقة معاهدة هذا الصلح التي تضمنت إثني عشر بنداً من بينها البند الذي ينص على عقد هدنة بين المسلمين ، قد يش لمدة عشر سنوات .

إلا بين فئتين متكافئتين — عسكرياً

وسياسياً على الاقل — .

والتكافؤ عسكرياً ودولياً بين المسلمين وقريش ، ظلت قريش ترفض الاعتراف به طيلة خمس عشرة سنة حتى وقّعت على الاعتراف به رسمياً (مرغبة) في معاهدة الحديبية .

فكان النبي الأعظم ﷺ بنجاحه في عقد هذا الصلح التاريخي مع قريش قد انتزع منها هذا الاعتراف انتزاعاً ، الأمر الذي ما كانت قريش لترغب فيه أو تتوقع حدوثه لولا صبر النبي ﷺ وجَلَدُه وتحليته بضبط النفس وقدرته الفذة على المناورة باتباعه إزاء قريش في قضية الحديبية سياسة اللين في غير ضعف ، والشدة في غير عنف .. بينما ركب سادات قريش رؤوسهم في هذه القضية ، فاتبعوا — إزاء المسلمين — سياسة العناد والمكابرة والشدة والعنف والتهديد والوعيد وأعلنوا أنهم سيشتنون حرباً كاملة على المسلمين في الحديبية أو يرجعوا من حيث أقوا دونما قيد أو شرط ، وأن قريشاً لن تسمح لهم بدخول مكة في أي وقت وتحت أي ظرف .. ثم تراجعت بل وتحاذلت وأرسلت بوفدها إلى الحديبية ليوقع وثيقة هذا

الصلح الذي ظنت قريش أنه نصر لها ، بينما هو في الواقع قد تجسدت فيه هزيمة سياسية كبرى نزلت بقريش التي قبلت صاغرة مبدأ دخول المسلمين مكة وقيامهم بأداء العمرة التي حلفت قريش أنهم لن يؤدّوها مهما كانت النتائج المترتبة على منعهم من أدائها .

٢ - تفهم المشركين لحقيقة الاسلام :

ومن المكاسب الكبرى التي جنته الدعوة الإسلامية أثناء المفاوضة في الحديبية هو أن تصرف المسلمين - وخاصة نبيهم العظيم - طيلة الأيام التي قضوها في الحديبية قد جعلتهم محل احترام وإكبار كل الزعماء والسادة الذين بعث بهم قريش كوسطاء لحل المشكلة القائمة بينها وبين المسلمين .

فقد كانت وسائل قريش الإعلامية تصوّر المسلمين بين العرب على أنهم دعاة حرب ومصاصي دماء معتدون ، وأنهم لم يأثروا هذه المرة بهذا العدد الضخم إلا للعدوان وسفك الدم الحرام داخل البلد الحرام .

غير أنه سرعان ما ينكشف زيف هذه الدعاية القرشية الكاذبة وتأتي لقريش بعكس النتائج التي كانت قريش تسعى - من وراء هذه الدعاية الكاذبة - لتحقيقها .

فلا يأتي زعيم من حلفاء أو أصدقاء قريش - وسيطاً إلى الحديبية - إلا وهو يحمل في ذهنه عن المسلمين تلك الصورة

شهوة التي رسمتها الدعاية القرشية الكاذبة المغرضة .

ولكن سرعان ما تنكشف له الحقيقة بمجرد أن يتصل بهؤلاء المسلمين فيعود إلى قريش وقد زالت من ذهنه عن المسلمين تلك الصورة الخاطئة المعتمة وتحل محلها صورة مشرقة مضيئة لهؤلاء المسلمين ، ترتسم في ذهنه من واقعهم المشرف الذي منه يتبين له أنهم ليسوا — كما تصوّرهم قريش — طلاب شر وإنما هم دعاة خير ليس من باعث لحيثهم سوى تعظيم حرمات الله وزيارة بيته الحرام .

فيسود هؤلاء الوسطاء وهم يلقون بكل اللّوم على قريش ويحملونها وحدها مسؤولية تعقيد الموقف وما قد ينتج عنه من صدام دامٍ ، وذلك بعد أن يلمس هؤلاء الوسطاء بأنفسهم شرف المقصد وحسن النية الصادقة بين المسلمين ؛ كما حدث من الوسيط الثاني عروة بن مسعود الثقفي والوسيط الثالث الحليس ابن زبّان .

وهذه كلها مكاسب أدبية وسياسية حصل عليها المسلمون نتيجة تصرفات نبيّتهم الحكيمة إزاء استفزازات قريش وتحدياتها الجاهلية ، وهي مكاسب إعلامية عظيمة ، ما كان المسلمون يحصلون عليها لولا التزام نبيّتهم العظيم سياسة الحلم وضبط النفس في هذه القضية المعقّدة .

٣ - انشقاق معسكر الشرك :

ومن المكاسب التي صاحبها صلح الحديبية الانشقاق الخطير

الذي حدث داخل معسكر الشرك بين قريش وحلفائها الذين لا مها قادتهم من الوسطاء على عنادها ومكابرتها عندما وجها إليها اللوم وأسدوا إليها النصح بأن لا تحول بين المسلمين وبين مباشرة حقهم الطبيعي في الطواف بالبيت بعد أن نقلوا إلى مسامع زعمائها أن المسلمين ليسوا مخطئين في إصرارهم على دخول مكة لأداء مناسك العمرة كغيرهم من فئات العرب الأخرى .

فقد رأينا فيما مضى كيف غضبت قريش على سيد الأحابيش (الحليس بن زبآن) وهو أقوى حليف لها عندما صارحا بالحقيقة وأنها تتصرف تصرفاً سيئاً عندما تحول بين المسلمين وبين الطواف بالبيت ، الأمر الذي - كما أشار الحليس - لا يمكن لأي عربي إستساغته أو إقراره لأنه بغي وظلم ، ما سبق وأن أقدم على مثله أحد من سادوا أرض الحرم عبر العصور .

ورأينا كيف أن زعيم الأحابيش عندما جبهته قريش وسفّهت رأيه ، عندما أسمعها كلمة الحق بشأن المسلمين - بعد أن لمس بنفسه نزاهة مقصدهم وسلامة موقفهم - هدد قريشاً بأنه سيلغي الحلف الذي بينه وبينها ، وينسحب برجاله من تجمعها إذا لم تصغر لصوت الحق فتخلّتي بين المسلمين وبين البيت ليطوفوا به .

الأمر الذي أزعج قريشاً وجعلها تتوسل إلى حليفها القوي بأن لا ينفذ تهديده حتى تجدد لها مخرجاً من ورطتها ، بعد أن وعدته بأنها ستسعى لإيجاد مخرج يكون فيه رضا ويحفظ لها شيئاً من ماء وجهها ويضمن السماح للمسلمين بزيارة البيت الذي

كان صدّ قريش المسلمين عنه أساس المشكلة ومصدر غضب سيد الأحابيش .

وتهديد الحليس بن زبّان كان ثاني إنشقاق خطير يواجهه التجمّع الوثني في الحرم ، مما حمل سادات قريش على التفكير جدياً في الرجوع إلى طريق الاعتدال والتخلي عن سياسة المعجبية والحماقة والسفه .. الأمر الذي وصل في النهاية بقريش (مكرهه) إلى التوقيع على معاهدة هذا الصلح التاريخي .

انسحاب سيد ثقيف :

كذلك رأينا فيما مضى كيف انسحب سيد ثقيف وحليف قريش وصهرها (عروة بن مسعود) من التجمّع الوثني ، بعد أن شجب تصرفات قريش القاضية بمنع المسلمين من زيارة البيت ، ووصف تصرف النبي ﷺ بالرشد والاعتدال حين لمس ذلك فيه عندما قابله في الحديبية يوم أرسلته قريش وسيطاً يفاوض النبي ﷺ ويقنعه بالعودة إلى المدينة .

فقد قال عروة بن مسعود لقريش : إن محمداً قد عرض عليكم خُطّة رشد فاقبلوا ما عرض عليكم فلإني ناصح لكم ، ثم صارحهم بأنه يرجّح أن تكون الهزيمة من نصيبهم إذا ما حاربوا النبي ﷺ قائلاً : (مع أني أخاف أن لا تُنصروا عليه) .

ولما أبت قريش أن تستجيب إلى نصح حليفها القوي الثاني (عروة) قال غاضباً ومحمّلاًهم مسؤولية هذا العناد : (ما أراكم

إلا ستصيبكم قارعة يا معشر قريش) أي بسبب محاولتكم منع المسلمين من زيارة البيت .. ثم ترك التجمع الوثني وانصرف ببقومه إلى الطائف .

ومما لا جدال فيه أن هذا الإنشقاق الخطير الذي حدث في معسكر الشرك هو من المكاسب التي جناها المسلمون في هذا الصلح .. فهذا الإنشقاق كان عامل ضعف في جانب القرشيين بقدر ما كان عامل تقوية وتدعيم لمركز المسلمين .. الأمر الذي حدا بقريش - بل أجبرها - على أن تقبل مبدأ الإعتراف بحق المسلمين في الطواف بالبيت ، بل وتوقع على الإعتراف بهذا الحق في وثيقة صلح الحديبية الذي أثبتت الأحداث - فيما بعد - أنه من أعظم الانتصارات التي حققها الإسلام على الشرك والمشركين.

٤ - تأثر المشركين بواقع المسلمين :

ولعل من أكبر المكاسب التي جناها الإسلام والمسلمون من صلح الحديبية ، هو أن هذا الصلح قد أتاح الفرصة للمسلمين والمشركين على السواء بأن يختلطوا ببعضهم ببعض .

ولقد كان من نتيجة ذلك الاختلاط الذي حدث بعد أن آمن الناس بعضهم بعضاً - نتيجة هذا الصلح - أن عرف المشركون المسلمين على حقيقتهم والإسلام كما هو .. لا كما كانت تصوره لهم أبواق الوثنية المفرضة في مكة .

وقد تأثر كثير من عقلاء المشركين بواقع المسلمين المشرف

الذي لسوء وشهدوه عن كذب .. تأثر كثير من هؤلاء العقلاء الوثنين تأثراً بالغاً .. حتى أنه لم تضر على صلح الحديبية - الذي أتاح للفريقين بأن يختلط بعضهم ببعض آمناً - بضعة عشر شهراً حتى دخل في الإسلام من الوثنين وخاصة القرشيين أكثر من الذين دانوا بالإسلام خلال خمس عشرة سنة .

ويكفي للتدليل على صحة هذا الرأي ، هو أن عدد المسلمين يوم أبرم صلح الحديبية لم يزد على ألفين - في أكبر تقدير - .. بينما بلغ عددهم في السنة الثامنة - وقبل فتح مكة بقليل - أكثر من عشرة آلاف .

صلح الحديبية هو الفتح العظيم :

وقد دخل أكثر هؤلاء في الإسلام بفضل الله ثم بفضل ما أتاحه صلح الحديبية خلال سنتين من اختلاط وتعارف ومناقشة ومفاوضة حرة بين الفريقين .. ولهذا أطلق فيما بعد على هذا الصلح اسم الفتح العظيم .

قال ابن اسحاق ؛ عن الزهري : ما فتح في الإسلام فتح قبل صلح الحديبية كان أعظم منه .. إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة « هدنة الحديبية » ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه .. ولقد دخل في دينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك

أو أكثر^(١) .

فقد أتاح هذا الاختلاط والتعارف للمشرّكين ، أن يروا هذا الجيل الجديد - جيل الاسلام - على حقيقته .

فقد دهش المشرّكون لهذا التحوّل السريع العجيب في المسلمين الذين تمحوّوا من كل شيء - كانوا عليه أيام شركهم - إلى ضده . لقد كانوا - قبل أيام قليلة - مثل هؤلاء المشرّكين ، تحكمهم الفوضى وتستبد بهم رغبات الجسد ، عبدة أصنام .. منتهكي حرّمات .. مرتكبي جرائم ، لا فرق بينهم وبين الحيوانات السائمة .

ولكنهم اليوم أصبحوا يتفوّقون عليهم في كل شيء .. يتفوّقون عليهم في الصدق والوفاء والطاعة والتقيّد بالنظام ، وبالجملة أصبحوا خلقاً جديداً يتحلون بفضائل ومحاسن ما كان للمجتمع القرشي بها من عهد .. كانت محل دهشة هؤلاء المشرّكين القرشيين وتساؤلهم !! .

تري ما هو السر الذي قفز بهؤلاء المسلمين إلى هذه المنزلة الرفيعة من سمو الانساني التي جعلتهم محلّ احترام وإكبار ، حتى هؤلاء الذين خرجوا من مكة لقتالهم ومنعهم من دخول مكة بمحدّ السيف ؟ .

سؤال كبير ظل يحول - في إلحاح - بخاطر عقلاء قريش

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٢ .

هنا أتاح لهم صلح الحديبية الاختلاط بهؤلاء المسلمين ، ولسوا
فيهم ذلك التبدل المذهل الذي جعل منهم أرقى مثل حي
للإنسان الكامل الذي لا يعرف السير إلا في طريق الخير .

لقد كان القرشيون خاصة - لكثرة دعايات ساداتهم المضللة -
لا ينظرون إلى أصحاب محمد إلا كما ينظرون إلى الحيوان الضار
الذي لا يستحق الحياة وذلك للصورة المشوهة التي ترسمها للمسلمين
في أذهان هؤلاء القرشيين أبواق دعائية سادات دار الندوة
في مكة .

ولكن ها هي الحقيقة تنسخ تلك الصورة المختلقة المشوهة ،
وتحل محلها الصورة الحقيقية المشرقة لهؤلاء المسلمين الذين لا يكاد
أحدهم يفارق دين الوثنية ويعتنيق الاسلام حتى يتبدل فيه كل
شيء : أخلاقه .. سلوكه .. نفسيته .. الأمر الذي كان مصدر
الدهشة والتساؤل لدى عامة المشركين الذين أتاح لهم صلح
الحديبية الاختلاط بهؤلاء المسلمين ومعرفتهم على حقيقتهم .

رأي سيد ثقيف في المسلمين :

ولقد أفصح الكثير من أتيح لهم الاختلاط بهؤلاء المسلمين
أثناء مفاوضة صلح الحديبية وطيلة أيام الهدنة .. أفصحوا عن
هذه الدهشة لذلك التغير المذهل السريع الذي يحدثه الاسلام
في نفوس معتنقيه ، وعلى تلك الصورة من الوضاعة والإشراق .
وحتى الذين كانوا بالأمس سفاكي دماء وقطّاع طرق .. بمجرد

أن لأمس هدي الإسلام قلوبهم ، قفزوا إلى أعلى درجات السمو
الانساني والانضباط الاخلاقي المستقيم .

فهذا المغيرة بن شعبه (مثلاً) كان شاباً صعلوكاً طائشاً
فاتكماً من قطاع الطرق ، لا يرعوي - قبل اعتناقه الاسلام -
عن قتل أو سلب أو نهب .. تعرف ذلك عنه قبائل ثقيف كلها
أيام كان على دين الوثنية .

وآخر جرائمه الجاهلية البشعة إقدامه - قبل أن يعتنق
الإسلام بأيام قلائل - على قتل إثني عشر رجلاً من بني مسالك
غُدراً ، وكانوا زملاء له في رحلة كانوا فيها عائدين من مصر .

هذا الشاب الذي كان (أيام شركه) رمزاً للطيش والتهور
والوحشية وقطع الطريق ، رآه وسيط قريش في قضية الحديبية
واقفاً على رأس النبي ﷺ يحرسه أميناً على حياته بل مسؤولاً
عن حمايتها ، بعد أن حوَّله الاسلام من وحش كاسر إلى إنسان
مضبوط السلوك يشعر بالمسؤولية وعلى المستوى الرفيع من
الشهامة والنبل والتقيّد بأوامر قائده الأعلى النبي ﷺ .

لقد غيّر الاسلام فيه كل شيء كان يُعرف به في الجاهلية .

وكم كانت دهشة زعيم ثقيف أن يكون ابن أخيه ذلك
الفاتك القاطع للطريق في الماضي ، أميناً على حياة نبي المسلمين .

وليس تغير أحوال ابن أخيه مثار دهشته ومبعث تساؤل
فحسب ، بل إن اختلاط سيد ثقيف بالمسلمين ، والذي أتاحه

له سفارته لقريش إلى النبي ﷺ في الحديبية ، قد مكنه من الإسلام بأمور كثيرة عن أحوال المسلمين كانت محل دهشته واستغرابه أيضاً ، وكان لها الأثر الكبير العميق في نفسه ، مما جعله في النهاية يدخل في الاسلام ويموت شهيداً وهو يدعو قومه ثقيفاً في الطائف إلى الاسلام .

مصارحة قريش :

ولقد كان من مكاسب صلح الحديبية أن تأثر عروة بن مسعود بواقع المسلمين المدهش الذي أحاط به أثناء تفاوضه مع النبي ﷺ كسفير لقريش .. فقد عاد إلى حلفائه القرشيين من الحديبية وهو يحمل الانطباع الصحيح عن المسلمين .

ولم يخف عن حلفائه القرشيين هذا الانطباع المدهش ، بل صارحهم بالتغير الخطير والتحول المدهش الذي لحظه يحدث في حياة وسلوك كل من يدخل في الاسلام ، ولفت نظر القرشيين (بكل صراحة) إلى التطورات التي قد تحدث في غير صالحهم وتشهدا المنطقة نتيجة هذا التغير الكامل الذي يحمله الاسلام معه إلى نفس كل إنسان يدين به ويتبع نبيّه .

فقد قال لسادات مكة - عندما عاد من الحديبية - :
يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقبصر في ملكه
والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط ،
مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً

فروا رأيكم .

ومما لا شك فيه أن" الإنطباعات الصحيحة التي نقلها عن المسلمين عروة بن مسعود - بكل صدق وأمانة - إلى حلفائه من سادات مكة ، كان لها أثرها البالغ في نفوس الكثير منهم .

من مكاسب الصلح : اختار الاسلام في النفوس :

ولم يكن الزعماء والوسطاء وغيرهم من المشركين الذين أتاحت لهم قضية الحديبية - وبالتالي عقد الصلح - الاختلاط بالمسلمين ومعرفتهم على حقيقتهم ، أقل تأثراً من عروة بن مسعود بما لمسوا وشاهدوا من واقع المسلمين الحيّ المدّش ، الذي انعقدت له ألسنتهم دهشة وإعجاباً .

لقد كان من طبيعة العرب الصراحة واستقباح الكذب - حتى وإن كانوا مشركين - .. ولهذا فقد نقل المشركون الذين زاروا المسلمين في الحديبية واختلطوا بهم وعاملوهم بعد إبرام الصلح .. نقلوا إلى الجمهور القرشي كامل انطباعاتهم عن حالة المسلمين ومجتمعهم الجديد ، والذي بُنيَ على أساس من التوحيد والذي رأوا فيه نموذجاً حياً للخير والصفاء والمحبة والتسامح والتآلف والتكاتف وضبط هذا الدين الجديد لسلوكهم .

وأشد ما أدهشهم ذلك الضبط الإداري العجيب ، الذي يلتزمه المسلمون كجزء أساسي من تعاليم الدين الجديد .. هذا الضبط الذي بالتزامه خلّغوا من نفوسهم عنجنية الجاهلية

البغيضة ، وعصية القبيلة الضيقة المغيبة ، التي طالما كانت الإستجابة العاطفية لنزواتها سبباً في إثارة حروب ظالمة تأكل الأخضر واليابس .

لقد حل محل كل تلك الفوضى الجاهلية إنضباط إسلامي رائع عجيب مدهش ، تكفي لتنفيذه والتقيّد به كلمة هادئة تصدر من محمد بن عبد الله ، النبي الذي آمن وصدق به هؤلاء المسلمون واتبعوه طائعين مختارين .

نموذجاً حياً للإنضباط الاسلامي :

ولعل أروع مثال حيّ للإنضباط الإسلامي وكبت المسلمين لمواطنهم ، تقيداً بهذا الإنضباط والذي شاهده بعض سادات قریش في الحديدية فأخذوا به ، ودهشوا له ، يتمثل في قصة أبي جندل بن سهيل بن عمرو ، الذي كان أشد الناس تأثراً - في أعماق نفسه - بهذا الإنضباط .

فقد رأى سهيل بن عمرو وبقيّة أعضاء الوفد القرشي في المفاوضة .. رأوا كيف تفجر الغضب في نفوس المسلمين ، وهاجت عواطفهم عندما رأوا سهيل بن عمرو هذا يأخذ بتلابيب ابنه المسلم ويلطمه على وجهه ، ليرده إلى قریش الشرك وهو مسلم جاء يرسف في قيوده ملتجئاً إلى المسلمين في الحديدية ، لينقذوه ويحموه من إرهاب أهل الوثنيين وتعذيبهم .. رأى سهيل بن عمرو وبقيّة أعضاء وفده وكل من كان حاضراً من

المشركين .. رأوا أن كلمة واحدة هادئة قالها نبيهم ﷺ قد جعلتهم يكظمون غيظهم ويلجمون عواطفهم الثائرة .. نعم كلمة هادئة واحدة قالها محمد بن عبد الله ﷺ لأبي جندل : « إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .

هذه الكلمة الهادئة التي قالها النبي ﷺ لأبي جندل عندما طلب حق اللجوء إلى المسلمين ، رأى سهيل بن عمرو وباقي أعضاء وفده من المشركين كيف قيدت ألفاً وأربعمائة من أصحاب النبي ﷺ إذ رأوا جميعهم أن العهد الذي أعطاه نبيهم في وثيقة الصلح لا يسمح لهم بأن يتخذوا أي إجراء يحول بين سهيل بن عمرو المشرك ، وبين استلام ابنه المسلم ، فلم يجرؤوا ساكناً لحماية أبي جندل ، مع ما يقتل في نفوسهم من غيظ وحنق على المشركين ، وعلى سهيل بن عمرو بالذات ، وبالرغم من قدرتهم الكاملة على حماية أبي جندل الذي لم يستطيعوا أن يصنعوا له شيئاً سوى تشييعه بالدموع وهو يغادر معسكرهم وأبوه يأخذ بتلابيبه ويلطم وجهه في وحشية المشرك الغليظ الفظ .

لأن تلك الكلمة النبوية الهادئة التي أسمعها النبي ﷺ أبا جندل - وهو يوصيه بالصبر - قد جعلت هؤلاء المسلمين حدوداً يقفون عندها في تصرفاتهم إزاء مأساة أخيم في الإسلام أبي جندل . فقد اعتبروا تلك الكلمة النبوية الهادئة بمثابة أمر لهم بأن لا يتخطوا في مساعدتهم أخاهم في الإسلام أبا جندل حدود

المواساة بالتشجيع والحث على الصبر والثبات حتى يكشف الله عنه الغمة ويجعل له مخرجاً ، ولقد وقفوا - بالفعل - عند هذا الحد نزولاً عند رغبة قائدهم ونبيهم الذي حرص كل الحرص على أن يقوم المسلمون بتطبيق معاهدة ذلك الصلح نصاً وروحاً .

كل هذه الإنطباعات المشرقة المدهشة عن المسلمين ومجتمعهم الجديد ، قد نقلها حاضرو صلح الحديبية من أعضاء الوفد القرشي وغيرهم إلى الجماهير القرشية في مكة ، وإلى جيران مكة من كنانة وخزاعة كما هي ، فتأثروا بها غاية التأثر .

وازداد ذلك السؤال الكبير إلحاحاً في نفوس العقلاء من قريش وجيران الحرم .. ترى ما هو السر في هذا كله ؟؟ .

وما هو التفسير الحقيقي لقيام هذا المجتمع المتماثل المتحد الفاضل الذي قوامه هؤلاء الأصحاب من أتباع محمد ، الذين تطلق عليهم أبواق الدعاية القرشية - تبغيضاً فيهم وتحقيراً لشأنهم - إسم الصباة ؟؟ .. هذا المجتمع الذي لا يسع أي عاقل - مهما كان مذهبه وعقيدته - إلا أن يحلّ أعضائه ويحترمهم ، بل ويؤد أن يكون أحد أفراد هذا المجتمع العظيم ؟؟ .

وعلى ضوء البحث الحر والمقارنة النزيهة ، وجد العقلاء من مشركي مكة وغيرهم ، الجواب الصحيح على هذا السؤال الكبير ، وتوصلوا إلى التفسير الصحيح لسبب قيام هذا المجتمع الفاضل المتكامل .

وهو أن الإسلام ، ولا شيء سوى الإسلام ، هو الذي أقام

هذا المجتمع ، وصار الإلتزام بتعاليمه والقيام بتكاليفه ، مصدر كل ما يتحلى به أفراد هذا المجتمع الحمدي من فضائل الإستقامة وضبط السلوك وسمو الأخلاق وانتظام الشمل واتحاد الكلمة .

وهنا ، واقتناعاً بهذا التفسير الصحيح - والنبي ﷺ لما يزل في طريقه من الحديبية إلى المدينة - تأثر ذوو العقول الكبيرة من سادات مكة بما نقل إليهم من إنطباعات صحيحة عن هذا المجتمع الإسلامي الفاضل الجديد .. فاخترت في نفوس هؤلاء العقلاء فكرة الدخول في الإسلام والانخراط في سلك الأسرة الإسلامية التي كان حسن بنائها وفضائل شمائل أفرادها - التي شهد بها العائدون. إلى مكة من شاهدي صلح الحديبية - حديث مكة كلها .

وظل هؤلاء العقلاء القرشيون ينتظرون الفرصة السانحة لإعلان دخولهم في الإسلام وانضمامهم إلى هذا المجتمع الاسلامي الفاضل ، الذي لم يغادر أفراد الحديبية إلا بعد أن تركوا عنهم الانطباعات الخيرة التي فعلت في نفوس عقلاء المشركين من قرشين وغيرهم ما يشبه فعل السحر .

وكان من الزعماء والقادة الذين تأثروا بواقع المسلمين الحيّ المشرف في الحديبية ، فاخترت في نفوسهم فكرة اعتناق الاسلام .. خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعثمان ابن طلحة .

فلم تمض سنة واحدة على أحداث الحديبية المثيرة حتى وقف

فارس قريش وقائد أعنة خيلها خالد بن الوليد - الذي خرج أيام أزمة الحديبية يقود المئات من فرسان قريش لمنع المسلمين من دخول الحرم أو إبادتهم - وقف على الصفا وصك بها قريشاً صك الجنحة حيث صارحهم بأن محمداً حامل رسالة صدق وصاحب دعوة حق ، وأنّ على كل ذي عقل مستنير أن يتبعه .
فقد صاح خالد بأعلى صوته : يا معشر قريش ، لقد استبان لكل ذي لب أنّ محمداً ليس بساحر ولا كذاب ، وأن على كل ذي عقل أن يتبعه .

ثم أخذ سلاحه وركب فرسه واتجه نحو المدينة ليعلن إسلامه يرافقه صاحبه وصديقه عثمان بن طلحة العبدي وعمرو بن العاص السهمي اللذين كانا على رأيه .

وهكذا كان صلح الحديبية - وما صاحبه من أحداث ، وترتب عليه من أمور - مثار إحساسات عميقة ، وتحريك مشاعر بعيدة الأغوار في نفوس العقلاء من كانوا على الشرك ، فقادتهم هذه الاحساسات إلى الاسلام فدخلوا فيه .. وليس بعيداً عن الحقيقة - بل هو عينها - ، ذلك القول : ان صلح الحديبية من أعظم الانتصارات ذات الأثر البعيد الفعّال في توطيد دعائم الاسلام وبناء دولته ^(١) .

(١) قال الامام ابن القيم في كتابه زاد المعاد (ج ٢ ص ٣١٨) - يصف بعض مكاسب صلح الحديبية - : « فصل في الإشارة إلى بعض الحكم التي تضمنتها هذه الهدنة .
=

التفرغ ليهود خيبر والشمال :

كذلك من مكاسب صلح الحديبية - بل ولعله من أهم هذه

= وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها ، فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكيمته وحمده .

فمنها : أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم ، الذي أعز الله به رسوله وجنده ، ودخل الناس به في دين الله أفواجا . فكانت هذه الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه ، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قديراً وشرعاً أن يوطئ لها بين يديها بمقدمات وتوطيئات تؤذن بها وتدل عليها .

ومنها : أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتح ، فإن الناس أمن بعضهم بعضاً ، واختلط المسلمون بالكفار ، وتادوم بالدعوة وأسمعهم القرآن ، وناظروهم على الإسلام جبهة آمنين ، وظهر من كان مختفياً بالإسلام ، ودخل في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل . ولهذا سماه الله فتحاً مبيناً . قال ابن قتيبة : قضينا لك قضاء عظيماً . وقال مجاهد : هو ما قضى الله له بالحديبية .

وحقيقة هذا الأمر : أن الفتح في اللغة : هو فتح المغلق . والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان باباً مسدوداً مغلقاً حتى فتحه الله ، وكان من أسباب فتحه صد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت ، وكان في الصورة الظاهرة : ضيقاً وهضماً للمسلمين ، وفي الباطن : عزاً وفتحاً ونصراً . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم ، والعز والنصر ، من وراء سر رقيق ، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر الصحابة ورووسهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها ، ما مثله سبب

فدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأييده ، وأن العاقبة له ، وأن تلك الشروط واحتالها : هو عين النصر ، وهو من أكبر الجند =

المكاسب السياسية - هو تفرغ النبي ﷺ لتصفية الحساب عسكرياً مع يهود خيبر الذين يعتبرون (بحق) أخطر عنصر محارب عدو للمسلمين في جزيرة العرب .

= الذي أقامه المشركون ونصبوه لحربهم ، وهم لا يشعرون. فذلوا من حيث طلبوا العزة ، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة. وعز رسول الله صلى الله عليه وسلم وعساكر الاسلام من حيث انكروا الله ، واحتملوا الضيم له وفيه . فدار الدور وانعكس الأمر ، وانقلب العز بالباطل ذلاً بحق . وانقلبت الكسرة لله عزاً بالله ، وظهرت حكمة الله وآياته ، وتصديق وعده ، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها. ومنها : ما سببه الله سبحانه للمؤمنين من زيادة الايمان والاذعان ، والانقياد على ما أحبوا وكرهوا ، وما حصل لهم في ذلك من الرضاء بقضاء الله وتصديق موعوده ، وانتظار ما وعدوا به ، وانتظار ما وعدوا به ، وشهود منة الله ونعمته عليهم بالسكينة التي أنزلها في قلوبهم أحوج ما كانوا إليها ، في تلك الحال التي تزعزع لها الجبال ، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمانت به قلوبهم ، وقويت به نفوسهم ، وازدادوا به إيماناً .

ومنها : أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذي حكم به لرسوله وللمؤمنين سبباً لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولإتمام نعمته عليه وهدايته إلى الصراط المستقيم ، ونصره النصر العزيز ورضاه به ، ودخوله تحته ، وانشراح صدره به ، مع ما فيه من الضيم ، وإعطاء ما سأله كانت من الأسباب التي قال بها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ذلك . ولهذا ذكر الله سبحانه جزاءه وغايته . وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمة تعالى وفتح .

وتأمل كيف وصف سبحانه النصر بأنه (عزيزاً) في هذا الوطن ؟ ثم ذكر إنزال السكينة في قلوب المؤمنين في هذا الوطن الذي اضطربت فيه القلوب ، وقلقت أشد القلق ، فهي أحوج ما كانت إلى السكينة ، فازدادوا بها إيماناً إلى إيمانهم . ا . ه . .

فقد كانت تقبّع في خيبر (قبل صلح الحديبية) أشد العناصر اليهودية حقداً على النبي ﷺ تدعها عشرة آلاف مقاتل من اليهود ، لديهم جميعاً الرغبة الشديدة الملحة في الانقضاض على المسلمين ومحوهم من الوجود .

الأمر الذي يحتم على المسلمين العمل بحزم على إزالة هذا الخطر اليهودي الذي يهدد وجودهم بالزوال وذلك يستدعي نقل المعركة إلى عقر دار اليهود في خيبر لإنهاء الوجود اليهودي في الجزيرة كلها .

وهو ما حدث بالفعل في غزوة خيبر ، التي هي موضوع كتابنا السادس (من سلسلة معارك الاسلام الفاصلة) وهو الكتاب التالي لكتابنا الخامس هذا .

فقد زحف النبي ﷺ بألف وأربعمائة مقاتل نحو خيبر ، ونقل المعركة إلى عقر دار اليهود ، مسافة خمسة أيام تقريباً ، وفي هذه المعركة قضى على الوجود اليهودي الدخيل الذي كانت تدافع عنه أقوى قوة ضاربة في جزيرة العرب .

وحسب مقياس العلوم العسكرية - ما كان النبي ﷺ -
ليتمكن من نقل المعركة خارج المدينة مسافة خمسة أيام ليصارح على امتداد هذه المسافة عشرة آلاف مقاتل من اليهود ودون أن يترك أية قوة حربية لحراسة المدينة ، لولا أنه - في ظل صلح الحديبية - قد أمّن جانب أعظم خصم وألد عدوّ تقليدي هو (قريش) التي لم تكن أقل رغبة من اليهود في القضاء على

الكيان الاسلامي والتي تدعمها قوة حربية لا تقل عن ثمانية آلاف مقاتل .

فبالرغم من أن قريشاً كانت بعواطفها ومشاعرها مع يهود خيبر تتمنى لهم النصر على المسلمين ، إلا أن إبرامها صلح الحديبية مع المسلمين قد ألزمها بأن تقف موقف الحياد من القتال الذي ظل يدور بين المسلمين واليهود في خيبر والشمال حوالي شهرين اثنين حتى انتهى بانتصار المسلمين الساحق على العناصر اليهودية جميعاً في خيبر ووادي القرى وفدّك وتيما وكل مناطق الشمال .

من هنا صح (يقيناً) القول : إن تفرّغ القوات الاسلامية الكامل الذي مكّنها من أن ترمي بكامل ثقلها لمحاربة اليهود في خيبر والشمال ، والتغلّب عليهم ، هو من المكاسب والثمرات السياسية العظيمة التي جناها المسلمون نتيجة إبرامهم الصلح مع مشركي قريش وحلفائها الكنانيين في الحديبية .

نقل المعركة الى الشام :

كذلك تمكن النبي ﷺ - في ظل صلح الحديبية - من أن يقوم بأول وأعظم حملة عسكرية في حياته خارج حدود الجزيرة العربية ، لإشعار الامبراطورية البيزنطية بقدرة المسلمين العسكرية ، التي ما كانت هذه الامبراطورية تحسب لها حساباً قبل أن تجتاز حدود الشام وتنوغل مسافة ثمانين ميلاً داخل الأراضي الرومانية في منطقة الأردن .

ففي خلال الهدنة بين المسلمين وقريش ، جهّز النبي ﷺ حملة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل - وهي أعظم جيش تمّ حشده في العهد النبوي حتى ذلك الوقت - .. وأمر النبي ﷺ هذا الجيش بأن يطأ بلاد الروم في الشام ويتوغل فيها ما أمكنه التوغل .

فتوغل الجيش النبوي حتى وصل إلى قرية يقال لها ('مؤتة') ، وهناك دارت أعنف وأول معركة بين المسلمين والجيوش الرومانية ، وقد سمّيت هذه المعركة الخالدة بإسم هذه القرية .

لم ينتصر المسلمون عسكرياً في هذه المعركة الطاحنة .. ولكنهم حققوا انتصارات معنوية وسياسية عظيمة ، بها صبحوا ما كان مرتسماً في أذهان قادة الجيوش الرومانية من فهم خاطئ عن حقيقة الجندي الإسلامي ، حيث أذهلت شجاعة وبسالة هذا الجندي قادة الرومان وجعلتهم يزيلون من أذهانهم - وإلى الأبد - الفكرة الخاطئة المرتسمة عن قصور وضعف الجندي الإسلامي .

حيث صمد في هذه المعركة ثلاثة آلاف جندي من المسلمين في وجه مائة ألف مقاتل من الرومان ، وتمكنوا من الإنسحاب بانتظام ودونما أيّ فوضى أو اضطراب ، بعد أن فقدوا قادتهم الثلاثة وأنزلوا بالجيوش الرومانية أفدح الخسائر .. الأمر الذي أربع الرومان وجعلهم يعدلون عن غزو الجزيرة العربية ، بعد أن كان هذا الغزو مقررّاً القيام به لدى القيادة الرومانية في دمشق .

دعوة ملوك الشرق الأوسط الى الاسلام :

كما أن قيام هدنة الحديبية مكن النبي ﷺ من التفرغ للعمل على إيصال دعوته - وبطريق رسمي - إلى خارج حدود جزيرة العرب .

حيث قام في فترة الهدنة بالإتصال بملوك وأمراء الشرق الأوسط ودعوتهم إلى الدخول في الإسلام ، وذلك عن طريق رسائل خاصة بعث بها إلى كل منهم في السنة السابعة من الهجرة حيث بعث إلى كل ملك أو أمير واحداً من أصحابه برسالة يدعوه فيها وشعبه إلى الدخول في الإسلام .. وقد كانت لهذه الرسائل آثارها المختلفة في الأقطار التي تلقى ملوكها أو أمراءها هذه الرسائل ، ورغم اختلاف تأثير هذه الرسائل ، فقد كان وصولها وانتشار خبرها بين الشعوب لصالح الدعوة الإسلامية دونما شك .

ثوار العيص ، وحكومة المستضعفين في الساحل :

في حديثنا عن قضية الحديبية أشرنا إلى أن هناك الكثير من الشباب المسلم يعانون أشد أنواع الإذلال والتعذيب والإرهاب في سجون أهاليهم بمكة ومنهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو صاحب القصة المشهورة في الحديبية .

وكان النبي ﷺ - كما أشرنا في معالجتنا لقضية الحديبية - قد تمهد لقريش في المعاهدة بأن يمتنع عن إعطاء حق اللجوء لمن جاء إليه من أبناء مكة وأن يردده ولا يسمح له بالإقامة في المدينة

حق وإن كان مسلماً ، وهو الشرط الذي أملاه سهيل بن عمرو
فقبله النبي ﷺ وتضايق المسلمون من قبوله أشد التضايق .

ولم يكن حادث أبي جندل ومأساته في الحديبية الإمتحان
الأول الذي اجتازه المسلمون فوفوا بالعهد حين أعادوا أبا جندل
المسلم إلى أبيه المشرك تنفيذاً لبنود المعاهدة كما تقدم .

ثورة المستضعفين ضد قريش :

من آثار صلح الحديبية العائدة على الجانب الإسلامي بأعظم
المكاسب ، وعلى الجانب القرشي بأشد الأضرار ، هو أن مندوب
قريش في معاهدة الصلح سهيل بن عمرو العامري أملى - أثناء
المفاوضة - شرطاً قاسياً قبل به النبي ﷺ وكان مثار معارضة
شديدة بين جماهير أصحابه في الحديبية .. وهو أن يتعهد النبي
ﷺ بأن يعيد إلى قريش من أبنائها إليها كل من جاء إلى المسلمين
بغير إذن أهله .. يعيده إلى المشركين حتى ولو كان مسلماً .

العمل بهذا الشرط الذي أمّله قريش سبّب لها أعظم
النكبات وأفدح الخسائر إلى درجة اضطرت قريش معها إلى أن
تلجأ إلى النبي ﷺ وتناشده الرحم بأن يقبل بإسقاط هذا
الشرط من بنود المعاهدة فيقبل كل من جاءه من أبناء قريش
ولا يردّه .

وذلك بعد أن تسبب قيام النبي ﷺ بتنفيذ هذا
الشرط في التجاء أبناء قريش المسلمين المتمردين عليها
والفارين من سجونها إلى منطقة العيص في الساحل ، حيث

تجمع منهم ومن أبناء القبائل الأخرى ثلاثمائة مقاتل ، قاموا بالثورة ضد مشركي قريش ، وصاروا - بقيادة أبي بصير - يهاجمون القوافل التجارية العائدة لها ، والتي تحمل السلع دائماً من الشام إلى مكة ، ويقومون بقتل الذين يصاحبون هذه القوافل من القرشيين .

الأمر الذي أنزل بقريش أفدح الخسائر في الأموال والأرواح ... ولما كان هؤلاء الثوار المسلمون هم - بحكم رابطة العقيدة - موالين للنبي وأصحابه في المدينة ، ولا يستطيع السماح لهم بالإقامة فيه ، تنفيذاً لذلك الشرط الذي أمّنته قريش وأدرج ضمن بنود المعاهدة .. فقد لجأت قريش إلى النبي ﷺ وبعثت إليه تناسده الرحم أن يطلب من ثوار العيص المسلمين إنهاء ثورتهم ضد قريش ، ويسمح لهم ولكل من جاءه من أبناء قريش باستيطان المدينة .. وذلك لتنجو قوافل قريش التجارية - والتجارة عمود قريش الفقري - من هجمات هؤلاء الثوار الشباب .

وقد استجاب النبي ﷺ لرجاء قومه - بالرغم من كونهم مشركين - وبعث إلى قائد الثوار أبي بصير ونائبه أبي جندل بأن يقدموا وإخوانهم الثوار إلى المدينة ويتركوا مواقعهم في العيص ، فاستجاب الثوار لأوامر النبي ﷺ وعادوا إلى المدينة .. كما سيأتي تفصيله في كتابنا السابع من هذه السلسلة قريباً إن شاء الله .

أهم مراجع هذا الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
إبن كثير	تفسير إبن كثير
محمد بن علي الشوكاني	فتح القدير (تفسير)
سيد قطب	في ظلال القرآن (تفسير)
الزخشري	الكشاف
البخاري	صحيح البخاري
مسلم	صحيح مسلم
إبن القيم	زاد المعاد
الدكتور جواد علي	تاريخ العرب قبل الإسلام
محمد بن إسحاق	سيرة إبن هشام
أبو الفرج الأصبهاني	الأغاني
أبو حيان التوحيدي	الصدقة والصديق
أحمد بن علي النقشبندى	صبح الأعشى
إبن قدامة	المغني في الفقه
علاء الدين المرداوي	الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف
منصور بن يونس البهوتي	كشاف القناع

اسم المؤلف	اسم الكتاب
محمد قطب	شبهات حول الإسلام
محمد بن محمد بن سليمان	جمع الفوائد
إبن الجوزي	زاد المسلم (تفسير)
خليل مصطفى	سقوط الجولان
الشيخ مصطفى السيوط	غاية المنتهى
الرحيبي	
محمد بن جابر الطبري	الطبري (تاريخ)
الدكتور سموحي فوق العادة	القانون الدولي العام
الدكتور مونتجمري وات	محمد نبي ورجل دولة
عباس محمود العقاد	حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
عباس محمود العقاد	ما يقال عن الإسلام
السيد سابق	فقه السنة
اللواء الركن	الرسول القائد
محمود شيت خطاب	
السيد رشيد رضا	تفسير الإمام محمد عبده
مولانا محمد علي	حياة محمد ورسائله
إبن برهان الدين	السيرة الحلبية
محمد الغزالي	فقه السيرة
عبد الملك بن حسين المصامي	سمط النجوم العوالي
اسماعيل بن كثير	البداية والنهاية
محمد بن الأثير	الكامل في التاريخ
علي بن حزم	جوامع السيرة

اسم المؤلف	اسم الكتاب
عبد القدوس الأنصاري	آثار المدينة
علي بن أحمد السمهودي	وفاء الوفاء
محمد فريد وجدي	دائرة معارف القرن الرابع عشر
إبن منظور الإفريقي	— العشرين
المصري	لسان العرب
محمد بن علي الشوكاني	نيل الأوطار
عفيف عبد الفتاح طيارة	اليهود في القرآن
إبن سعد	الطبقات الكبرى
ياقوت الحموي	معجم البلدان
صفي الدين عبد المؤمن بن	مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة
عبد الحق	والبقاع
عمر رضا كحالة	معجم النساء
خير الدين الزركلي	الأعلام
أبو تمام الطائي	ديوان الحماسة
جورجي زيدان	العرب قبل الإسلام
توماس كارليل	الأبطال
جوستاف لوبون	حضارة العرب
الشهيد عبد القادر عودة	التشريع الجنائي في الاسلام
إبن حجر العسقلاني	الاصابة
إبن عبد البر	الإستيعاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
محمد أبو الفضل — علي النجاي	أيام العرب في الاسلام
السهيلي	الروض الأنف
القلقشندي	نهاية الأرب
عبد العزيز الشعالبي	معجزة محمد رسول الله
عبد الوهاب النجار	قصص الأنبياء
عبد الرحمن بن خلدون	تاريخ ابن خلدون
المسعودي	مروج الذهب
عمر رضا كحالة	معجم قبائل العرب
البكري	معجم البكري
الدكتور حسن ابراهيم حسن	تاريخ الإسلام السياسي
محمد أسعد طلس	تاريخ الأمة العربية
محمد بن موسى الخوارزمي	عجائب الأقاليم السبعة
محمد حسين هيكل	حياة محمد
يحيى بن أبي بكر العامري	بهجة المحافل
المقرزي	إمتاع الأسماع
عبد القادر بن أحمد بن مصطفى الدمشقي	تهذيب تاريخ ابن عساكر
محمد عزة دروزة	عصر النبي
أبو زيد أحمد بن سهل البلخي	البدء والتاريخ
محمد بن عمر بن واقد	مغازي الواقدي
ابن حوقل	صورة الأرض

اسم المؤلف	اسم الكتاب
محمد بن أحمد البيروني	الآثار الباقية من القرون الخالية
المقدسي المعروف بالبشاري	أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
أحمد بن يحيى البلاذري	أنساب الأشراف
علي بن أحمد بن حزم	جمهرة أنساب العرب
أحمد زكي صفوت	جمهرة رسائل العرب
الفضل بن الحسن الطبرسي	جمع البيان في تفسير القرآن
المبارك بن محمد بن الأثير	جامع الأصول من أحاديث الرسول
الجزري	
زيد بن علي بن الحسين	مسند الإمام زيد
عبد الله بن يوسف الحنفي	نصب الراية
الزبلي	
المبارك بن محمد بن الأثير	النهاية في غريب الحديث
الجزري	
أحمد بن تيمية	منهاج السنة النبوية
حافظ وهبة	جزيرة العرب
الهمداني	صفة جزيرة العرب
المصعب بن عبد الله الزبيري	نسب قريش
أبو الحسن البلاذري	الاجتمعات الإسلامية في القرن الأول شكري فيصل
أبراهيم حداد	فتوح البلدان
أحمد بن أبي يعقوب	الحرية عند العرب
جان جاك بيري	تاريخ اليعقوبي
	جزيرة العرب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
الدكتور محمد حميد الله	الوثائق السياسية في العهد النبوي
جواهر لال نهرو	والخلافة الراشدة
محمد بن حبيب بن أمية	لمحات من تاريخ العالم
الهاشمي	المهتر
ول. ديورانت	قصة الحضارة
أحمد أمين	فجر الاسلام
محمد بن عبد الله بن مسلم	عيون الأخبار
ابن قتيبة	
ه. ج. ولز	معالم تاريخ الانسانية
كارل بروكلمان	تاريخ الشعوب الاسلامية
محمد بن أحمد بن علي الفاسي	شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
محمد الحضري	تاريخ الأمم الاسلامية
شمس الدين محمد بن أبي	المختصر في تاريخ البشر
طالب الانصاري	نخبة الدهر في عجائب البر والبحر
عباس محمود العقاد	عبقرية محمد
المؤلف	غزوة بدر الكبرى
المؤلف	غزوة أحد
المؤلف	غزوة الأحزاب
المؤلف	غزوة بني قريظة
محمود بن أحمد الزنجاني	تهذيب الصحاح

<u>اسم المؤلف</u>	<u>اسم الكتاب</u>
علي بن أبي بكر الهيثمي	مجمع الزوائد
الامام السيوطي	الجامع الصغير
محمد بن عبد الله بن بليهد	صحيح الاخبار عما في بلاد العرب
الامام الترمذي	من الآثار
الامام أبو داود	صحيح الترمذي
محمود شيت خطاب	سنن أبي داود
محمد مرتضى الزبيدي	الفاروق القائد
	تاج المروس من جوامع القاموس

فهرس الأعلام

٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٥	- أ -
٣١٩	أبان بن سعيد بن العاص بن أبي
أبو الروم بن عمرو : ٢٣٤	العاص بن أمية بن عبد
أبو الحباب : ١٧١ ، ١٧٠	تمس : ٢١٨ ، ٢١٩ ،
أبو ذر الفقاري : ٤١ ، ٢٣٩	٢٢٣ ، ٢٢٢
أبو سعيد الخدري : ١٥٨ ، ١٥٩	ابراهيم الخليل : ١٢٢
٢٥٧ ، ٢٦٦	أبو العاص بن الربيع بن أمية بن
أبو سفيان بن حرب : ٢٣ ، ٤٨	عبد شمس : ٥١ ، ٥٢
٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢	أبو بكر الصديق : ٣٧ ، ٣٨ ،
١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٢٣	٦٢ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٣ ، ١١٥
أبو شريح الكعبي : ٢٩٦	١٢٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٨٧
أبو عياش الزرقى : ١٣٣	١٨٨ ، ٢٥٦ ، ٢٧٩ ، ٢٩٤
أبو عبيدة بن الجراح : ١٠ ،	٣١٦
٤٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢	أبو حاطب بن عمرو بن عبد
٢٧٩	شمس : ٢٣٤
أبو عبيد الله السكوني : ٦١	أبو جندل : ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١
أبو فروة : ٢٧٦	٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،

ابن عارض : ٥٦	أبو قتادة : ١٣٥ ، ١٧١ ، ١٧٢
ابن عباس : ١٥٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢	١٧٣
ابن عبد المطلب : ٢٠٢	أبو هريرة : ١٤٦
ابن عبد البر : ٢٨ ، ١٣١	أبو وائل : ٢٦٧
١٧٥ ، ٣٠٨	أبو أيوب الأنصاري : ٣٩
ابن عساكر : ١٣١	ابن بليهد : ٢٤ ، ٢٩ ، ٤٨
الإمام ابن كثير : ١٠٣ ، ١٧٤	ابن اسحاق : ٣٨ ، ٨١ ، ٩٧
٣٠٤	٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥
ابن أم مكتوم : ١٢٧	١٥٨ ، ٢١٩ ، ٢٩٣
ابن هشام : ٩٩	ابن الأكوع : ٤٢
أبي بن كعب : ١٠٤	ابن برهان الدين : ٤٤ ، ٧١
إسحاق بن عبد الله : ٢٧٦	ابن حجر : ٥٩ ، ٢٣٦ ، ٢٩٦
أسيد بن الحضير : ٧٩ ، ٨٠	ابن حصن : ٤٢
١٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦	ابن حزم : ٦٩
أسير بن زارم : ٢٣ ، ١٠٧	ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن
١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١	غطفان : ٦٧
١١٢	ابن زعيم : ٢٨٦
أسد بن ربيعة بن نزار : ٤٦	ابن سعد (صاحب الطبقات) :
الأصبغ بن عمرو الكلبي : ٦٢	٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٧ ، ٤٤
٦٣ ، ٦٤	٦٠ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٦
أكيدر بن عبد الملك السكوني	٨١ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ٣٠٨
الكندي : ٦٢	٣١٧
أوس بن خولي : ١٦٦ ، ١٧٠	ابن السكيت : ٥٥

١٧٤	٢٧٦ ، ١٧١
بشر بن البراء بن معرور : ١٧٢	أم سلمة : ١٣٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩
- ث -	٢٩٠ ، ٢٩١
تماضر بنت الأصبح : ٦٤	أم عامر : ١٣٠
تماضر الكلبي : ٦٤	أم عمار : ١٣٠ ، ٢٣٦
- ث -	أم قرفة : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢
ثمالة بن أقال الحنفي : ٢٦ ، ٢٥	٧٣
٢٩ ، ٢٨ ، ٢٧	أم منيع : ١٣٠
- ج -	الجلز : ١٠
جابر بن عبد الله : ١٥٣ ، ٢٣٥	إياس بن مسلمة : ٢١٣
٣٠٨	- ب -
جارية بنت مالك بن حذيفة :	البغاري (الإمام) : ٩٧ ،
٧١	١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٣٥
جبار بن صخر الانصاري : ٨١	٢٩٦
جبريل بن عيسى : ٥٦	بديل بن ورقاء : ١٤٧ ، ١٧٧
جيلة بن الأهم : ٣٠	١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١
الجد بن قيس : ١٣٠ ، ١٦٩ ،	١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٥ ، ١٩٨
٢٣٥ ، ١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٧٠	١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٨١
جذام : ٢٠٢	بريدة بن الحصيب الأسلمي :
جندب بن عمرو : ١٩٢	١٥٥ ، ١٥٦
- ح -	بسر بن سفيان : ١٢٨ ، ١٢٩
الحارث أبو زينب : ١٠٦	١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٧٣

- خ -	الحارث بن ربيعي أبو قتادة: ٩١
٦٢، ١٧، ٩ : خالد بن الوليد	١٨١، ١٨٠ : الحارث بن هشام
١٤٢، ١٤٠، ١١٣، ٧٣	حاطب بن أبي بلتعة : ٢٣٤
١٤٩، ١٤٦، ١٤٥، ١٤٤	الحباب بن المنذر : ١٣٣
١٥٣، ١٥٢، ١٥١، ١٥٠	حبيب بن عينة بن حصن
٢١٩، ١٦٠، ١٥٥، ١٥٤	الفزاري : ٤٤
٣١٢، ٣١١، ٣١٠، ٢٩٥	حبيش بن الأشعر الخزاعي: ٧٤
٣١٣	الحسن : ١٨٩
خبيب بن عدي : ٨٢	الحكم بن عبد مناف : ١٤٢،
خراش بن أمية بن الفضل	١٤٣
الخزاعي : ٢٩٠	الحكم بن العاص : ١٧٩
خراش بن أمية الكعبي : ١٧٥	الحليس بن زبّان : ١٤١، ١٤٨،
٢١٧، ٢١٦، ٢١٥، ١٧٦	٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩، ١٨٤
خزاعي بن أسود : ٩١، ٢١٥	٢١٠، ٢٠٨، ٢٠٦، ٢٠٣
	٢٨٢، ٢١١
- د -	حليمة : ٤٩
دحية بن خليفة الكلبي : ٥٥،	حمزة بن عمرو الاسلمي : ١٥٦
- ر -	حويطب بن عبد العزى : ١٤٣
رافع بن مكيث الجبني : ٥٩	٢٤١، ٢٤٠، ٢٣٩، ٢٣٦
رباح : ٤٢	٢٦٥، ٢٦٤، ٢٦٣، ٢٤٢
- ز -	٢٨٤، ٢٧٩، ٢٧٧
زيد بن حارثة : ٤٨، ٤٩، ٥٠،	حبي بن أخطب النضري : ٢١
	١٠٨، ٨٧، ٨٦

٢٣٥ ، ٢٨٦	٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥
سلمة بن سلمة : ٢٤٩	٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠
سهل بن حنيف : ٢٦٧	٦١ ، ٦٩ ، ٧٦
سهيل بن عمرو العاصري : ١٣٨	٥٩ ، ٥٨ : زيد بن رفاعه
١٤٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩	زيد بن مالك : ٤٣
٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣	رينب : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣
٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨	
٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨	— س —
٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣	سعد بن أبي وقاص : ٢٧٩
٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣	سعد بن زيد بن مالك : ٤٣ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧	١٣٣
٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥	سعد بن عبادة : ١٢٧ ، ١٢٩ ،
٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣١٣ ، ٣١٩	١٧٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧
٣٢٠	سعيد بن عمرو بن نفيل : ١٥٩
سنان بن أبي سنان بن محسن :	سعيد بن عقبة : ٥٧
٢٣٦	سراقة بن مالك بن جعشم
سعية بنت عبد شمس بن عبد	الكناني : ٢٨١
مناف : ١٨٣	سلام بن أبي الحقيق : ٢١ ، ٢٣ ،
	٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧
— ش —	٩٠ ، ١٠٦ ، ١٠٨
الشافعي (الإمام) : ٧٧	سلمة بن أسلم : ٧٧ ، ٨١
الشتيم بن عبد مناف التيمي : ٢٤٨	سلمة بن الأكوع : ٤٠ ، ٤١ ،
شجاع بن وهب الاسدي : ٣٠	٤٣ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥

عبد الرحمن بن عيينة بن حصن :

٦٨ ، ٤٤ ، ٤٠

عبد الله بن أبي بن سؤل : ١٣١

١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٩

عبد الله بن أبي أمية بن وهب :

٢٣٤

عبد الله بن أنيس : ٩٩ ، ٩١ ،

١١٢ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠٠

عبد الله بن حذافة : ٢٣٤

عبد الله بن رواحة : ١٠٩ ،

١١٢ ، ١١١ ، ١١٠

عبد الله بن عتيك : ٩٢ ، ٩١ ،

١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٤

١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠١

عبدة بن الجراح : ٢١٩

عثمان بن عفان : ٦٥ ، ١٨ ،

٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ١٢٩

٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٠

٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٢٥

٢٤٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥

٢٧٩ ، ٢٧٦ ، ٢٥١ ، ٢٤٨

عروة بن مسعود الثقفي : ١١٤

١٨١ ، ١٨٠ ، ١٤٨ ، ١٤١

الشعبي : ٣٠٨

شعيب بن سفيان : ٧٦

— ص —

صفوان بن أمية الجمحي : ١٣٨

٣١٣ ، ٢٢٣ ، ١٨١ ، ١٤٣ ، ١٣٩

صلاح الدين الأيوبي : ١٠

— ط —

طلحة بن عبد الله : ١٢٩ ، ٤١ ،

طليحة بن خويلد : ٧٣ ، ٢٩ ،

٢٣٦

— ع —

عارض بن الهنيد : ٥٧

عاصم بن ثابت : ٣٢

عامر بن لؤي : ١٧٧ ، ١٤٤ ،

٢١٣ ، ١٨٧

عباد بن بشر : ١٥٢ ، ١٣٣ ،

٣٠٩ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ١٦٦

عامر بن ربيعة : ١٣٣

عبد الرحمن بن عوف الزهري :

٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٢٩ ،

٢٧٩

عمرو بن عنمة السلمي : ٢٩٣	١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨٢
عمرو بن هشام (أبو جهل) :	١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٦
٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ١٣٠	١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٩٠
عمير بن وهب الجمحي : ٢٣٤	١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٤
عكاشة بن محصن : ٣١ ، ٣٠	٢١٠ ، ١٩٩ ، ١٩٨
٢٣٦	عمار : ٢٠٢
عكرمة بن أبي جهل الهزومي :	١٥٧
١٧٦ ، ١٤٣ ، ١٣٩ ، ١٣٨	عمر بن الخطاب : ٥٩ ، ١٢٧
٣١٣ ، ١٨٠ ، ١٧٩	٢١٦ ، ٢١٠ ، ١٨٩ ، ١٨١
علي بن أبي طالب : ٥٩ ، ٤١	٢٥٥ ، ٢٣٥ ، ٢١٨ ، ٢١٧
٧٦ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٦٠	٢٦٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦
٢٦٨ ، ٢٦٧ ، ١٨٩	٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩
عديس بن عديس : ١٨٣	٣١٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٧٩
عيننة بن حصن الفزاري : ٣٩	٣١٨ ، ٣١٧
٢٩٢ ، ٢٧٧ ، ٤٤ ، ٤٢ ، ٤٠	عمران بن حصين : ٢٦٧ ، ٢٢٨
— غ —	عمرو بن أبي سفيان بن حرب :
غزية بن عمرو : ٢٣٦	٢٤٧
غيفارا : ١٠	عمرو بن أمية الضمري : ٧٧
— ف —	١٥٩ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٨٠
فاطمة بنت ربيعة بن بدر : ٦٩	عمرو بن العاص : ١٠ ، ٣١٣
— ق —	عمرو بن سالم : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٩
قيصة بن جابر : ١٨٨	عمرو بن سعيد الأشدق : ٢٩٦

مسعود بن سنان : ٩١	قتادة بن النعمان : ١٥٨
مسلم (الإمام) : ٦٩ ، ٧٢	قيصر (ملك الروم) : ٥٥ ، ٥٦
المسور بن خزيمة : ٢٩٠	
مسييلة الكذاب : ٢٥ ، ٢٧	— ك —
معاوية بن أبي يوسف : ٦١ ، ٦٤	كاسترو : ١٠
٨١	كرز بن جابر الفهري : ٧٤ ،
معبد بن أبي معبد الخزاعي :	٧٥ ، ٢٣٤
٢٨٢	كسرى : ١٩٤
المغيرة بن شعبة : ١٨٨ ، ١٩٠	كعب بن الأشرف : ١٨٠
١٩٢	كعب بن لؤي : ١٤٤ ، ١٧٧ ،
المقداد بن الأسود : ١٣٣	١٨٧
المقداد بن عمرو الكندي : ١٤٦	كنانة بن عبد ياليل : ١٩٢
مكرز بن حفص : ١٩٨ ، ١٩٩	
٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠	— م —
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥	ماركس : ١٠
٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧	ماوتسي تونج : ١٠
المنذر بن الحرث بن شمر	المتني : ٥٥
الفساني : ٣٠	محرز بن نضلة : ٤٤
مهرة بن حيدان : ٢٩١	محمد الفاتح : ١٠
موسى بن عقبة : ٢٩٣	محمد بن القاسم : ١٠
موسى بن نصير : ١٠	محمد بن مسلمة الأنصاري : ٢٤
— ن —	٢٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ١٣٣ ،
ناجية بن الأعجم : ١٦٩ ، ١٧٠	١٦٦ ، ٢١٢ ، ٢٣٥ ، ٢٧٩
	مسعدة : ٤٤

- و -	ماجية بن جندب : ١٢٩ ، ١٣٤
الواقدي : ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٧٤	النجاشي : ١٩٤
١٧٦ ، ١٩١ ، ٢٢١ ، ٢٧٠	النعمان بن الحارث الغساني : ٦١
. ٢٧١ ، ٢٧٦	النعمان بن مقرن : ١٨٩
وبر بن عليم : ٦٦	نميلة بن عبد الله الليثي : ١٢٧
وقاص بن محرز : ٤٤	- ه -
الوليد بن عبد الملك : ١٧٥	هشام بن عبد العاص بن وائل :
وهب بن كيسان : ١٥٣	٢٣٤
- ي -	هرقل : ٥٦ ، ١٩٤
يسار النوبي : ٧٥	الهنيد : ٥٦ ، ٥٧

الكتاب القادم :

غزوة خيبر

فهرس الموضوعات

الصفحة

٥	تقديم الكتاب بقلم الكولونيل : عبد الله التل
١٢	تمهيد المؤلف
٢٠	الفصل الأول
	مجل الأحداث السياسية والعسكرية بين غزوة بني
٢٠	قريظة وصلاح الحديبية
٢٠	الأعراب والأحزاب
٢٢	العمليات العسكرية
٢٢	خيبر آخر المطاف
٢٣	حملة القرظاء
٢٥	سيد حنيفة في الأسر
٢٧	ثمالة ينتصر للإسلام من قريش
٢٧	قريش تمتقل ثمالة
٢٨	منع بيع محاصيل اليامة في مكة
٢٩	حملة الغمر
٣٢	غزوة بني الحيات

الصفحة

٣٣	النبي يقود الحملة بنفسه
٣٤	تضليل العدو
٣٥	فرار اللحيانيون قبل وصول النبي
٣٦	المطاردة
٣٦	الإقامة في أرض العدو
٣٧	إرهاب المشركين بمكة
٣٨	الترحم على الشهداء
٣٨	نهي النبي عن الاستغفار لأمه
٣٩	غزوة الغابة
٤٠	فزارة تغير على المسلمين
٤١	الصريح في المدينة
٤٣	إندحار المغيرين واستعادة الإبل
٤٣	قتلى الفريقين في المعركة
٤٤	عودة المرأة الأسيرة
٤٥	حملة ذي القصة
٤٦	حملة ذي القصة أيضاً
٤٨	حملة الجحوم
٤٩	حملة العيص
٥١	إبنة النبي وزوجها الأسير
٥١	ردّ الأموال وإطلاق الأسرى
٥٣	حملة الطرف
٥٥	حملة حسمى

الصفحة

٥٧	احتجاج بني الضبيب لدى القائد زيد
٥٨	زيد بن رفاعه يحتج لدى الرسول
٥٨	الأمر بإعادة الفنائم والسبي
٦٠	حملة وادي القرى
٦٢	حملة دومة الجندل
٦٤	وقفة فقهية
٦٥	حملة إرهاب بني سعد بفدك
٦٧	حملة تأديب بني فزارة
٦٨	الصدّيق القائد
٦٩	نجاح الحملة
٧٠	تحاول اغتيال النبي
٧٢	وقفة تأمل وتدبّر
٧٤	سرية كرز الفهري إلى العرينين
٧٦	سرية زيد بن حارثة إلى مدين
٧٧	بعث عمرو بن أمية الضمري لقتل أبي سفيان بمكة
٧٨	محاولة اغتيال الرسول ﷺ
٧٩	إن هذا ليريد غدراً
٨٠	السعي لاغتيال أبي سفيان
٨٢	أخذ جثة الشهيد خبيب
٨٣	قتل جاسوس
٨٣	مصرع ملك خيبر (أبو رافع)
٩٢	الفدائيون في خيبر

الصفحة

٩٢	تحفسي الفدائيين بالنهار
٩٣	اللغة العبرية
٩٤	الخطبة . . والتنفيذ
٩٧	اختلاف المؤرخين
٩٨	رواية ابن إسحاق
١٠١	رواية البخاري
١٠٤	ليس هناك تناقضاً
١٠٦	المطاردة
١٠٧	مقتل ملك اليهود الثاني في خيبر أسير بن زارم
١٠٢	الاستخبارات النبوية في خيبر
١٠٩	عبد الله بن رواحة في خيبر
١١١	خروج ملك خيبر إلى المدينة
١١٢	كيف قتل ملك خيبر ؟
١١٢	حاولوا القدر فقتلوا

١١٣ الفصل الثاني

١١٦	حروب فاشلة
١١٧	الحرب الشاملة
١١٩	رسوخ جذور الاسلام
١٢٠	يهود خيبر فقط

الصفحة	
١٢١	الخروج للعمرة
١٢٣	الإستعداد للطوارئ
١٢٤	تشبيط المنافقين
١٢٥	القرآن يفضحهم
١٢٥	الصفوة المختارة
١٢٧	أمير على المدينة
١٢٧	حمل السلاح
١٢٨	علامات النسك لا الحرب
١٢٨	شاري بدن رسول الله
١٢٩	ناجية بن جندب على الهدني
١٢٩	هدي الموسرين من الصحابة
١٢٩	تاريخ الخروج للعمرة
١٣٠	الإحرام بالعمرة
١٣٠	النساء المعتمرات
١٣١	والمنافقون أيضاً
١٣١	طلائع للإستكشاف ورجل الإستخبارات
١٣٣	طريق الرسول إلى مكة
١٣٦	كيف تلقت قريش النبأ
١٣٨	قريش في برلمانها
١٣٨	لجنة المتابعة والتنفيذ
١٣٩	قريش تستعد لمنع المسلمين بالقوة
١٤١	تنفيذ خطة الصدق

الصفحة

١٤١	المعسكر الرئيسي لقريش
١٤٣	إطعام المرتزقة
١٤٣	الإستخبارات النبوية في مكة
١٤٥	النبي يستشير أصحابه
١٤٦	المقداد بن عمرو يتكلم
١٤٧	مشادة بين الصديق وابن ورقاء
١٤٨	نذر الحرب
١٤٩	النبي يتحاشى الصدام المسلح
١٥١	سلاح فرسان الفريقين في حالة المواجهة
١٥١	صلاة الخوف في عسفان
١٥١	خالد يحاول مهاجمة المسلمين وقت الصلاة
١٥٣	الحديبية بدلاً من التمتع
١٥٦	النبي وأصحابه يضلون الطريق عدة مرات
١٥٧	الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل
١٥٨	أصحاب الثنية المغفور لهم
١٥٩	بعيره أم إليه من أن يستغفر له الرسول
١٦٠	عودة خالد إلى مكة
١٦٣	حابس الفيل
١٦٦	فضائل حراسة المسلمين
١٦٦	معجزة الرسول في الحديبية
١٦٩	موقف المنافقين من هذه الشجرة
١٧١	نموذج من نفاق ابن أبي

الصفحة

١٧١	مقالة الجد بين قيس المنافق
١٧٢	يتمنع عن المباينة تحت الشجرة
١٧٣	الغلام الذي أعجب الرسول بفصاحته
١٧٥	النبي يبلغ قريشاً نواياه السلمية رسمياً
١٧٧	وسيط السلام الأول
	بدیل بن ورقاء يتأثر بقول النبي ﷺ وينصح قريشاً
١٧٨	بقبول عرضه السلمي
١٧٩	يطلبون مقاطعة الوفد الخزاعي
١٨٠	لا يفلح قوم فعلوا هذا أبداً
١٨٢	قريش ترفض عروض السلام النبوية
١٨٢	الوسيط الثاني
١٨٥	عروة بن مسعود في معسكر المسلمين
١٨٧	مشادة بين الصديق وعروة بن مسعود
١٨٨	مفارقة رائعة
١٩٠	يقرب عنه بقائم السيف
١٩٣	ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة يا معشر قريش
١٩٥	عروة بن مسعود ينصح قريشاً
١٩٦	أول انشقاق في معسكر الشرك
١٩٨	الوسيط الثالث
١٩٨	فشل الوسيط الثالث
١٩٩	الوسيط الرابع
٢٠٠	أخطر انشقاق في معسكر قريش

الصفحة

- ٢٠١ ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت
٢٠٣ سيد الأحابيش ينذر قريشاً
٢٠٥ البحث عن مخرج من الورطة

٢٠٩ الفصل الثالث

- ٢١٠ إعتقال سبعين متسللاً من المشركين
٢١٢ النبي يعفو عن المتسللين ويطلق سراحهم
٢١٢ نشوب القتال في الحديبية
٢١٤ قريش تقتل رجلاً من المسلمين
٢١٤ المبعوث النبوي عثمان في مكة
٢١٦ عمر بن الخطاب يعتذر عن الوساطة
٢١٨ محاولة الاعتداء على عثمان
٢١٨ عثمان في معسكر قريش ببلدح
٢١٩ قيمة الجوار في الجاهلية
٢٢٠ إجماع عثمان بسادات المشركين في بلدح
٢٢١ خلاصة الرسالة النبوية لقريش
٢٢٢ عثمان في مكة
٢٢٣ عثمان عند أبي سفيان
٢٢٣ قريش تطلب من عثمان أن يطوف فيرفض

الصفحة

٢٢٤	بئس ما ظننتم
٢٢٤	مبعوث السلام يزور المستضعفين في مكة
٢٢٦	إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان
٢٢٨	تضايق المسلمين من طول المكث
٢٢٨	المسلمون واقتحام مكة بالقوة
٢٣٠	بيعة الرضوان نقطة التحول في حل الأزمة
٢٣٢	تحول المسلمين نحو الحرب جعل قريشاً تطلب السلم
٢٣٣	سبب اتخاذ النبي القرار بإعلان الحرب
٢٣٥	إبن الخطاب يمسك بيد الرسول للمبايعة
٢٣٧	النبي يبايع عن عثمان
٢٣٧	عثمان يبايع النبي تحت الشجرة
٢٣٨	قريش تسعى للصالح بعد البيعة
٢٣٨	كيف نصح سهيل بن عمرو قريشاً بالجنوح إلى السلم
٢٣٩	سهيل بن عمرو يشاهد بيعة الرضوان
٢٤١	سهيل بن عمرو النجم اللامع
٢٤٢	هيئة الوفد القرشي
٢٤٢	الخطوط العريضة للمعاهدة عند قريش
٢٤٤	سئل الله لكم من أمركم
٢٤٥	رغبة النبي في السلام
٢٤٥	بدء المفاوضات
	إعتقال رئيس الوفد القرشي للنبي وإطلاق سراح
٢٤٦	عثمان وأصحابه

الصلح

- ٢٤٧ النبي يطلق سراح المشركين المحتجزين
- ٢٤٩ بحت بنود الصلح
- ٢٤٩ النبي في حراسة أصحابه
- ٢٥٠ بنود الصلح التاريخية
- ٢٥١ الحل الوسط
- ٢٥٢ أهم بنود الصلح
- ٢٥٤ المعارضة الشديدة للإتفاقية
- ٢٥٥ احتجاج ابن الخطاب ومجادلته النبي ﷺ
- ٢٥٥ ألسنا بالمسلمين وأليسوا بالمشركين ؟
- ٢٥٦ اشتداد الكرب على المسلمين
- ٢٥٨ حادثة أبي جندل المؤثرة
- ٢٦١ تسليم أبي جندل للمشركين
- ٢٦١ النبي يعتذر لأبي جندل
- ٢٦٢ أبو جندل يستسلم ويطيع أمر الرسول
- ٢٦٣ لإزدیاد الكرب على المسلمين
- ٢٦٣ سهيل بن عمرو يرفض شفاعة الرسول في إبنه
- ٢٦٣ عضوا الرقد القرشي يخيرون أبا جندل
- ٢٦٥ تفجر المعارضة بين المسلمين من جديد
- ٢٦٦ التفكير في التمرد ، ولكن !
- ٢٦٨ لمن الخطاب يغري أبا جندل بقتل أبيه المشرك
- ٢٦٩ يا عمر لعله يقوم مقاماً يحمده عليه
- ٢٧٠ عودة المعارضة إلى مناقشة النبي ﷺ

الصفحة

٢٧١	أبو عبيدة ينصح ابن الخطاب بالكف عن المعارضة
٢٧٢	عمر يرجع عن المعارضة ويندم أشد الندم
٢٧٣	تسجيل المعاهدة وتبادل الوثائق
٢٧٣	الخلاف حول صيغة المعاهدة
٢٧٤	سيّد الأنصار يتدخل
٢٧٥	الرسول يحسم الخلاف
٢٧٧	الصيغة النهائية لوثيقة الصلح
٢٧٩	شهود الصلح من الجانبين
٢٨٠	إنهاء حالة الحرب بين خزاعة وكنانة أيضاً
٢٨٠	عداوة الإسلام جمعت بين كنانة وقريش
٢٨١	خزاعة لم تكن عدوة لقريش
٢٨٢	كيف انقلب العدو صديقاً
٢٨٤	خزاعة في عهد المسلمين وكنانة في عهد قريش
٢٨٤	غضب قريش على خزاعة لدخولها في عهد المسلمين
٢٨٦	من ذبول أزمة الحديبية
٢٨٧	النبي يحلّ الإحرام في الحديبية
٢٨٧	من رواسب المعارضة للصلح
٢٨٨	النبي يعمل بمشورة امرأة
٢٨٩	أم سلمة تشير على النبي فتنجح في المشورة
٢٩١	قصة جمل أبي جهل
٢٩٢	مائة ناقة ثمناً لجمل أبي جهل
٢٩٤	نحو عشرين بدنة عند المروة

الصفحة

٢٩٤	مدة الإقامة في الحديبية
٢٩٤	العودة إلى المدينة
٢٩٥	المجاعة في طريق العودة
٢٩٥	النبي يعمل بمشورة ابن الخطاب

٢٩٧ الفصل الرابع

٢٩٨	القرآن وصلح الحديبية
٢٩٨	ثناء الله على أهل الحديبية
٣٠٣	تبشير المسلمين بفتح خيبر
٣٠٦	فضل أصحاب الشجرة
٣٠٧	ثناء الله على أصحاب الشجرة
٣٠٨	أهل الحديبية مثل أهل بدر
٣٠٨	دروس في قضية الحديبية :
٣٠٩	١ - الحيلة والحذر
٣١٠	٢ - ضبط النفس ساعة الاستغزاز
٣١٤	٣ - إحترام المعارضة النزيهة
٣١٧	ندم القاروق على المعارضة
٣١٧	٤ - إيضاح أم نقطة إشكال
٣١٩	٥ - الوفاء بالعهد

للمؤلف

سلسلة من معارك الاسلام الفاصلة صدر منها :

١ - غزوة بدر الكبرى

٢ - غزوة أحد

٣ - غزوة الأحزاب

٤ - غزوة بني قريظة

٥ - صلح الحديبية

٦ - غزوة خيبر

٧ - غزوة مؤتة

٨ - فتح مكة

٩ - غزوة حنين

١٠ - غزوة تبوك

كتب اخرى للمؤلف

العرب في الشام قبل الاسلام

الاسلام ونظرية دارون

لا يا فتاة الحجاز

Bibliotheca Alexandrina



0285264